هلوسة جبريل

أنور رحماني

هلوسة جبريل
أنور رحماني
تدقيق لغوي : أحمد عبدالله
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: ٢٠١٧/٢٨١٥
ترقيم دولي: 978-977-6594-0-5

دار فصلة للنشر و التوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org

مدير عام : عمر الحضري - مدير النشر : محمود محي الدين

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

هلوسة جبريل

أنور رحماني

دار فصلة للنشر و التوزيع

إهداء

الى الكاتب غبريال غارسيا ماركيز لأنّك تستحق أن تعيش ثانيةً

والى كل مريم على الأرض

و الى كل ألم مصلوب بداخلي

الى الحياة

النفحة الأولى

تحرّكت الشمس الكونيّة الثّائرة بداخلها المتهرئ، تقترب من ترتيب انقلاب ضوئيّ على تلك الأحشاء السوداء الظلامية التي سيطر عليها الليل منذ أكثر من سبعة عشر عامًا، طبعت فيهاوفي ثناياها تماثيلَ للصّمت والسطحية القاتلة والبغيضة، وارتسمت في بوابة جسدها وحوش صغيرة ترحّب بهذا المصباح الكويكبيّ الكبير الذي أصبح يتحرّش بها باحثًا عن بعث شرارات كهربائية مثيرة تغوص في كهفها المظلم لتجعله روضة للنور، نور خافت يتّحد في نقطة واحدة كالليزر، ثم يقذف نفسه كالتّماسيح المتوحّشة، منتشرا بين زوايا المعبد الدّيني الملتهب لتصل هي إلى أبعد نقطة في فضاء التّسامح الجسدي، حيث يلتفّ و يدور و يلتوي على عنق الثّمرة اللذيذة ويدفع بنفسه داخلا وخارجا يمزّق أشياء تمزّقت منذ وقت طويل، و يلعب ألعابا قد أصبحت حروبا كونية في وقت قصير؛ يبتسم أحيانا أو يصرخ مرّات أخرى كأنه يبكي طمعا في أشياء يمتلكها لتوه بين يديه، و كأنه يريد اقتلاعها وإعادة خلقها من جديد من فرط الشّعور بالرّجولة المنتشرة فيه على شكل كيمياء هرمونيةتجعله يعبق طربًا جنسيّا يؤجّج المخيال الشّهوانيّ لدى ماريا، ماريا التي لا تصلح لها أيّة تسمية في تلك الحالة سوى آلة للجنس و التأوه.

كانت تضع عليه جسدها وترمي بكلّ مفاتنها عليه لتلامس أعصاب المتعة في نظيراتها على جسده، ولكي تتقاضى أجرة الحياة من إبداع رجولته لعلّها تجد بين فخذيه وصدره ويديه مشنقة للملل الذي كانت تسامره دائما في غيابه،

وهوالبعيد عنها في منزل أهله، وهي تغيّر قنوات التلفزيون بين برامج غلب عليها الطابع السياسي والرياضي التي قتلت روح الإبداع والمشاعر في خلجات الشعب الميت، والتي أصابت مهبلها الحالم من قبل كما في لحظات الفراق بالتقاعد الجائع، أو هي تحرّك فأرة الكومبيوتر لكي تتصفّح الفايسبوك الذي لم يعد سوى مقبرة لبقايا الواقع، ولم يعد به إلا تلك الجثث التي تمثّل دور الحياة و كأنّها حية فعلا، والتي استقلّت تماما عن الحياة الحقيقية، واستبدلتها بحياة افتراضية خوفا من الواقع القذر الذي أصبح بعيدا تماما عن الأحلام الحمراء والصفراء والوردية التي كان أطفال الماضي يسعون لتحقيقها بكل شغف، واحتضرت بين أيديهم كوابيسَ تنسج من الإنترنيت سوقاً أبديّا لبيع الحياه.

الملل كان يجد مقبرة في أحضان حبيبها المراهق؛ يشنقه فيسقط قتيلا في قبلة، أو يعناقها ليجعلها أكثر اندماجا به، ولكي يعطي لجسدها قسطاً من الثورة المفعمة بالنظرية النسبية لأينشتاين المدهونة على عانته ذات الشعر الكثيف، و يرمي ماء غرامه من قضيبه الذكي الذي يعرف جيدا منابع الشّهوة في تلك المجاري التي حفرت من قبل على يد المغتصبين و الأيدي الباحثة عن اللذة، وجهّزت لاستقبال النّهر المقدّس ليخلق بها كونا جديدًا، و يصلّي بداخلها صلاة البيغ بانغ، ويبتهل بين ثدييها المنتصبين استعدادا للسّجود و الركوع على محراب حرميه الشريفين وعلى شفاهها الفارّة إلى مئذنته الجميلة، وقرب سرّتها المضيئة التي تمَنّت بقوة أن تكون بوابة حبّ إيروسي هي الأخرى؛ لتضيفها لتعداد الأبواب المفتوحة للتصويت الديمقراطي للحزب الواحد.

ملحمة تاريخية تكتب بلعابه وبعود القرفة الخشن ليضفي على نكهة قضيبه بعض رائحة السّمَر والشّاي الجزائري السّاخن، وضع ثلاث رشّات عطر جزائري قضيبيّ حارّ مؤلم على رقبة رحمها، في رسالة تناسليّة طبيعية مسلّحة بسلالمَ ربّانية مستعجلة، ورشّتان على وجهها حرّكها بعصاه السّحريّة لتمتصّها مسامها، ورشّة على فمها لتكون بذلك تذوقت طعم رجولته الحمضيّ الحلو المصنوعة

في خليّة نحل جادّة تقع في خصيتيه البلّوريّتين اللّتين اتفقتا أن تجدا بكل ما في جعبتهما من رؤوس نووية قابلة للانتحار، ليفوز رأس واحد بتلقيح الخزانة السريّة، و ليستأجر بداخلها كراء بيت لمدّة تسعة أشهر، فتكبر بداخلها خطيئة الطبيعة الذكية، تلك النّطاف هي ساموراي الجنس والرّغبة، فيكفي أن تموت كلّ النّطف ليشعر صاحبها بمتعة الانتصاب.

خطيئة ثانية تكبر في تلك الأحشاء المظلمة التي تنورت بما فيه الكفاية بحشرات الحب المضيئة، ولم يعد لها أيّ ذاكرة أو ذكرى تمنعها من أن تتمرّغ لمليون مرّة على جسده الذي تعطّشت له منذ نعومة أظفارها، فما في ذاكرتها سوى جنس اغتصاب، جنس ألم، جنس اللاجنس، جنس اللاشعور، جنس عديم المسؤولية، جنس -زيرو-، جنس خالص من مفهوم الاندماج الطبيعي، جنس لا يشبه الجنس الذي تمارسه الآن، قبلة من فمه كانت كطابع بريديّ يحملها رسالة إلى فردوس الشّهوة الأعلى؛ لعابه و هو يمتزج بلعابها، يقرأ عليها أبيات شعر في كنيسة روحية فارغة تعزف بألوان زجاجها، وصدى الصوت صورا جنسية عارية لماريا، وحبيبها الذي يسكر من رحيق ثدييها وهي غارقة في الوحمة السوداء بين عضوه و فخذه الأيسر، يشدّ انتباهها أحيانا منظر غبريال يغدو ويختفي، وكأنه يريد أن يلمّح لها بشيء ما؛ سر كبير لم يكن يستطيع أن يقوله مباشرة لها باللغة أو بالهلوسة أو بالأحلام، شيء مهما كان يحاول أن يتمتم لغة ما حوله كانت هي تبادر بالهروب؛ هروب إلى الأمام خوفا من الخلف، الخلف الذي لم يكن سوى نكرانا للمشاعر و استسلاما للصمت الفكري وفقر للتواصل مع الآخر، فمنذ أن دخل غبريال على حياة ماريا من باب هلوساتها شادًّا بيديه يد حبيبها المقدّس تغيرت حياتها بنسبة مائة و ثمانين درجة، وأصبح لماريا مشاعر وفكر يناقش أنوثتها و يناسب إنسانا يرى الشمس كلّ صباح دون أن تحرق مكبوتاته، إنساناً يضع ماضيه التعيس في كيس قمامة و يلفّه ليرميه دون أن يحمله معه سيرة وحياة، يشتمّ رائحته الكريهة ويقضي بقربه طيلة ما فكّر أو

قرّر بذاتيته الولوج لعالم البشر. النسيان علامة فارقة في حياة الإنسان وبالكاد يكون مفترقا للطرق بين ماض و حاضر، ومعلماً لفسح الطريق لإنسانية ذات أمل مستقبليّ تدفع الإنسان دائما لنكران الموت.

غبريال أعاد صياغة قاموس ماريا عن مفاهيم الحياة والموت، وأعطاها نظرة طبيعية للأشياء، فزجاجة العطر التي كانت دائما تراها رائحة أصبحت تقدّر كل تفاصيلها، والأجزاء الصّغيرة فيها من صانعيها ومن العطر الذي بداخلها وفنّانيه، والجنس أصبح يبدو لها أداة اتّصال راقية و أكثر تعقيدا - على بساطتها - من التكنولوجيات الحديثة في التواصل، والموت لم يعد سوى جزء من الحياة، والحياة لم تعد سوى استقلالية مؤقتة عن الموت، كلّ ما كان يبدو حولها تغيّر، فماريا التي كانت دائما تقول :-الحياة قذارة - صارت تتذوق جمالية القذارة في حد ذاتها، وأصبحت لا تحتقر شيئا حولها، فكلّ ما حولها أصبح اليوم دليلا لحبّها وعلى وجودها في عالم الحقيقة وفي حضن حبيبها المختلف والرائع والذي لا يشبهه أحد على الإطلاق من كل أولئك الرّجال الذين مرّوا على حياتها كظلال كلاب ليس إلا.

في البداية كانت المرأة تتأمل وجه ماريا، حيث يبدو لها انعكاسها على جسدها من فرط التقابل اللاشعوري السطحيّ والخالي من الإحساس الذي كان يطفو فوقها في تنافر مع الأشياء من حولها، أمّا اليوم فقد أصبحت ماريا تعانق وجهها في أطراف المرأة، وتتأمّل ابتسامتها لتتفاجأ أحيانا بيديْ حبيبها تمتدّ على بطنها، و تشدّها في عناق غراميّ مليء بالحنان.

الطفل الذي في أحشائها يلتفّ و يدور في مكانه، و يكبر داخل صدفة بحر كبيرة ليتوغّل في المحيط الهادئ داخلها، يتموج على جلدها أكثر كلّما كبر أكثر، كان يمازحها أحيانا بضرباته المباغتة و يجعلها تبتسم وهي تحسّ به مجدّدا في أحشاءها كرغبة جنسية بريئة.

إحساسها بثمرة الحب تلك تنمو وتزهر داخلها كان يفوق أيّ إحساس عصبيّ

كهربائيّ آخر، فهي كانت تشعر و كأنّها كوكب أرض جديد يحمل الحياة بجوفها و يكتب عليها روحا جديدة تتعتّق كالخمر لتخرج فراشة جميلة .

-من هذا الغبيّ الذي يظنّ أن الله قد خلق الإنسان؟-، و ماذا كانت تفعل أمّه إذاً إذا كان الله هو من فعل؟ الأمّ هي التي تحيك الطفل مثلما تحيك كنزة الصوف من أحشائها تسعة أشهر متواصلة، تعطيه وقتها وفيتاميناتها، وتقسم له من لحمها لتغذّيه، وتنسج أوتار صوته من نسيج عضلاتها، وتعطيه بعضاً من أصواتها وأحاسيسها وكثيرا من المشقّة، وبعد ذلك يأتي رجل دين طمّاع ليسرقه من دينه الأول؛ دين الأمومة الشفّاف و الغريزيّ، ليضعه في كيس القطيع؛ في دين الكذبة و الوهم ليسرقه إلى لأبد.

* * *

تسعة أشهر لتنمو خطيئتها الثانية، وربّما ستكون أكثر قبحا من الخطيئة الأولى، عندما ينكشف لها السرّ الذي حاول غبريال جاهدًا أن يلمّح إليه.

في كل لحظة نمو لجنينها كانت ذكرياتها تلج إلى بقعة الضوء في مخيالها كما يلج الخيط في سمّ الخياط، وكانت تتذّكر أيّام صباها وكيف افتكّت عملية الاغتصاب المقدّس خيط قدرها، وخاطت به قماشة مختلفة عن تلك التي كانت تفكّر فيها من قبل، وكلّما كانت تفكّر في ولادة خطيئتها الثانية كانت تتذكّر ولادة خطيئتها الأولى تتبعها كلّ البيوغرافية دفعة واحدة كخيط سينيمائي رفيع يتقوقع داخل أنسجة ذكرياتها.

فلاش باك أوّل

هزّت إليها جذع الشجرة بقوّة فتاة تحتضر لكي تعيش، ولكن لا شيء سقط سوى القدر المشؤوم، وهي تحاول أن تلد مرآة لها تشبهها لترميها في الوادي العقيم، لتخبّئ فيها شرفها المهدور وكلام العائلة المسموم.

بقيت تشدّ عليه وتصرخ وتبكي بعنف، وكأنّها تراقص الظّلم الذي مُنيت به، وتصارعه في دموع أطفال ولعابها ينهمر من فمها بعد أن فقدت السيطرة على غددها وهي تريد إخراج هذا الذنب العظيم بسرعة إرضاءً لإرادة عليا لمجتمع قذر، لقد كان قلبها يخفق بغير انتظام، مرّة بسرعة، ومرة ببطء، يلامس حساسيات المشهد التراجيدي الذي أحدثه النّفاق الاجتماعي داخلها، وذلك حسب شحن الأفكار التي تراودها في رأسها خفية؛ رأسها الذي حكم عليه بأن لا يفكّر في شيء سوى ملامح مستقبل مجهول لا تعرف إن كان سيكتب له الحياة، ذلك الذي قد يتسنّى لها أن تنسى فيه هذا الحاضر الحيّ الذي جعلها تلد فلذة كبدها الأولى في الغابة تحت الشجرة وهي في عمر الخامسة عشر.

لقد كانت تنّورتها السوداء الملطّخة بقبح هذه الذكرى الأليمة شاهدة على رموز جريمة، منهكة من فرط البراءة تمارس حدادًا على روح الطفولة الشهيدة ، تنّورتها التي عايشت أحلام طفولة مغتصبة كانت كعلَم خفّاق في أرض جيش مستسلم لرياح عليلة.

بقيت تمسك جذع الشجرة بيد، وتحمل التّراب في اليد الأخرى وترميه و تصرخ - اخرج اخرج -، وكان الجنين لا يفهم، كان يماطلها وهي تتألم، أمّا هي فتدفعه

بقوة وهو يتمسك بأحشائها لا يريد أن يقع في بئر هذا العالم المخيف الذي سمع عنه كثيرا و هو يسبح داخلها، كانت تدفعه و هي تشدّ على أسنانها وكأنها تعضّ شيئا يشبه القدر، إلى أن بُثّ شعاع من صوت له بازغًا في الحياة الخارجية، ورأت عيناه نور الشمس وهي تتسلّل بين أغصان أشجار الأرز، وراح رأسه يفتح بوابة المهبل و يمزّقها أكثر ويحدث موسيقى ملساء ولزجة على باب ذلك البيت الغميق، يضرب برجليه كمطرقة لدكّ مساميرَ في نعشها الذي تمنّته بقوة دون أن يقتلها أو تموت.

بعد أن تمّت الولادة وأخرجت آخر أصبع برجليه منها، صرخ صرخته الماقتة لقدره البشريّ، والكارهة لنفَس النفاق الذي يعمّ هذا الوطن الكبير. أمسكته ماريا بين يديها تسكنها الرّعشة والخوف، وبقيت تتأمّله بفرحة عارمة وحزن عظيم، بتناقض رهيب في مشاعرها وبابتسامة عريضة كانت تزيد وجهها ارتباكاً وهي تحطّ على دموع غزيرة تحفر في جلدها شيئا يشبه سؤالا عميقا:-لماذا يحدث كل هذا معي الآن-؟

ضمّته إلى صدرها الغضّ والصغير، وراحت تمشي بكل رويّة إلى الوادي تتأمّله تارة وتحضنه تارة أخرى، لم تتشجّع لكي تلقيه، فهي لم تكن تريد ذلك، بل أرغمت على ذلك، فإن عادت به إلى أهلها سيموتان معا لا محالة.

لم يتسنّ لها الوقت لكي تعطيه اسما، كلّ ما كانت تراه فيه هو اسم -الفضيحة -، فحتى غريزة الأمومة تتحول بسرعة إلى صفر خالٍ من أيّ معنى سوى اللفظ، بقهر المجتمع للإنسان فغريزة حبّ البقاء أكبر من غريزة الأمومة، وإن صحّ القول فقد كان لها غريزتا أمومة تتصارعان في وجدانها؛ الأولى تريدها أن تكون أمّاً لأبناء آخرين، والثانية تريدها أن تكون أمّا لابنها الأول بدون أن تتركه معها.

لقد كان المشهد صعباً بالنسبة لها، نزعت حذاءها وهي تمسك جنينها الملطخ بدم النفاس، وأكملت مسيرها إلى الوادي، وقفت برهة، نظرت إلى نفسها في الماء لكي تتأكد أنها هي وليست إنسانا آخر، ثمّ بكت للمرّة الأخيرة، وجلست

على حافّة الصخرة هناك أمامها بعض السّنابل المتناثرة، يحرّكها النّسيم الذي لا يعطي أيّ أهمّية لما يحدث لماريا، النسيم نفسه الذي كان يفرح معها و هاهو اليوم يفعل الشيء نفسه، ولم يغيّر شيئا في طباعه لأجل صديقته ماريا.

بقيت تتأمّل ابنها المفارق لها عند ولادته، أخرجت ثديها الصغير وراحت تُنهله من حليبها الممزوج بالخوف والخيانة وقهر المجتمع، كان الطّفل يرضع بكل شراهة وكأنه يعلم أنّه سيودّع أمّه لآخر مرة، وقبل أن يشبع الطفل من حليب أمّه وضعته ماريا بكل دهشة، وكأنّها لا تفهم نفسها لم تفعل ذلك!! وضعته فوق الصخرة، ووقفت تتأمّله، وهو يَبكيها أمّاً تفارقه ويصرخ، فكانت تمثّل دور القاسية التي لا مشاعر لها لكي تقنع نفسها بأنّها ستتركه.

هكذا بقيت تتأمّله بنظرة جنرال لجيشه بكل قوّة وبكلّ احتقار، بقيت كالعمود الكهربائيّ لا تتحرّك مدّة طويلة وهي في نفاسها، لكنّها في صحّتها الشديدة كالفرس أو كالحصان، بالرغم من أنّها ولدت في سنّ صغيرة إلا أنّ هول الموقف جعلها في كامل قواها، وفي أتمّ لحظات الجنون والعقلانية معا، و في ذروة الانفصال التام عن العالم.

لقد فكّرتْ في أن تنهشه الذئاب، ثم تأمّلت الذئاب البشرية التي تعيش معها فأدركت أنّ الذئاب الحقيقية لا يمكنها إيذاء طفلها أكثر من المجتمع الذي لا يرحم، ثمّ فكّرت في السارقين و المارّة فأدركت أنّه لا إنسانَ سيؤذي ابنها أكثر من أمّه التي ستتركه وحده وتفرّ.

تأمّلته للمرّة الأخيرة، ثمّ فرّت هاربة ولم تنظر وراءها، كان صوته يبتعد عنها والدموع تنهمر بقوة من عينيها، من قلبها، من رئتيها، من ثدييها، من شفتيها، من شهوتها، من روحها، من فؤادها، من لسانها، من مسامها، من أيّ شيء فيها، أو من حولها، لقد تخلّت اليوم عن طبيعتها، وعن أسمى غريزة فيها، وتحوّلت إلى ذئب بشريّ لأوّل مرّة في حياتها ككلّ الذّئاب البشريّة الذين جعلوها تفعل ذلك.

الصرخة والصخرة كانتا تعبّران معاً عن جمود حادّ، وسطحية فذّة، وألم ممزوج بشيء ما يشبه اللاإحساس، الصرخة كانت تلاقح الصخرة وتخرج من الوادي براعم الخيانة البيولوجية؛ صورة الطفل و هو يحارب الهواء بيديه ليعيش بمنعكس فطريّ للدّفاع عن النفس. قامت بثورة على مبادئ الطبيعة المستفحلة بجانب اخضرار الوادي المتعطش للأملاح المعدنية التي قد تتحلل من تعفّن جسد قد لا يصمد مطولا.

لقد كانت طفلة صغيرة تحب اللّعب مع الأطفال من سنّها، كان سنّها المراهق لا يدرك سوى تلك الشّهوة والرغبة التي لم تتطور بعدُ لدرجة فعل جنسيّ لا متناهٍ في اللذة، فهي لم تكن تسمع عن الجنس سوى تلك المفردات ك -عيب- و -حرام- هنا وهناك، وكانت دائما تتذكّر وصيّة أمّها، وهي تخبط على عضوها الجنسي: -هذا شرفك، هذا أنت، كلّك من أجل هذا، هذا ليس ملكك، هذا ملك للعائلة، لا تعودي أبدا بدونه، هذا ابنتنا و لست أنت يا ابنتنا العزيزة -.

لقد كانت هذه الألفاظ تجرّدها من كل أحاسيسها كفتاة في عمرها، فصدى صوت أمّها يجعلها بالكاد تعرف أنّها يجب أن تعيش لأجل ذلك الشيء الذي لم تكن أبدًا تدرك حقيقته كأداة للاتصال مع الجنس الآخر، كما يستطيع أن يكون أداة للجريمة في يوم من الأيام.

لقد كانت تعيش قبل ذلك في تناغم بين سيطرة رجوليّة تامّة على القرية، وبين نزعة أنثويّة طفوليّة تتمثل لها في حبّها للمتعة البريئة مع صديقاتها وهي تلعب -اللقاف- أو -الغميظة-، أو هي تقفز على الحبل، كانت ككلّ فتاة في عمرها تتناول مدرستها كلّ صباح، ترحّب بقطعة القماش المرفرفة في السماء التي يقال لها عنها إنّها شرف آخر يزاحم عضوها وهي تقسم بصوت عالٍ بالنازلات الماحقات في مدرسة تبعد عن بيتها بكيلومترات تجعل من ماريا تمارس رياضة المشي لساعات قبل أن تصل إليها، و مع ذلك فإنّ براءة الأطفال وتمرّد المراهقين وأحلامهم يصنع حلاوة لأكثر الأشياء ألما في الحياة إلا ذلك الألم الذي

لا يختارونه بأيديهم.
كما كان الأمر في ذلك اليوم الأسود الذي بدا لها أنّه يوم مثل كلّ الأيام، و كانت خارجة من المدرسة لوحدها والثلج يغمر القرية، لقد كانت براءتها تقطف الأزهار في موسم الشتاء، يومها فتح أحد المارّة السيارة قائلا: - ماريا هذه أنت ابنة سي مخلوف ؟ - ، فأجابت ماريا بكل لطف : - نعم سيدي، - فاجابها - : هيّا معي سأوصلك للبيت-.
لقد أحسّت ماريا بنبرة صوته الغريبة دهاء و خبثا كبيرين لهذا الرجل في الأربعينيات من عمره، فصوته كان يشبه صوت شخص تائه في الصحراء يتوسّل الغيمة أن تمطر، لكنّ سذاجة الطفولة جعلت ماريا تركب السيارة.
سألته عن اسمه فأجابها: -اسمي معمر، أنا صديق أبيك، هل تتذكرينني؟ أنا الذي أذبح الخرفان في العيد الأضحى-، فارتاحت له بعد أن تذكّرته.
لكنّه غيّر مسار السيّارة و قال لماريا بصوت خافت :- لا تخافي، الطريق مقفولة بالثلج، سأضطرّ لتغيير الطريق -، وفي الطّريق بدأ يلمس بيديه الخشنتين المكمشتين المائلتين للّون الأسود المنتفختين من البرد القارص فخذ ماريا ويقول لها : - لقد كبرت يا ابنتي-، أمّا هي فقد كان الخوف يعصرها وتنتظر بفارغ الصبر وصولها إلى البيت وهو يحاول إغراءها بشتى الطرق الحيوانية.
كانت ماريا في ذلك الوقت تحرك رأسها في كلّ الاتجاهات محاولة تجاهله لعلّه يفرّ من شهوته تلك ويتركها، ولكنّه لم يفعل، بل شدّ فخذها بيده القذرة بكلّ قوّة، ومن شدة الألم حاولت أن تنزع يده وهي تترجّاه بحروف أقرب إلى الصمت منها إلى الصوت :-أتركني، أنت تؤلمني-، مرّت على عينيها في ذلك الوقت كلّ تفاصيل السيارة، وكان على الكرسيّ الخلفيّ كتاب مكرس بالشّحم و زيت السيارات، وأوراقه الممزقة تشبه أفكارها في ذلك الوقت البشع، كان كلّ ما يبدو منه كلمة -حب- وحرفين آخرين (الكاف و الراء) بسبب بقع الشحم عليه، كانت ماريا تفكّر ذلك الوقت في ألف طريقة لتنقذ نفسها منه، تمنّت من

كلّ جوارحها أن يفعل ذلك الكتاب شيئا ما، فكّرت أن تمسكه وتضربه به لتفرّ، ولكنّه كان أخفّ من أن يجعله يتوقف.
توقّف وركن السّيارة في مكان لا تعلمه الشياطين ولا الملائكة، توقّف حيث الآلهة لا يبدو أنها تهتمّ حتّى إلى أن تنظر، فلم تتحرّك هذه العدالة السّماوية أيّ حركة لإنقاذها.
عرّاها بكل أدب فهو لم يمزق ثيابها، عضّها بكلّ رجولة فهو لم يكن يريد سوى أن يحشر عضوه الجنسي القذر في وجدانها السفليّ، لقد كانت تقفز وتتحرك في كلّ جهة محاولة الدفاع عن نفسها وهي تعضّه، ولكنه كان يتلذّذ باحتكاكها به.
بتلك الطريقة أفرغ جمّ جريمته فيها وجعلها تفقد عذريتها، ولكي يظهر لها بعض الشّهامة أخرج المنديل من عبائته النتنة وراح يمسح لها مهبلها من بقايا جريمته الشنعاء، وهي تبكي بلا صوت وعيونها تشاهد عضوها الصغير وهو يتنفس من ألم الفضيحة، وتسأل نفسها بتناغم مع أمّيتها الجنسية، كيف ستقابل أهلها وقد وقع أمر خطير في المنطقة التي طلب منها دائما حمايتها؟؟
وضع يده على مقود السّيارة وقال لها : - البسي ملابسك يا ابنتي العزيزة، سأحملك إلى البيت، وإيّاك أن تخبري أهلك بما حدث اليوم -، لم تردّ ماريا، لقد كانت الحادثة أكبر من خيالها، من ذاكرتها، من أيّ شيء توقعته في حياتها، من أحلامها الورديّة، ومن كوابيسها، لقد كانت هذه الفاجعة أوّل درس في حياة ماريا تتعلم فيه دفن مشاعرها الحزينة لكي تعيش.
لقد كان طريق العودة إلى البيت يافعا بذكريات الطفولة البريئة، فهناك أمام تلك الشجرة كانت تلعب الغمّيضة، في هذا الطريق كانت ترسم بالطبشور، وتقفز مع صديقاتها على الحبل، ومن جهة أخرى في السيارة كانت هناك آية الكرسي مكتوبة فوق قطعة بلاستيك تتدلى أمام مرآة السّيارة، ووجه -معمّر- وهو يصفّر ويغنّي إحدى الأغاني القديمة وكأنه لم يفعل شيئا لتوّه، فهو لم يدمّر سوى حياة فتاة في عمر الزهور وبكل سرور.

توقّف أمام البيت وفتح لها السيارة، فراحت ماريا تجري نحو بيتها وهي لا تعلم كيف تسمّي ما حدث لها سوى أنه شيء مؤلم، مؤلم للغاية، لم تكن تعرف أنّه يسمّى اغتصاباً، ولكنّها أصبحت مدركة أنّه قد يكون مضيعة لشيء عزيز عليها قد وصّت به كثيرا في بيتها، وخرج السّي مخلوف من بيته ملاقيا صديقه معمّر متشكّرا له على إيصاله ابنته إلى البيت : -أهلا بك يا سي معمّر، عاش من شافك، شكرا لك على اصطحابك ابنتي إلى البيت، فأنت تدري حال مجتمعنا المليء بولاد الحرام -.

فأجابه معمّر :- لا شكر على واجب، هذا واجبي يا سي مخلوف-.

كانت ماريا تنظر إلى المشهد بكل حرقة، فها هو الأب يشكر مغتصب ابنته على واجب اغتصابها، والمغتصب فخور بجريمته، و يقول له بدم بارد ((لا شكر على واجب !.))

إنّه نفاق المجتمع الذي بدأت ماريا تفهمه منذ تلك اللحظة؛ مشهد لن تنساه أبدا، وسيبقى قابعا في ذاكرتها دائما.

اندثرت ذكريات طفولتها في تلك اللحظات، وأصبحت بقايا ذكريات اعتبرتها ماريا منذ تلك اللحظة كذبة الحياة؛ لم تعد الطفولة تعني لها شيئا ولا حتى الجنس، كل ما أصبح يهمّها الآن هو كيف تخبئ سوءتها عن أمّها و أهلها، الذين لم تمثّل لهم سوى غشاء بكارة عليه أن يصمد إلى أن يحمل إلى فراش الزوجية، فيندثر معه مفهوم الشرف المعهود، ليحلّ محلّه شرف زوجيّ آخر يدنّس بالخيانة.

لم يعد النوم يحط على جفون ماريا في تلك الليالي الباردة ، لقد كان ذلك المشهد البائس للعملية الجراحيّة التي أجريت لها من قبل المسمّى -سي معمر- يستعمر نومها ويوقظ خيالها و ذاكرتها.

لطالما صرخت كلّ ليلة، أصبحت تعيش كابوسًا لم تختره بيدها وإنّما اختير لها.

ربّما هو قدر إلهيّ أرادها أن تتعذب هكذا، أو مكتوب بيد روائيّ عظيم يسمى

-الله- يعرف جيدا كيف يقضي وقت التسلية، هكذا استنتجت ماريا خبث المجتمع الذي تعيش فيه وعلمت أنها ستدخل معركة طويلة لكي تعيش، وأنّ الحياة لن تعطى لها في طبق من ذهب كما كانت تتصور الأمر.
نادتها أمّها بكل فنتازية كعادتها لتذكّرها بعبوديتها للذكور :- ماريا تعالي ساعديني في المطبخ، مسحت ماريا مشاعرها بصمت، و ذهبت لتساعد أمّها وقد اختارت أن تقشّر البصل لتبكي بحرية.
أيامها لم تعد في المدرسة سوى أيام صامتة حزينة يتملكها الخوف.
كانت ماريا تذهب للدّراسة دون أن تمشط شعرها، كان حلمها فيما مضى أن تكون طبيبة، أمّا الآن فحلمها لم يعد سوى أن يعود الزمان إلى الوراء وألّا تركب مع -سي معمر- في سيارته، لهذا وفي لحظة شجاعة لم تتمناها ماريا ، وقفت أمام أهلها وقالت بصوت كلّه ثقة - أمي، أبي قرّرت أن أنهي الدّراسة وأتفرّغ للبيت-.
وقف الأب مبتسما وقال لها:- رضي الله عليك يا ابنتي، الحمد لله لقد أخذت القرار الصواب - .
كانت ستفرح برضى أبيها، ولكنّها تذكرت أنها محبوسة اليأس والحزن، فمراهقتها التعيسة لا تريد أن تتركها وشأنها.
نظرت من النّافذة التي فقدت شفافيتها من حجم الرطوبة والبرودة، والتي لم تعد تُغلق أو تؤصد بسبب انتفاخ الخشب، فرأت الأطفال يلعبون هناك بكلّ براءة.
وضعت يدها على شفتيها وراحت تبكي بصمت دموعًا يزيد بريقها مع كل لحظة تبزغ فيها الشمس من الغيوم، أحسّت بالغثيان فذهبت تجري نحو الحمّام و تقيّأت، كانت هذه أوّل علامات الحمل.
وضعت ماريا شالها الأزرق الصوفيّ وذهبت إلى جارتها سكينة، وبعد دردشة كبيرة سألتها بابتسامة بريئة لكي تخفي ألمها.
- سكينة كيف تعرف المرأة أنّها حامل في الأشهر الأولى؟ -.

فضحكت سكينة :- بوه عليّا، عندما تدخل المرأة القضيب في مهبلها فعلى الأقلّ تتوقّع أنها ستغدو حاملا-، وضحكت بصوت مرتفع، لكنّ ماريا لم تضحك، سكتت وأعادت صياغة السؤال :- لكن ماهي العلامات المصاحبة لها؟-، فأجابت سكينة :- حين تتزوجين ستعرفين-، فردّت ماريا - لكنّي أريد الإجابة الآن-، فقالت سكينة :-هناك بعض العلامات كالغثيان والدوخة-، وقفت ماريا وخرجت من بيتها دون أن تسلّم عليها، لم تفهم سكينة سبب تصرف ماريا ولكنّها لم تأبه كثيرا، ذهبت وهي تغنّي أغنية -أنا طويري طار مع لطيار-.

بقيت ماريا أيّاما كالبلهاء لا تخرج من البيت، لا تكلّم أحداً، لا تمارس سوى ما تطلبه منها أمّها أو أبوها، وفي لحظة تفكير مليّة وجدت ماريا الحلّ لكي لا يكتشف أهلها حملها، تذكرت جدّها الأعمى الذي يعيش وحده و الذي تتبادل نسوة العائلة الاعتناء به يوما بعد يوم، وخطرت في بالها أن تعيش معه، إنّها خدعة ذكيّة لكي تبدو طيبة بمساعدتها لذلك العجوز الأعمى، وفي الوقت نفسه هي وحدها من يعلم أنّها تخطّط لتتستّر على جريمة لم تقم بها مع سبق إصرار وترصّد، فهي لم تكن سوى ساحة للجريمة.

قالت ماريا لأمّها وهي تحكّ شعرها وأنفها بإبهامها أحيانا : -أمي، ما رأيك أن أذهب للعيش مع جدي؟ هو يحتاج المساعدة، وهو رجل كبير-، ردّت الأمّ : -ما بك؟ هل جننت؟ هل تريدين منّا أن نرمي ابنتنا البتول في رأس الجبل مع رجل طاعن في السن أعمى لا يستطيع الدفاع عنك؟-، ردّت ماريا باشمئزاز :- ولكن يا أمّي، في الجبل لا يوجد أحد سوى الحلّوف و جدّي الأعمى -، دخل سي مخلوف صلب الحوار: - ما به جدّك الأعمى؟-.

ردّت الأمّ بغضب :- انظر إلى هذه الفكرة اللمّاعة التي أتت بها ابنتك، إنّها تريد أن تعيش مع جدّها في طرف الجبل -.

ردّ سي مخلوف بعد صمت وكانت ترتسم على وجهه نظرات الغضب للوهلة الأولى ثمّ تحوّلت إلى ابتسامة صغيرة، وقبّل رأس ماريا وقال لها :- أبي رجل

طاعن في السن، والكلّ خذله وأنت يا ابنتي يا فلذة كبدي تريدين مساعدته ! لن أمنعك من هذا، غدا صباحا إن شئت سآخذك إليه-.
اغتنمت ماريا الفرصة وأرادت أن تسرع في الفرار فأجابته - و لكن أريد الذهاب الآن يا أبي -، فوافق السّي مخلوف بهزّ رأسه فقبلت ماريا.
رتّبت ماريا بعض ملابسها بسرعة، وراحت مع أبيها هنيهة هنيهة إلى بيت الجد في أعلى الجبل، حيث السماء التي كتبت هذا القدر المشؤوم تبدو قريبة، والعيون الوحيدة التي يمكنها ملاحقتها هي عيون لا ترى. في البداية رحّب الجدّ بحفيدته، و بدأت أوامره منذ تلك اللحظة لا تنتهي وكانت ماريا كلّما يأمرها جدّها بفعل شيء ما تقوم من مكانها تبصق على السّماء و تواصل عملها، إنها أسرع وسيلة للانتقام من هذا الرّوائيّ البائس الذي يقبع هناك وراء الغيوم.
مرّت الشّهور، شهر يتلو شهر وكانت ماريا كلّما عرفت أنّ أهلها قادمون لزيارتها تفر لالتقاط البلّوط أو ما شابه من الغابة، لقد كانت بطنها تنتفخ كلّ أسبوع أكثر؛ حاولت ماريا مرارًا إسقاطه لكن بدون جدوى، لقد كان الجنين لصيقا بها متشبثا بالحياة إلى أن أتى ذلك اليوم البائس الخالي من الأحاسيس الذي ولدت فيه ماريا رضيعا و فارقته آخر مرة.
عندما كانت تفر من أرض المعركة، أرض الولادة كانت تشعر بخيط رفيع يقطع قلبها قطعاً صغيرة. في جوفها كانت تنفصل وحدة الزمان والمكان، كانت السماء والأرض تبدوان أرقاما جوفاء وأعدادًا بلا أحاسيس، كلّ ما كانت تشعر به ماريا وبقايا الحبل السري يتدلى من أسفلها أنها لم تعد تؤمن بشيء، اضمحلت كل الموروثات الاجتماعية التي وُرّثتها، لم تعد تشعر بشيء البتة على الاطلاق، ولكنها لازالت صامدة تريد أن تعيش، لربّما الحياة ليست الكلمة المناسبة لما تريد أن تعيشه ؛ ولكنها بمداد مضيء لم تفقد الأمل في أن تكون بكلّ بساطة.
عندما وصلت لبيت جدها أخذتها نوبة من البكاء الشديد، أُغمي عليها، ولكن لم تجد شخصًا ليوقظها سوى صوت جدّها يناديها لإحضار بعض الحليب، نهضت

وهي تبكي، بحث الجدّ الأعمى عن حفيدته، لامس بيديه وجهها وأخذها في أحضانه، فبكت ماريا بكلّ قواها، بقيت لزمن طويل وهي تبكي، ثم نامت من التعب. استيقظت وقد كان الليل قد سقط على الأرض، فقامت وراحت تجري إلى الوادي لكي تبحث عن ابنها وكلّها أمل بأن تجده حيّا، ذهبت تجري كالمجنونة، كأمّ صغيرة تذكّرت أنها أمّ بعد فوات الأوان. وصلت إلى الوادي وكلّه ظلام بائس، بحثت عن ابنها في كل مكان لكنها لم تجده، فراحت تشتمّ الصخرة وتبكي وتصرخ - ابني أين أنت يا حبيبي ؟-، قامت وراحت تبحث عنه في كلّ مكان، ولكنها لم تجده، عادت إلى بيت جدّها بأقصى سرعة تبحث عن آلة حادّة للانتقام، أمسكت خنجر الجد القديم وراحت تجري نحو القرية، اتبعت خريطة الانتقام وبحثت عن بيت سي معمر مدة ساعتين إلى أن وجدته، لقد كانت تلك السيارة نفسها التي سيقت فيها إلى هذا القدر الأسود، وقد كان باب السّيارة مفتوحا، دخلت السّيارة وبكت، قطعت آية الكرسيّ ورمتها وانتظرت أنوار البيت إلى أن انطفأت، ورأت السّي معمّر يخرج ليقضي حاجته في الخارج كأيّ حيوان، حيث انزوى ليس ببعيد على الطريق وخلع سرواله ليقضى حاجته بمحاذاته، تبعته ماريا خلسة، وانتظرت أن يكون غافلا عن ضربة السكين، وبدون أن تحسّ هوت بالسكين على رقبته من الخلف، فقام معمر مفجوعا من مكانه وهو يمسك رقبته التي فاضت بالدماء، لكنّ سرواله المخلوع جعله يتعثّر فوقع في الأرض غارقا في دمائه و قذارته، وظلّت ماريا تراقب المشهد وعينا سي معمر بالكاد تلمحها، وقد بدا عليه الشّحوب من فرط الدّم الذي سال منه، فماريا وبدون وعي قد أصابت وريده، ما جعله يفقد روحه بسرعه، وهكذا وبعد أن تأكّدت من موته عادت إلى بيت جدها بلا خوف أو ندم، لقد قُتل ضميرها ونُفيت مشاعرها مع ابنها الذي رمته أو ربّما أكلته الذئاب، لم تعد ماريا تخشى شيئًا.

وصلت إلى بيت جدّها، وضعت الخنجر في مكانه، و نامت ، وكأنّ شيئا لم

يحدث . اليوم في سنها الذي يقارب السادسة عشر، قرّر القدر أن تصبح ماريا مجرمة هكذا بين ليلة وضحاها، ارتكبت جريمتين وانتهى بها الأمر نائمة وكأنّ شيئا لم يحدث.

نامت وكأنها لم ترمي ابنها، و لم تقتل أباه، ولم تجعل منه يتيمًا من أوّل ليلة في حياته، أو ربّما آخر ليلة، فقد يكون ميتا هو الآخر، ومن يدري؟ ! ربّما لايزال حيّا يرزق. نامت كطفلة صغيرة، نامت وكأنّها سفينة شراعيّة تطفو فوق البحر الميت، نامت بكل هدوء، بكلّ سكون، بكلّ لا شيء على امتداد الفراغ و الصمت.

نهضت في منتصف النهار اليوم الموالي، تصرّفت على عادتها وكأنها محت اليوم الأخير من ذاكرتها، أو كأنّها ليست هي من فعل ذلك، وكأنّها لم تلد لتوها، نهضت، سرّحت شعرها، وخرجت، وملأت الدّلو من ماء البئر، وغسلت وجهها بالماء البارد، وتذكرت جدّها - يا ترى لما لم يناديها اليوم؟ لما لم يرهقها بالأوامر كعادته؟-، دخلت البيت وراحت تبحث عنه فوجدته جالسا على السرير متكئًا على عصاه بيديه مطأطئًا رأسه، اقتربت منه وراحت تهزّه قليلا، فسقط العكاز وسقط معه جدّ ماريا ميتا ساكنا، لم تدرك ماريا ماذا تفعل، جرت نحو ما تبقى من ماء الدلو و رمته عليه، إلا أنّه لم يستيقظ، فراحت تجري نحو بيتها حافية القدمين تسقط أحيانا وتنهض أخرى، وترافق حفيف الأشجار الشامخة منادية أباها، وأخبرته بكلّ هلع محاولة ألّا تجرحه، نظرت في عينيه وقالت له :- جدّي في الجنّة-، بقي الأب يتأمّل ماريا بكل هدوء، ثم وضع يده على عينيه كي لا يجرح رجولته فاحتضنته ماريا.

ما أجمل أن يمنح الزمن لنا ويعطينا بعض التواضع الهادئ، وما أجمل أن تنكسر شوكة أبي الرجل بين يديّ للحظات وكأني أحميه، رغم أنّ جدّي كان غاليا على قلبي إلّا أنّ هذه اللحظة كانت أغلى، فأبي لم يعرف الدموع منذ ولادتي، ولم أعرف يوما أنّ له مشاعرَ سوى اليوم ..، قالت ماريا ذلك بحرقة كبيرة وهي تحاور نفسها.

وفي أيّام بعيد الجنازة كانت أحيانا تصعد للجبل تتوغل في الغابةلتبحث عن ابنها لكن بدون جدوى، غير أنّها لم تفقد الأمل أبدا، كانت تبحث كلّ يوم حتى أصبح بحثها مَهمّة جديدة في حياتها تعوّدت عليها، فأصبح هذا الروتين لا ينقص من ابتسامتها شيئا على الإطلاق، كانت تبحث وابتسامتها لا تغادر شفتيها، لم تسأل نفسها لم رمته؟ ومكانها لم ترمي إنسانا، بل رمت شيئا ما كانت تمتلكه، في الحقيقة ليست هي من كانت تبحث عنه بل الغريزة.

بعد أيّام فقط من جنازة الجد، وبعد عودة ماريا لبيتها فوجئت بطلب زواج، أو طلب اغتصاب بعقد شرعيّ، شابّ في الخامسة والثلاثين من عمره يطلب يد ماريا ذات السادسة عشر ربيعا للزواج، وأبوها يزوّجها شرعا دون موافقتها أو بالأحرى دون سؤالها حتى.

لقد سارت الرياح بما لا تشتهي ماريا، فماريا لم تحسب حسابا للفضيحة، فجدها يرحمه الله غطّى بعماه على سوأتها، وسترها إلى آخر لحظة ثم مات، وها هو عبد الرّحيم، الشاب الفلاح الذي يمتلك قطعة أرض كبيرة نوعا ما و جرار وبقرتان وبعض الدجاج، يحاول ضمّها إلى أملاكه العقارية. في الحقيقة لقد كان وسيما في نظرها بالرغم من أنه يكبرها سنّا بكثير، وقد كانت تنظر إليه بحسرة، فهي صغيرة وأصبحت تعلم ما يعلم الكبار عن الجنس والمفردات القبيحة، وقد أرادت أن تشتهيه كأيّ فتاة تقبل على الجنس، ولكنّها في نفس الوقت تعلم أنّه سيكتشف خطيئتها التي ارتكبتها رغما عنها، وسينتهي بها الأمر ضائعة ولا تعرف كيف تبرّر الجريمة التي لم ترتكبها.

لقد كان عبد الرحيم لطيفا جدا في فترة الخطوبة القصيرة، وكان يحضر الهدايا من كل صنف لماريا التي أصبحت تعيش دور العروسة الصغيرة، و تصدّق اللحظة وتتزين له في كل مرة، وأصبحت ترفع حمالة الصدر كي تبدو أثداؤها مرفوعة، وتلبس ملابس داخلية رفيعة حتى يبدو قوامها لتغريه أكثر، وفي أغلب الأوقات كانت تنسى أنّها بلا غشاء للبكارة، بلا شرف، بأنّها ليست إنسانا في

مجتمع الرّجال والضجر والنساء والبقر.
ومع خطوات متقاربة للوقت تسمرت على جبهتها نوتات فزع هاربة من سلفاج الشيطان، بدأت مشاعرها تعطي قطرات شحيحة من رحيقها لهذا الرجل الذي يبدو شهما بعد أن عاملها على الأقل كامرأة، في وقت عاملها الكلّ كشيء يقف على الأرض لأجل الجنس فقط؛ ولو كان هو الآخر رجلا يبحث بشكل مستتر فيها عن الشيءنفسه، فهو رجل وكل الرّجال مغتصبون، وهي مهما طوّرت نظرتها للرجل فلن يكون في نظرها سوى وحشٍ كاسر، ومستعمر غازٍ لأرض النساء؛ النساء اللائي قدّمن الكثير وليس يهمّ من هنّ سوى القليل في بقعة قليلة الضوء، أو مظلمة حالكة يرى فيها الرجل أرضا للزراعة يريدها بورا من اللحظة الأولى، ليسقيها أول قطرات أمطاره الجنسانية.
أياما قبيل العرس كان البيت يعجّ بالضّيوف وبالتحضيرات؛ كان الكلّ سعيدًا إلّا ماريا، كانت تتظاهر فقط بذلك والخوف يعصرها وهي تمثّل دور السعيدة بالعرس، عرس الذئب، نعم، مثلما نسمّيه بالعامية، فقد كانت مشاعرها مختلطة كيوم مشمس وممطر في الوقت نفسه، يا له من حظّ تعيس سعيد يتملّك حياة تلك الماريا.
جاءت أمّها بكلّ شجاعة تحسب نفسها ستؤدّي عملا جبّارا لتعلّم ماريا كيف تفتح رجليها ليدخل بينهما نور الشمس، ولكي تعلّمها كيف تقبض على المقود جيّدا، وكيف تضعه في فمها ببطء.
لقد كانت تلقّنها كيف تكون آلةً جنسية يستعملها عبد الرّحيم لليلة واحدة، ستكون بذلك صناعةً عسكرية أكثر منها علاقة جنسية.
ماريا لم تكلّف نفسها عناء الاستماع، كل ما كانت تفعله هو هزّ رأسها والتظاهر بالارتياب والتعجّب رغم أنّها تعرف كلّ شيء، فهي ليست زوجة جديدة فقط، بل هي أمّ كذلك، مازالت لم تنسى مولودها، هي فعلا تريد أن تداوي قلبها المفجوع بلذّة ذلك الجسد الخشن الذي يبدو أنّه يقطر شهوة، ذلك الجسد

الذي لطّخ بالأمس في ذاكرتها، وتريد أن تتصالح معه اليوم، إلا أنّ الجريمة كانت أكبر من إرادتها، الجريمة كانت قد تركت مسرحا لها في عضوها المبتور، ولم يعد لها أبدا القدرة على ممارسة الحبّ بصفة شرعية، وخصوصا في هذا اليوم البائس، لقد كانت ماريا تحارب مشاعرها بالتّجاهل، كانت تعيش اللحظة وتقنع نفسها أنّ كلّ شيء سيمرّ على ما يرام، بالرغم من أنّها كانت متأكّدة أنّه لا شيء سيمرّ على ما يرام، ولكنّ تصرفاتها، شعورها، دقات قلبها، تسريحة شعرها، عينيها، كل شيء فيها أحيانا، كان يُبدي فعلا أنّ كلّ شيء سيمرّ على أفضل ما يرام، إلا شيئاً واحدًا كانت بالكاد تشعر به، وضمير العائلة اليوم كلّه مرتبط به، إنّه بوابة الانتهاء التي أفِلت فيها شمس ماريا واستيقظت في ليل عتمتها عديمة الشعور وبلا أخلاق.

لقد كان البيت كلّه ضوضاء كمدينة تتقلب فرحًا لعرس تنّين ميت، لنار لا تستعمر المادة، لا تحرق أحدًا، لكنها تحرق نفسها بنفسها لحيتان تصدر أصواتًا تشبه العصافير، لتلتهمها الحيتان الأكبر، لقد كان البيت أشبه بأفلام رعاة البقر، حيث يهبّ البطل القاتل ويدفع الباب برجليه ليقتل كلّ الجالسين على الحانة ويحتسي كأس الجعّة مجانًا، ويفرح المتفرجون، كان البيت أشبه بمن يرقص على جثّة مبتسمة، كانت أصوات الطّبل تهزّ حيطانه، تحبس أنفاسه والأطفال يتناوبون على المرحاض، حتّى ذلك الذي ليس له حاجة ليقضيها، له حاجة أخرى؛ ليثير المتاعب، على الأقل هو أيضا عليه أن يتبوّل على هذا البيت وعلى هذه الأسرة، كلّ الولدان يبدون فرحين بقضبانهم، إلا البنات يلعبن دور العروسة ولا يعرفن من وظائفها شيئا، إنّها البراءة التي لا تعرف عنها البنات شيئا، فأغباهن تظنّ أنّها الأذكى لأنّها تمشي كالكبار، وتبتسم كالكبار، وتأكل كالكبار، وترقص كالكبار، وتمشط شعرها وتضع المكياج كالكبار، إلّا أنّها لا تستطيع أن تقلّد الكبار في نفاقهم وجبروتهم المذلّ للإنسان وتسلّط بعضهم على البعض باسم الدين والأخلاق، وهم أكثر من يكرهون الأخلاق، كانت كلّ بنت منهن مشروع

ماريا جديد بأشكال كثيرة وقصص مختلفة.
في تلك الأثناء خرجت ماريا محاطة بزغاريد النساء والطبل المزخرف بالنفاق، لقد كانت ماريا جميلة جدّا ومع ذلك لازالت طفلة؛ ست عشرة سنة ليست بالعمر الطويل، ولكنّ ما رأته ماريا ربّما كان يماثل سنّها بالمقلوب أو ربّما أكثر، لكنّها لم تصبر، بل لم تشعر بشيء، انعدم إحساسها بشكل مفرط، وقلبها أصبح اليوم كتلة جليد تنبض ولا تذوب، حتى حقّ التوبة نزع منها فهي لا تتوب، وحتى الجرم، لمن ترتكبه؟ ولماذا تتوب عن شيء كان فيها ينتظر ساعة الحسم بلا أدنى شفقة على الذات؟ استسلمت لقدرها و قرّرت أن تنكر ما يحدث، وأن ترقص كأيّ عروس بكلّ فانتازية، وقفت ماريا على أطراف أصابعها ورقصت بكل فرح، و استحقت بذلك غيرة كلّ النساء، ورحن يدارين غيرتهنّ بالرقص، لقد تزوجت ماريا بأجمل شابّ في القرية، ومن سوء حظّها أنّ أيّ فضيحة اليوم سيكون دويّها أقوى من الهاون، في المدينة كل النساء غير المتزوجات سيعملن على تحطيمها، تحطيم سمعتها بلا رحمة، ففي حرب النّساء لا مكان للخطأ، كلّ النساء في أتمّ الاستعداد للانقضاض على الأخريات، خاصّة وإن كان الأمر عبارة عن عقد زواج قد تزهق الأرواح لأجله بسهولة بينهنّ في مجتمع ذكوري قضيبي كهذا.
بقيت ماريا تمثّل دورة السعيدة أو ربّما كانت تشعر بالسّعادة فعلا، بل هي فعلا سعيدة، انظروا لتغنّجها الزائد عن اللّزوم؛ قالت إحدى المصفرات المدعوّات للحفل حسب التعبير العامي .
راحت ماريا ترقص وتضع يدًا فوق أخرى من باب التصفيق، ومن باب النكاية في أولئك النّسوة الشاحبات كحبّات الليمون، وكانت ماريا تريد أن تنتقم منهنّ مسبّقا وهي تعلم ما سيفعلن بها اليوم وغدا وبعد غد و إلى الأبد، فالنّساء عندما يردن محو امرأة يمحنّها إلى الأبد بتخليد الفضيحة، إذن هو هجوم استباقيّ كانت تقوم به ماريا، لكي لا تخرج من معركة الزواج البلاستيكي اليوم

بدون نقاط تحسب لها.
رقصت أحيانا، تصدّرت أحيانا أخرى وابتسامة عريضة كانت تطفو وجهها، والماكياج كان يجعلها تبدو أكبر بعشر سنوات، كانت تبدو فعلا غزالة هاربة من سماء باريس، كانت تبدو عروسة بحر تراقص أمواج الشمس الذهبية التي تسقط على القرية، ولكن للأسف لم تكن عروسا في قلبها، بل كانت منفية مقصاة، سجينة، حزينة، يلفّها الضّباب ويعمي بصيرتها، ويعمي مشاعرها التي أصبحت تائهة بين العوالم، تقتنص اللّحظة وهي تقاوم، تجالس السهو وهي تسامر المدفئة المطفأة في عزّ هذا الصيف وفي ظل هذا الفرح المهدور دمه منذ البداية، تعانق النجوم التي ترسمها في خيالها كي تنكر تلك الوجوه المسمومة التي تحيط بها في هذا العرس وهي تبحث عن ابنها الضائع بين أثدائها وذراعيها، فربّما قد نسيته في مكان ما هناك بين الأمل و حليبها الذي لم ينهل منه ثمرة موتها ولو قطرات.
بقيت تبتسم، ولكنّ ابتسامتها كانت أحدَّ من السيف على وجهها وهي تفكّر؛ تفكّر في كل شيء، في ثورة الغضب التي ستعتري العائلة بعد أن تعرف حقيقتها، في مسلسل القتل الذي سيذبحها مرارا وتكرارا، وعن بذور الشرّ التّي أصبحت تزرع في كلّ مكان حولها، وهي تستبق موتها بأغاني الفرح، وكذلك في جسد عبد الرّحيم وكيف ستلتهمه بكلّ شهوة، وفي الوقت نفسه تفكّر في نفسها إن كانت تبدو جميلة، أو إن كانت تسريحة شعرها تليق بيومها هذا.
إنّها لحظات عميقة من الجنون والاضطراب في وقت تجمّعت فيه كلّ المتناقضات دفعة واحدة لتركل ماريا بين ليلة وضحاها، لتخرجها من عالم الطفولة البريء إلى عالم الكبار الوسخ.
عاشت ماريا العمر كله وماتت ملايين المرّات، في كلّ أجزاء الثانية كانت تموت وتعيش، وإيقاع الطّبل في العرس يضرب قلبها، ويطعن أسرارها، وهي ترى جميع خططها تفشل أمامها بكلّ بساطة، وكان كلّ ما فعلته لتستر على نفسها

باء بالفشل، وأصبح بين ليلة وضحاها هباءً منثورا.
لعلّ ذلك الرّوائي الذي يجلس في السماء يلهو بها لكي لا يشعر بروتين الحياة التي خلقها، وهو يلهو بجسد تلك الفتاة المعدومة، ويسرق منها أحلامها وسعادتها بكلّ عفوية، لعلّه ربّما ينتقم منها لأنّها تعوّدت سبّه كلّما أخطأ التقدير، مثلما يسبّه العديد من المظلومين في هذه الحياة.
بسبب كاتب سيناريو فاشل لا يكترث سوى لنفسه، وكيف يملأ وقت فراغه بالدّوس على كرامة البشر !!... هكذا فكّرت ماريا واستنتجت هذه الفكرة وألحدت منذ تلك اللحظة بذلك الإله الشرير الذي يحبّه هذا المجتمع الشرّير، والذي جعلها تعيش كلّ هذا الشرّ دون أن يترك لها أيّ مجال بأن تقرّر عن نفسها، هذا الإله الذي يبدو أنّه فرد من المجتمع يحبّ ما يحبّون، و يكره ما يكرهون، إنّ هذا الرّبّ في الحقيقة هو ذاته المجتمع، فالمجتمع بعبادته لهذا الإله يعبد نفسه فقط، ويبارك أفكاره المتعفّنة بإنسابها إلى ذلك الخالق المبتور اليد، الذي لا يستطيع الدّفاع عن ماريا أو نجدتها، أو حتّى أن يحمل قلمه ويحرّف خطّ الرواية قليلا ليجعلها سعيدة بعض الشيء.
يبدو أنّه لا جدوى منه ولا أمل.
لم تنته مراسيم العرس حتى أخذت من ماريا كل ذكرياتها، و مصّت من مخيّلتها كلّ الأفكار، وجعلتنفسها إنسانا فراغا من أيّ مشاعر، من أيّ أفكار، من أيّ أحلام، إنّها ذلك الجسد الميّت الذي يعيش.
لماذا يخاف من الموت الميت؟ ولماذا يتمنى الحياة الحي؟ و لماذا الموت موت إذا ما كانت الحياة تملؤه؟ و لماذا الحياة حياة إذا كان الموت يقتلها؟ اسئلة لاواعية كانت تجعلها تحلق بعيدا عن وعيها المكاني لا تعرف شيئا لا جواب لاي سؤال كان يجب لها ان تشي فمشت كالروبوت، كآلة وهي تتصنع الفرح، أخذتها نسوة من معصمها، والأخريات يحملن شموع بعد أن بدأ الغروب يحمل أمتعته كجزء من تلك الطقوس الروحانية التي قد تعوّد المجتمع على

إقامتها لفضّ غشاء البكارة المقدّس.
لقد تاهت ماريا بين تلك النظرات، وراحت تأخذها إحدى نوبات الفلاش باك، راحت تتذكّر لحظات ولادتها، ثم لحظة فراقها لصبيّها المسيح، وتتذكّر جدّها، ثمّ أيام صباها ولعبها اللقاف مع صديقاتها، ثمّ تتذكر أمّها وهي تعلّمها طقوس الشّهوة وكيفية إثارة الرّجل، وتتذكّر ذلك الرّجل عبد الرّحيم الذي أحبّها بصدق، وهي خبّأت عنه الكثير من الأشياء بصدق كذلك، لم ترد أن تكذب عليه، ولكن في الوقت نفسه لا يمكنها أبدًا أن تقول الحقيقة.
قيدت إلى عشّ الزّوجية المقدّس في هذا المجتمع لتتمّ عملية الإلقاح المبارك بنجاح، كانت الزغاريد تفوق حجم الفرح الحقيقي، وكلّ امرأة كانت تزغرد كانت تتمنّى في خلجات صدرها أن لا ينتهي العرس بخير.
ركلت إلى يده كالبهيمة، وضعت له كقطعة لحم تعطى لأسد لم يأكل منذ سنوات، الكلّ في القرية كان ينتظر ذلك المشهد حيث يطلق أهل العروس فيه البارود في السماء احتفالا بتدشين ابنتهم، وبحفاظها على شرفها، إلى أن تمّ هتكه في الحلال على يد زوجها، الكلّ في القرية كان يعاني الكبت الجنسيّ، لذا فمخيّلتهم كانت تتخيّل أشياء لا تمت بصلة للحقيقة.
هناك من النّسوة من لا تصدّق أصلا أنّ عضو رجل يمكنه أن يكون بحجم عصا، وليس هناك من أولئك المراهقات من تظن أنّ الجسدين يمكنهما أن يتعرّيا كاملا من أجل ممارسة الجنس، فأقصى تخيلاتهم أنّه سيضع عضوه في ثقب صغير يقع أسفل المرأة، سيؤلمها وهي ستصرخ وسيلحسها قليلا وانتهى.
أمسك عبد الرحيم يد زوجته ورفع اللّثام عن وجهها، و رفعت هي اللثام عن شهوتها، تحسّسها بلطف على رقبتها و قبّلها قبلة مصّ لطيفة من تحت أذنها اليمنى وراح يقترب رويدا رويدا إلى شفتيها.
ارتعدت ماريا في مكانها، وامتلكها شوق جبّار إلى ابنها، امتزج بشهوتها تجاه عبد الرحيم، ظلّت تعانق رغبتها في ذلك الشعر الخشن الذي يبدو في صدر عبد

الرحيم، ورفعت يدها بلطف ولامسته.
ضحك عبد الرحيم و نزع لباسه وهو يقبّلها، وضمّها إليه وهو يمسكها بيد من خصرها، وبيد أخرى من أسفل مؤخرتها ثم رفعها إليه، وراح يقبّلها من ثدييها، ثم وضعها على السرير وراح ينزع حذاءها ويلحس أقدامها، ثم نزع ملابسها بلطف، وأمسكها من شعرها وراح يمرّر فمها على كلّ أجزاء جسمه ثم يقبّلها.
لقد كانت مريا تشعر بمتعة كبيرة وبألم الشّهوة الجميل، إلا أنّ خوفها من الفضيحة جعلها تتقفل فخديها وكأنّها تقول لعبد الرحيم لا تلمس هذا.
عبد الرحيم فهم من حركاتها تلك أنّها خائفة لأنها للمرة الأولى تمارس هذا، لهذا كان يحاول تسخينها أكثر حتّى يتمكّن من وضع مفتاحه على سلفاجها.
تمرّغ في جسدها، وكتب فيه قصص الحبّ والعذاب التي مرّ بها في حياته، وضع على جلدها الرطب كلّ خشونته، وترك في جسمها كلّ عضّاته و مصّاته في كل مكان كآثار شاهدة على رجولته، وليذكرها دائمًا أنّ هذا الجسد له، ومن هناك قد مرّ عبد الرحيم.
لقد كانت زغاريد النسوة تعلو المنزل كي لا تصدر عن غرفة الحب أصوات، ولكي لا يسمع أنين ماريا ولا زئير عبد الرحيم وهما يتراقصان من أجل الحبّ.
كان الكلّ ينتظر في الخارج على أحرّ من جمر خبر العذرية التامّة، يا ترى هل كانت ماريا شريفة؟ هل كانت عذراء ؟
مرّ الوقت و لم يحدث شيء، الوقت كان يمثّل علامة استفهام كبيرة، هؤلاء القرويون آخر همهم الوقت، لم يكن يمثّل لهم شيئا سوى أوقات الصلاة أو الحصاد، أصبحت ثوانيه و دقائقه تهمّهم كثيرا، كلّهم تحوّلوا إلى كرونوماتر يقيس الشرف بالدقائق.
قالت إحدى النّسوة لصديقتها: -أظن أنّ غشاء بكارتها خشن نوعا ما-،
فردت عليها الأخرى: -او أن لها غشاءين- .. وتنفجران ضحكًا.
في الداخل كانت ماريا لعبة جميلة في يد عبد الرحيم الذي فقد وعيه تقريبا

في الاندماج فيها، لقد جعلها سفينة لكلّ رغباته، امتطاها بكلّ شهوته، وجعلها تقطر شهوة من كلّ مساماتها.
مشهدها وهي عارية ينسي المقبل عليها سنّها فهي لم تكن بقوامها الطويل والرشيق تبدو أنها في السادسة عشر، بل كانت تبدو سيّدة كاملة المفاتن، الشيء الوحيد الدال على صغر سنها هو جسمها الرطب وجلدها النّاعم كالحرير.
راح يحشر لسانه في كل مكان لعله يجد كنز شهوته، عليها أن تصرخ أكثر لكي يشعر هو بشهوة أكثر، فنشوتها هي قمّة لذته.
أمسكها بيديه الكبيرتين الخشنتين من ظهرها ورفعها إليه، وراح يمصّ حلماتها بكل شراهة، لقد تفاجأ بحليبها ينهمر منهما، تعجّب في البداية، ولكنه لم يعر الأمر أيّ اهتمام، فربّما هذا من أسرار النّساء التي لا يعرف عنها شيئا.
و هو يهمّ في قطف جسدها حبّة حبّة، لاحظ دموعها تقطر من عينيها كندى الربيع الباكي، كانت ذابلة لا تعرف ماذا تفعل، عادت لطفولتها في تلك اللحظة، كانت تريد في الحقيقة صدرا تعانقه، وليس أمامها سوى ذلك الجسد الخشن المفتول العضلات العاري لترمي عليه وجهها الطفولي بكلّ براءة.
لقد كان عبد الرّحيم رحيمًا حقّا فلم يفهم ماذا يفعل، توالت إلى مخيّلته فكرتان، فحسبه هي تبكي إمّا لأنّها خائفة من يومها الأوّل، أو لأنّها تبكي حبّا وفرحا به.
مسح دموعها وضمّها إلى صدره وأكملت ماريا بكاءها وصورة ابنها و هو يبكي تزاحم كلّ خلاياها العقلية لا تستطيع الفرار منها، بالرغم من أنّها أصبحت بلا إحساس، إلا أنّ ذلك الحسّ الذي رمته منها يبدو أنّه مازال يتّصل برحمها بالتلي باثي، ربّما مازلت تفكر فيه؟.
في تلك الأحيان مازال أب ماريا يتصبّب عرقا، يحضّر رجليه ليتوارى عن الفضيحة التي قد تحدث في أيّ لحظة ويصبّر قلبه، فالابنة المطيعة التي تركت الدراسة لأجل بيتها، وتلك البنت التي وهبت نفسها خدمة لجدّها الكفيف لا يمكنها أن تخذل أباها أبدا.

إنّها بدأت تنسى ابنها من جديد لتندمج مع الواقع المرير لتجد لفكرها موقع قدم في خضمّ هذا السّير العنيف الذي يدمي أقدامها على ساحة القدر.
فتحت فخذيها رويدا رويدا وأدارت رأسها ليسارها وبقيت تتأمل وجهها في المرأة، وبقيت تشاهد تلك الشّموع التي وضعت في الغرفة درءًا للأرواح الشريرة في هذا اليوم المصيريّ، وكيف سيراها الكلّ روحا شرّيرة درأتها تلك الشموع.
مازال الناس يترقبون في الخارج في هذه اللحظات المصيرية، سكت الكلّ، سكتت الزغاريد، جو رهيب من الترقّب والإثارة، كانت يتدلى في جوّ القرية الذكرية البهيمية الضحلة كل الأعين صوب الباب تنتظر عبد الرحيم والمنديل السحريّ الملطّخ بسائل الشرف.
لقد كان لتلك القرية قضيب في مكان ما و عليها ان تحشره اشتياقا لاي فضيحة كانت
ضرب عبد الرحيم ماريا على خدها مرتين و بصق عليها بعد أن اكتشف ما بها من خطب، وراحت ماريا تبكي، أما هو فراح يمارس عليها الجنس كالوحوش من كل مكان من أمامها، ومن خلفها بكلّ عنف وكأنه ينتقم منها، راح يتعمد إيذاءها بعضوه كي يسبّب لها ضرار و يؤلمها فعلا.
صبّ كلّ شهوته فيها وهو يصرخ، وهي تتنهد و تبكي أسمعا كلّ القرية صوتهما، بسبب السّكوت الذي كان يعمّ القرية، راح الكلّ يضحك، ثمّ راحت النسوة يزغردن حتّى يغطّين بعض القليل على هذا الصوت.
بعد مدّة سكت صوت ماريا وعبد الرحيم، وسكتت معه زغاريد النّسوة، كان الأب ينتظر بفارغ الصّبر شهادة في منديل تكون دبلوما لشرفه أمام القرية.
خرج عبد الرّحيم فعلا والمنديل في يده، ابتسم الأب في وجهه ومدّ يده له لكي يمسك المنديل، ولكنّ عبد الرحيم رماه أرضا، وبصق عليه وقال في وجه الأب :-ابنتك طالق بثلاث-، وانصرف.
بقي الأب متشنّجا في مكانه، وبدأت الوفود تنصرف رويدا رويدا، إلا بعض من

لهم شراهة للفضائح؛ الذين يمثّلون أغلبية القرية، إذ لم يغادر منهم أحد، بل غادرت أجسادهم فقط، أمّا عقولهم وشهوتهم للفضيحة فبقيت هناك تتصيّد السيناريو كاملا.

دخل الأب على ابنته بكل غضب، لم يقل شيئا، كانت نظرته تقول كلّ شيء، كانت ماريا عارية أمامه ملفوفة في الغطاء، نظرت إليه بكلّ ألم وقالت له : -أبي، أنا عذراء-.

نعم هي مازالت عذراء بالرّغم من كلّ ما حدث معها، وهي لم تختر أبدًا أن تخسر عذريّتها، هي مازالت عذراء في وجدانها، وليس في ذلك العضو الجنسي، ولكن كيف ستقول الحقيقة؟ فعلى الرّغم من كل ما حصل معها إلّا أنّها مازالت تحتفظ بنوع من الذّكاء، فهي تعلم أنّها الآن لو اعترفت بالقصّة كاملة، ستعترف أيضا بجريمة القتل.

.وما الجدوى الآن؟ فهي مقتولة حتماً، سواء باسم الشرف أو باسم القانون، قال لها رأسها دافعا إياها للسكوت والبوح بالسّرّ في الوقت نفسه.

الشيء الوحيد الذي كان يُبقي ماريا حية ترزق ويبعد عنها هواجس الانتحار هو ابنها، فهي رغم كلّ هذا لا يزال لديها أملٌ كبير في أن تجده، فقلب الأمّ لا يكذب أبدًا، مازال قلبه يخفق في تجويف قلبها، مازال صوته يلدغ طبل أذنها، مازال ابنها حيّا وعليها أن تجده، ليس الآن هو الوقت المناسب للموت.

لم يشفع لماريا العذراء سنّها، أو أخلاقها، أو أدبها، أو جمالها لتتحصّل على لحظة سلام واحدة تخلّي سبيلها للبحث عن ابنها، فهي مقيّدة بطقوس القرية وأبجديات أخلاقها العفنة.

أمسكها أبوها من شعرها وراح يجرّها وهي عارية أمام الحشود المتشهيّة للفضيحة، راح يسحبها وكأنّها خسرت لتوّها كلّ شرفها، ولم يعد ذلك الجسد يمثّل شرفا على الإطلاق، فهي في نظر الجميع عارية وإن لم تعر.

لم يحرّك الرّوائيّ كالعادة ساكنا لإنقاذها، فهو يبدو أنه يعجبه ما يعجب المجتمع

ويمقت ما يمقت المجتمع، كان الأمر واضحًا جدًّا؛ المجتمع هو الله.
كان الأب يجرّها وهي لا تصدر أيّ صوت، ولا يبدو عليها الألم، لقد كانت في لحظة إنكار، كلّ ما كانت تصدره في كلّ تلك اللّحظة كان يشبه الأنين، وكانت تبدو من شفاهها أنّها تردد: -أنا عذراء-.
جرّها وهو يبكي ويقول : يا خسارة تربيتي فيك، كع واش ربّيت ديريلي هكدا؟ ! علاش يا القحبة علاش؟؟ نعل دين مواليك.
كان يجرّها وهو يشتم، كل شباب القرية يتهافت لكي يكحّل عينيه بمشهد ذلك الجسد العاري، ولكي يطبع ذلك الجسد في رأسه، فهو قد لا يراها حتى زواجه، في المقابل اختار بعض الشباب أن يمارسوا العادة السريّة على إنقاذ ذلك الجسد.
جرّها إلى الدّار، وأدمى جسدها العاري بالسياط، صلبها في شجرة وسط البيت وهي عارية، وراح يضربها بما يشبه السوط في يده ويصرخ، وأمّ ماريا (تهايت و تندب) كالمجنونة.
بعد أن عذّبها طيلة الليل، ومزق روحها عشرات المرّات وهو يسألها أن تقول له من فعل بها ذلك، وهي ترد كل مرة أنها عذراء، سئم وراح يصرخ كالغول الكبير، لقد لطّخ شرفه إلى الأبد، الشيء الوحيد الذي كان يمنعه قتلَها هو أن يعرف من فعل بها ذلك ليقتلهما معا.
تركها تستنجد بآلامها لإنقاذها، وراح يجلس وحيدا وهو يبكي كالأطفال، أمّا ماريا فكانت في لاوعي تامّ بما يجري، كلّ ما كانت تفكّر فيه هو ابنها؛ تفكّر فيه غريزيا لكن دون مشاعر.
في الصباح أمر الأب بتجويعها، وأن تبقى كذلك، أو كما وصفها - كالكلاب - على الرغم من أن كلب الحراسة كان أفضل منها بكثير في هذه الحالة.
في القرية لم يكن هناك حديث سوى عن ماريا، ففي هذا المجتمع الذي لا يرحم ماريا هي أسوء شخص الآن على الرغم من كلّ تلك المجاميع من المجرمين والقتلة والمتطرفين والسُرّاق والمغتصبين الموجودين في القرية، إلا أنّ ماريا

هي الوحيدة في نظر هذا المجتمع من كانت تستحق العقاب حتى وإن كانت ضحية، وليست ضحية اغتصاب وفقط، بل ضحية كلّ المجتمع بأفكاره البالية ومنظوره القديم والسّطحي للأخلاق.

بكل بساطة ماريا لم تكن سوى انثى -هل تفهمون الجريمة الان-

بعض الفتية كانوا يلعبون ويتحدثون عن ذلك الجسد الذي شاهدوه بالأمس، لقد كانت معجزة بالنسبة لهم أن يشاهدوا جسدًا كذاك في ذلك السن، وراحوا يدخلون في جدال فلسفي حول الشّكل الحقيقيّ لعضو المرأة الذي شاهدوه البارحة، وهم يرسمونه على التراب بالقصب. في قرية الحرمان تلك أصبح جسد ماريا حلم كلّ رجل، و كلّ مراهق، والعديد من الأطفال أصبحوا يتسلّقون سور البيت لكي يسترقوا النّظر إلى ذلك الجسد.

إنّ سكّان هذه القرية يجيدون فعلا كلّ طقوس الإرهاب على جسد المرأة، فالمرأة ليست سوى جسد بالنسبة لهم، ليست سوى أداة لإفراغ شهوات الرّجل وخدمته بكلّ عبوديّة. و لذلك تغطى (العورة الابدية)

في وسط كلّ تلك الضّوضاء السوداء، وجدت ماريا لنفسها متعة الغناء، همّت به لتنسى آلامها، كانت تنشد بعض الأغاني المحلّية بصوت ضعيف، كان يخفت كلّ مرة أكثر، مع ازدياد ضعفها و خسرانها لنسب أخرى من القوة.

في ليلة ذلك اليوم والكل نائم، سمعت ماريا صوتا يقترب منها، وخطوات تختلس المشي كي لا توقظ النائمين، وتحدث بعض الضجيج أحيانا مع ملامسة الحصى والحجارة، إنّها صوت أقدام لا شك... بقيت ماريا تبحث بما استطاعت أن تدير به رأسها، وكلّها خوف من اغتصاب آخر لجسدها الذي لم يعد بإمكانه أن يتحمّل عفن المجتمع أكثر.

توقّف الصوت، ولكنّ ماريا واصلت البحث فإذا بيد تباغتها و تغلق فمها، ووجه شابّ يضع إبهامه على شفتيه مشيرا لها أن تصمت.

تأمّلته جيّدا وبدت في الظلمة بعض تفاصيل وجهه، ومن عينيه اللتين يبدو

عليهما الحذر، عرفت أنه صديقها عمر الذي طالما كانا يلعبان معا وهما صغيران قبل ولوج المدرسة، فهدأت ماريا وهي تشمّ فيه رائحة الطّفولة الجميلة، ولا تعلم حتى لماذا يجب عليها أن تهدأ، مع أنّ جسدها مازال يرتعد من هول الذكورة المخيفة، ولكنها اندمجت مع الموقف وحاولت أن تفهم سبب قدومه.
نزع العلك من فمه و قال لها بصوت خافت: -ماريا، يجب أن تهربي، لم يعد لك مكان هنا، إن بقيت ستموتين-.
بقيت ماريا تتأمّله ثم أجابت: - ولكن أين سأذهب؟ إلى أين يا عمر؟- ردّ عمر:- أرض الله واسعة، اهربي إلى حيث ستعيشين، المهمّ ليس هنا، هيّا ليس لدينا الكثير من الوقت-.
راح عمر يقطع الحبال التي تربطها بالسكّين اليدويّ، وأعطاها لباسًا ونقابًا لترتديه، وساعدها على لباسه.
لأوّل مرّة وجدت ماريا رجلا لم يكن يكترث لجسدها، كان يساعدها على اللّباس وهي عارية دون أن يبدي انفعالا، لقد احتارت في أمره، ولكنّها لم تكن تمتلك الكثير من الوقت للحيرة، لبست اللّحاف الأسود والنقاب وحملها عمر بين يديه حتى لا يحدثان الكثير من الصوت، وساعدها على اعتلاء السّور، ثمّ ركب هو كذلك وقفز من أعلاه ومدّ يده ليحملها ويساعدها على النّزول.
أعطاها نعلَيه لكي تتمشّى بهما، وبقي هو حافيا.
كان الظلام ينصهر مع سواد النّقاب، لم تكن تبدو من ماريا سوى عينيها، مشيَا معا بسرعة متّجهَيْن نحو الغابة القريبة من الطريق العامّ، دخلا أحد الأكواخ القصبيّة التي بناها عمر وأصدقاؤه هناك في وقت سابق في إطار اللهو الطفولي، وأشعل شمعة ووضعها فوق المائدة الصغيرة.
أعطاها بعض الزّيتون لتأكل، وبعض الخبز اليابس، والقليل من الجبن والماء، فهمّت بالأكل كالضواري، كانت وكأنها لم تأكل لسنوات.
بقي عمر يستلهم من وجهها، شعور شفقة مزخرف بحب لا يبدو في وجهه،

وهو واضع رأسه فوق يديه، والشّمعة تغيّر لون عينيه أحيانا إلى ألوان ساحرة وبريئة، قال لها بصوت بطوليّ: -ماريا، لا تخافي، كلّ شيء سيكون على ما يرام . .. ثمّ تنهّد وابتسم ابتسامةً خفيفة محاولا إطفاء بعض الهدوء على جسد ماريا المرتعد.

هل تتذكرين ماريا يوم كنّا نلعب سويا؟ هل تتذكرين يوم كنا نلعب -خالتي و الجارة- وكنّا نلعب -عروسة وعريس-؟

تنهدت ماريا ثم قالت له: - لو كنت أعلم أنّ الزواج سيجعل مني أعيش ما عشته لما كنت أقدمت عليه ولو لعبا-.

-ماريا لم تنسيْ اللّحظات الجميلة التي عشتِها في القرية-، قال عمر، -لا تنسي طفولتك، كوني دائما أنت، لا تترددي دائما في المحاولة من جديد، وبالأخص لا تفقدي الأمل، هذا لأنك إنسانة قبل كل شيء، والإنسان وُجد لكي لا يفقد الأمل-.

الآن نامي، وفي الصّباح الباكر ستركبين الحافلة، وستتوجهين إلى الجزائر العاصمة.

فوجئت ماريا و تساءلت بتعجّب والخوف يرسم نفسه في وجهها: -العاصمة - !!الكنّني لا أعرف أحدا هناك، فماذا سأفعل هناك؟

فأجابها عمر وهو يمسك يديها: - ماريا، هنا تعرفين الكلّ، ماذا فعلت هنا؟ أو بالأحرى كيف أصبحت هنا؟ اذهبي حيث ستكونين حرّة وآمنة، هناك لا يعرفك أحد، تستطيعين أن تبدئي حياة جديدة، أمّا هنا فلا حياة لك.

بقيت ماريا تتأمل عمر ودموعها تملأ عينيها، لا لشيء سوى لأنها تركت جزءا منها في تلك القرية اللّعينة، ابنها المسيح الذي كتب له أن يعيش بلا والدين، فماريا إلى الآن تشعر بأنّه لم يمت.

قال لها عمر: - نامي الآن، وفي الصّباح الباكر سننتظر الحافلة وسأعطيك أجرتها، وخذي معك بعض الأكل، وبعد أن تصلِي إلى الجزائر العاصمة، تبدئين كفاحك من أجل الحياة.

وضعت ماريا خدّها على حجر عمر، ووضَع عمر رأسه على المائدة وبقيَ يتأمّل الشمعة إلى أن قربت على الذوبان كاملة.
صباحا استفاق عمر و أيقظ ماريا، فلبست النقاب وهمّا بالانصراف.
كانت وصيّة عمر لماريا أن لا تخلع نقابها سوى بعد ساعة من وصولها للجزائر، وأن لا تتكلم مع أحد، وأن لا تظهر صوتها لأحد في الحافلة.
عند وصول الحافلة شدّ عمر يد صديقته وقال لها برقّة: -ماريا، أعلم أنّك عذراء-.
بكت ماريا وعانقت صديقها عناق من يقبل على الفناء، وحين انتهى العناق ركبت الحافلة، وجلست في مكانها باحثةً في خيالها عن لحظات من الطمأنينة، تذكّرت أجمل اللّحظات التي عاشتها في القرية، وتجاهلت كلّ ما حدث لها في الآونة الأخيرة، بقيت تتأمل من النافذة وهي مبتسمة، وكأنّ شيئا لم يحدث، لم تفكّر في أيّ شيء سوى أنها فعلا تحتاج للحظات من السّلام لتنسى كل ذلك الألم الذي كانت تعيشه.

النفحة الثانية

كانت ماريا تهوى حبيبها المراهق وهو يتجوّل عاري الثّياب في البيت؛ كانت تحبّ الذّوبان في تلك التفاصيل الصغيرة التي تبدو على جسده وبشرته الرّطبة كتلك الخانة المتوحشة البارزة على ظهره، هناك كبقعة حبر وقعت من قلم كاتب متمرّد في الصفحة الجلدية التي تتصبّب رغبة وشهوة، محلّقة في الأنوثة المتوحشة لماريا العذراء الغارقة في أحلام البكارة بدون غشاء بكارة.

قال غبريال وهو يرسم لوحة دائمة في مخيال ماريا لكي لا تفارقها السعادة، وهي تتقمص دور المشاهد الوفيّ لذلك الجسد المغامر بحسنه في غابة الوحوش البشعة : - المعي الآن يا ماريا، وقولي بصوت أنثى: -أنا إنسان-، المعي من عينيك، من رئتيك، من كل ما تنفس الظلم بعناية فيكِ، تنفّسي والمعي ولا تتركي أثرًا لتلك الكدمات الموجعة على تنورة ذكرياتك.

* * *

كانت دائما تتذوق التّفاصيل الصّغيرة في حبيبها الرائع؛ الشامة المخمليّة على ظهره، لمسة يديها على قفصه الصّدري الذي تغلّفه بعض العضلات الصّغيرة، طقطقة أصابع رجليه وهو يتحرك في البيت.

حتّى الطّريقة التي يأكل بها السباكتي، وابتسامته التي كانت تهزّ قصر الطّغيان فيها إلى مليون رجل قد يخلق لكي لا يكون أحسن من هذا الرجل الذي أمامها الآن .

حركة الجنين في بطنها تذكّرها دائما أنّها أنثى ذلك الذّكر الرائع، ومن عسل

عصاه السحرية. تربّت الخطيئة الرومانسية فيها، و هي جاهزة لتلون رحمها في كلمرة ، لتعطيها بذرة للأمل لحياتها التي لم يزهر فيها سوى شوك اليأس و السطحيّة.

أجمل ما في ماريا الآن أنّها قد انتبهت لوجه ألف أنثى تعيش بداخلها؛ ألف أنثى لا تتعب من ممارسة الحبّ مع ذلك الذكر العاري أمامها بخطواته التي تخاطب الأرض بكلّ رجولة.

قالت بكل ما فيها من أنوثة: -حبيبي، أحبّك دائمًا أن تمشيَ في البيت عاريا، لست أريدك أن ترتدي شيئا، حتى نعالك.. اخلعها.. أحبّ أن أرى كلّ شيء فيك، من أصابع رجليك إلى رجولتك الفذّة التي تعبق برائحة عضوك الذي يتدلّى ليجلدني كالسّوط، إلى صدرك، إلى شفاهك، إلى شعرك، إلى عينيك، كلّ شيء فيك حبيبي يدعوني لأموت وأنا حية لأعيش إلى الأبد.

اخلع كلّ تلك الحصون على جسدك، أريد الحفاظ على شهوتي كلّ الوقت وأنا بقربك.

ردّ حبيبها مازحا وهو يبتسم ابتسامه خبيثة: - هل هذا استعباد جنسيّ أم أنّك تتوحّمين على جسدي ؟ -.

ردّت ماريا و هي تشير لبطنها: - قبلني هنا حبيبي -.

كانت إجابتها بعيدة لغويّا عن سؤاله ولكنّه زحف إليها كالأفعى، فكما يقال - أجمل الجنس هو جنس الأفاعي -.

قبّلها من بطنها، وزحف قليلا نحو سرّتها، مصّها بكلّ صبيانية وارتفع صوبها يقبّلها وعضوه يتحرش ببطنها المنتفخ.

كان غبريال يجلس متكئًا على الأريكة واضعا الرجل فوق الرجل وقد انحنى قليلا نحو اليسار واضعا يده على خده وهو يحمل شيئا في يده اليمنى يشبه القلم، كانت شفاهه تقترب أكثر من ملامسة الواقع الذي تخطّى خطّ الهلوسة مخاطبا أجمح الأحلام شهوانية في مسامات ماريا.

لاحظته ماريا وهو يصارع جنونها، كان يغزوها بقضيبه، فيما أغمضت عينيها من وقع شهوة مؤلمة بقوّة عشرين طنّ من السكر.
فتحتهما رويدا وهي تتنهد حين انتهى هذا الحلم الواقع، كان غبريال قد اختفى كالعادة، وعادت هي لتنصاع لأوامر الجسد الفتيّ أمامها وتمنح لنفسها خلودا لحظيًّا وتتقوقع بزنزانة جسده من جديد.
الجنين بداخلها يشعر بالنّشوة هو كذلك، الكثير من الحبّ الآن كفيل بأن يجعله إنسانا صالحًا في المستقبل، فحجم الحنان الذي يأخذه من أمّه عبر الحبل السري يأخذ معه قليلا من الشّهوة والمتعة فيتفتح وهو يزهر للحياة كائنا للحب والتواصل الحيّ.
الجنين كان سرّا عظيما قد تخشى الآلهة من بوحه، فأن تأتي بروح جديدة إلى هذه الحياة ليس لعبة، ربّما خدعة ، ربّما حقيقة تتفرّع من غصن سذاجة وطبيعة محصورة في عنق زجاجة، ربّما هو الأمل الزّائد عن لزوم يعمي شمسًا واضحة للعيون، ربّما هو الحب الذي يكفّر عن ما قبله وما بعده، ربّما هي لدغة من عقرب ميت في رمال قلب يدمع شغفا بالذنوب، ربّما السرّ هو سر بسيط يبدو من شحّ القرائن حوله عظيما، ربّما الفضول هو الذي يجعل منه كذلك، ربّما هو لا شيء، ربّما وساوس شيطان، ربّما لا شيطان هناك ولا شيء، ربّما يجب أن تواصل، ربّما هي تواصل، عموما ومهما يكن فالأكيد عندها أنّه ثمرة حبّ عظيم يتقلّب داخلها، و يحقق لها التوازن بين متناقضات ماضٍ قصم ظهرها وحاضر مليء بالشّهوة والحنان ومستقبل مجهول تتخيله نسخة متكررة عن صورة جميلة لحاضر متخيّل.

* * *

محت كلّ تشاؤم كان يحيط من قبل على إرادة مشوّشة كانت تشتّت قراراتها، الجنين كان نقطة تحرّك ماريا المخضرمة بالأكوان السبعة وتدلّها على النّجم الذي هوى حبّا فيها، وعلى القمر الذي تساقط مطرا ليطفئ نارًا كانت تتآكل

فيها، وأثراً لصيقاً بها من جسد رجل زرع بذوره فيها ليحيى دائما بداخلها، ولتشتمّ رائحة حضوره وهو مفارق لها بحكم سنّه بين أحضان أمّه وأهله.
والدته كانت هادئة جدّا، تمارس ديانتها على قداسة، الوقت الذي يفرّ من عقارب الساعة تقضيه في هدوء مناجٍ لسحابة يهوه،أمّه لا تعرف الكذب، أمّه التي ربّته ولم يحمله جوفها كانت تثق في ماريا كل الثقة، ولم تشكّ أبدا أن تلك المرأة قد تعاشر ابنها، فهي طالما صدّقت أنّها تهوى قراءة الروايات مثلما أخبرها بذلك ابنها، أمّا الطفل الذي يبدو أنّه ينمو بأحشائها، فقد كانت ماريا دائما تقول إنه تلقيح اصطناعي قامت به بأوروبا لأنّها تريد بقوة جامحة أن يكون لها طفل.
طبعا، هذا لم يكن يوافق التصوّرات الدينية للأمّ، ولكن ما دامت ماريا من الأميين فيحق لها ما هو محرّم عليها، وما دام ابنها بعيدًا عن هذه الفوضى الجنسية فهي على أتمّ ما يرام.
حنان أمّه كان يضع عليه الكثير من الخشية الغرامية، فهو بحنان أمّه تخضّب وأصبح منبعًا للخبز والخمر والأوقات الجميلة، وأحضانه كانت تتمّ في صمت مقدّس يشبه إلى حد ما الحجّ إلى الغانج، يشبه شقلبة في عنق عصفور كبير والتفافا على البراق وبئرًا من المحبة تائهًا في صحراء من الشّهوة المستدامة، وأوضاع جنسية تروّض أعصاب الجسد على ممارسة اليوغا.
صورة غبريال على الحائط كانت توحي بزمن لا يريد الانتهاء، نظرته والكتاب يعلو رأسه تعلّم ماريا وحبيبها أشياء لا تُقرأ في الكتب وهي في وضعية أسفل العين وبزاوية مائة وسبعين درجة وضعت ماريا فخذها اليسار على فخذها اليمين في لحظة متشوّقة لأشجار الصّنوبر وعطر التّفاح الأخضر، ضمّت كعب رجلها بيدها واستسلمت لحارس اللّيل يداعبها بحرارة مليون قنبلة نووية.
طقطقة عظام ماريا في أحضان الفتى الذهبيّ، أنينها وهي تقترب من الاندفاع بسرعة الضّوء في الحاجز الرّوحيّ بين زنزانة الأرض وسجونها المرقمة من صفر

إلى واحد على التّوالي، إلى سماء الحرية التي لا تنتهي أرقامها، شراهة عينيه التي كانت تلخّص عذابات الهنود الحمر، عضوها وهو يتدرّب على التفتّح كزهر الأقحوان يشبه دفترًا يوميّا لقصائد شاعر عجوز، يكتب بقلم خشن جميل يتمدّد ليبدع قافية ربيعيّة تلامس الحروف الحقيقيّة، غير تلك الحروف التي ندركها عادة في عالم اللغة، أنين ماريا كان يشبه قولها شكرا لنعمة الفاليس، شكرا أيّتها الطبيعة.

وبينما صورة غبريال تزاحم الهلوسة والسرير أصبح يشعر بالشّهوة لتصبّبها فيه كخليط من رصاص منصهر وذهب أبيض، وفي حالة من سكر جسديّ خالص، واصلت ماريا في خيط ذكرياتها متأملة ازدحام النبيذ إلى الذاكرة وهي تخطو خطوات جديدة في تقيؤ الشعب من مهابل ذاكرتها.

فلاش باك ثانٍ

عيناها كانتا كلّ ما يبدو منها في الحافلة، ربّما شكلها وهي خائفة كان يعرّي فيها شيئا ما، كان يغري الجالسين في الحافلة لمعرفته، كانت تحاول أن تتأقلم مع ذلك اللّباس الذي لم تتعود عليه، فبقيت تحدق أحيانا من النافذة، وأحيانا تحدّق في النّسوة مذعورة في كل مرّة ضحكن أو أبدين سلوكا معينا.

كان هناك أمامها طفل صغير يحاول أن يلاعبها؛ يشدّ نقابها أحيانا، وأحيانا أخرى ينظر إليها مبتسما محاولا اكتشاف هذا الشيء الجاثم أمامه، ماذا قد يكون يا ترى؟ هل هو كيس؟ هل هي خيمة ؟هل هو غول؟ هل هو شيء ما من أجهزة هذه الحافلة؟

قالت له أمّه : - اششت خلّي لمرا ترانكيل (اترك المرأة بسلام)-.

شدّت عليه ماريا من أنفه تحاول أن تلعب معه وتلامس شعره أحيانا بأصابعها؛ في البداية كان الطفل يضحك، ولكنّه سرعان ما خاف من ماريا دون إنذار مسبّق وراح يبكي مذعورا منها.

أمسكته أمّه وغيّرت المكان بكلّ غضب، وكأنّها تحاول أن ترسم انطباعا لدى المنقبة أنّها لم تستحسنها، فهي تبدو فقيرة خاصّة من خلال تلك النّعال الرّجالية التي تلبسها وذلك اللّباس والنّقاب الوسخ الذي ترتديه، وهي تبدو أيضا من تلك المنطقة، أمّا المرأة فتبدو أنّها من سكّان العاصمة من خلال لباسها؛ سكان العاصمة الذين يعتبرون كلّ سكان الجزائر خارج العاصمة تحت المستوى وأقلّ درجة منهم، فالجهويّة تستعمر الجزائر، والعنصرية فيها تحسب بالمسافة بين

كل منطقة وأخرى، وقد تجد الجهويّة والعنصرية في المنطقة ذاتها بين المدينة والأخرى، ثمّ بين الحيّ والحيّ في المدينة ذاتها، وهكذا.. هذه الفكرة لم تكن ماريا تعرفها، فهي في قريتها لم تمارس الكراهية سوى ضدّ المرأة أو ما يشبه المرأة.

لم تفهم ماريا ما سبب تغيير المرأة للمكان، ولكنّها لم تكترث طويلا، وعادت لتتذكّر ابنها ولحظاته الأخيرة معها، وراحت تبكي، وترتشف ملامح عينيها وهي تبدو شيئا ما في زجاج النافذة.

كانت الرّحلة في الحافلة متعبة جدا؛ مائة وعشرون كيلومتر لتصل للعاصمة، وكانت أطول بالنسبة لماريا، ففي كلّ شبر أبعد عن القرية كانت ماريا تتمزّق بداخلها أكثر، فهي التي رمت ابنها ها هي ترمي مجددا قرية بأكملها، بماضيها وتاريخها، بعائلتها واحبائها، وأعدائها بمعاناتها وحزنها وتسافر إلى المجهول؛ المجهول التي لا تعرف إن كان سيئا أو حسنا لها، ولكنّها قرّرت أن تغامر وتذهب إليه لتكتشفه، فالمعروف لديها لم يكن سوى أسوء قدر في حياتها، فكيف ستكون استقلاليّتها التامّة عن المصطلحات والأفكار التي تربّت عليها، وقد أدّت قسوة المجتمع عليها إلى تحريرها التامّ من كلّ القيود، حتى الشعورية منها والغريزية، ولم تعد سوى إنسان.

أوَ لست إنساناً؟ سألت ماريا نفسها في لحظة تأمّل، ربّما لن تعرف الإجابة عن هذا السؤال بتلك السهولة، فهي تحتاج ربّما لعمر بأكمله لتجرّب كلّ ما قد يعيشه الإنسان، لتستنتج أنّ حياة الإنسان هي تلك الحياة بكل بساطة.

مائة وعشرون كيلومترا من الطّريق والتّفكير العميق وترتيب الأفكار في رأسها، مائة وعشرون كيلومترا حسبتها بالدقيقة، بالثانية، بالثالثة، وهي تفكر في المجهول وطبيعته، وكيف ستصمد ما تبقّى لها من حياتها، وهل ستعيش طويلا إلى أن ترى ابنها و تحتضنه؟ أم أنها لن تراه أبدا؟ أسئلة عميقة عمق الجرح الذي يدمي قلبها كانت تزور فكرها كل لحظة دون انقطاع، إلى أن وصلت

الحافلة إلى برّ الجزائر العاصمة، نزلت ماريا خطوة خطوة لكي تستنشق هواء المدينة الكبيرة التي لا تعرف عنها شيئا ذاهبة إلى مكان لا تعرف أين هو ولا تعرف ما هو وهي تنوي فتح صفحة جديدة في حياتها، ولكنّ أيّ حياة تلك التي تنتظرها هناك؟ وهي لا تعرف عن العاصمة سوى تلك الحروف المكوّنة لتلك الكلمة .

وقفت والريح الهادئة تبديها على طول جسدها والنقاب الذي تضعه كسارية العلم، وقفت تنتظر أحدا ما لتحيتها و مرافقتها لحياة جديدة، ولكن، لا شيء حدث، راحت تتمشى محاولة أن تكتشف هذا العالم الجديد وتلك العمارات، راحت تتمشى وتخلط الشوارع حتى تنسى من حيث أتت حتى لا تتمكّن من العودة.

كانت تتلو الأقواس، وتلامس بأناملها الحائط، تجول بنقابها الذي كان نادرا جدا في هذا الوقت في الجزائر العاصمة.

كانت ماريا تخشى قطع الطريق، كانت تباشر الأقدام لقطعه، ولكنّها تعود مرارا و تكرارا في قرارها، وعندما تقرّر ذلك تقطعه بسرعة ممّا يحدث خللا في السّير، يجعل السائقين يسبّونها بأبشع الطّرق، لقد كانت تبدو كالمجنونة في هذه المدينة الغريبة عن ما اعتادت عليه.

ما الذي أتى بك إلى هنا يا ماريا؟ لماذا أتيت؟ لماذا لم تختاري الموت بين أحضان أبيك ودفئه وحنانه؟ لماذا لم تختاري أن يشرّفك بقتلك على يديه الشريفتين؟ هكذا كانت تسأل نفسها في حوار داخليّ، الخيال بات جزءًا منها أكثر من الواقع الذي أصبح يبدو جحيما، فقد كان الخيال الأداة الوحيدة لماريا للفرار إلى عالم آخر، حيث تنسجه وحدها، ولكن، حتى في ذلك العالم أراد ذلك الواقع السيء أن يزاحمها فيه، حيث احتل الجزء الأكبر منه ولكنّ جزءا فيها مازال يتشبث في ذلك الجزء الصغير من أحلام المراهقات القادمات للدنيا بقلب من لهيب.

في كنف الزّحمة الألجيروازية كانت ماريا أحيانا تراقب أسلوب الحياة المختلف

والألبسة في المحلّات، كانت تجد بعض الوقت لكي تسترق النظر لسنّها، ولباس من هم في جيلها في العاصمة.
بقيت تتجوّل في شوارع الحيّ والجوع يعصرها، مشت إلى أن تورّمت قدماها، وزاد أساها، وتخمّرت ذكرياتها، وعصرت قلبها، وعجنت عقلها إلى أن توقّف بها المسير مع غروب الشّمس أمام أحد المساجد.
جلست في الأرض وبقيت تتأمل في وفود الرّجال وهي تصلّي صلاة المغرب دون أن تكترث لها، أحيانا كان بعض الشيوخ المسنّين ينظرون لها بكل شهوانية، لكنّها لم تعد تكترث لحيوانيّتهم، لم يعد يخيفها الرّجل، بالنسبة لها لم يعد سوى كائن ضعيف يتخلى بسرعة عن إنسانيته أمام مهبل المرأة.
مع سقوط ستار الليل على آلجي / العاصمة التي تبدو مكانًا مقدّسًا يغفو فيه القمر أو تسجد فيه الشمس، ولكنّها سرعان ما تتحول إلى ويل مع انبثاق نوتة الحرّية إليها فترفضها وتنقضّ على عازفها شرّ انقضاض باسم الدين والعادات والتقاليد، لم تجد ماريا مكانًا للمبيت، وحضورها في ذلك الحيّ كان يقلق الجيران، إذ بلباسها الأسود ونقابها كانت تخيف كلّ الجيران.
التجأت ماريا إلى القمامة لتبحث عن شيء ما لتأكله، فما وجدت سوى بضع علب تونة شبه فارغة، وبعض الخبز اليابس الموضوع أمام العمارة.
أخذت ماريا ما وجدته هناك وراحت لـ - بلوك - العمارة تأكل ما وجدت، حين كان بعض الجيران يستفسر حولها خبرًا ما.
خرجت امرأة في الخمسينيّات من عمرها بشعرها الأشعث و-جاكت- أحمر، وأعطت ماريا حساءً ساخنًا وقليلًا من البيض المسلوق، وعصير برتقال وضعته أمامها، وانصرفت مسرعة خائفة من ردّة فعلها، وقبل دخولها البيت التصق الجاكيت بالباب فصرخت :- يا يمّا - مذعورة ظنّا منها أنّ ماريا هي من شدّتها.
ضحكت ماريا بهدوء، وتذكّرت المثل الجزائريّ الشعبيّ - همّ يبكي وهمّ يضحك .-

قضت أوّل ليلة لها في حضن الجزائر العاصمة، هذه المدينة البيضاء المليئة بالفقراء، وهي لا تعرف شيئا عنها، نامت بنقابها لأنّها في الحقيقة لم ترد أن تكون سوى جزء من الظّلمة في تلك اللّيلة، فبالنسبة لها هي بعيدة كلّ البعد عن أن تكون إنساناً.

صباحًا نهضت على صوت النّسوة أمامها يوقظنها، - انهضي، انهضي - قالت إحداهنّ بكل استعلاء.

و حذّرتهنّ الأخرى بكلّ استكبار: - احذرن، ربّما تكون مجنونة -، وقالت الأخرى: - وربّما ساحرة -، وقالت أقصرهنّ: - بْعِيد الشّرّْ، مسّلْمين ومكتّفين، رانا حابّين نتزوّجو -.

كانت ماريا خائفة منهنّ، وقد بدا هذا في عينيها، كانت تستمع إليهنّ وتشاهد عيونهنّ و تتذكّر نساء القرية يوم عرسها.

بين كلّ ذلك الزّخم أتت المرأة نفسها التي أعطتها ما تأكل البارحة وقالت للنسوة بصوت قوي: - والله ما تحشّمو، انهضي يا ابنتي، تعالي معي إلى البيت - أمسكت ماريا من يدها، وجرّتْها إلى بيتها وأقفلت الباب، - تفضّلي يا بنيّتي، اجلسي، سأحضّر لك قهوةً لتشربيها، أوكي.. لا تخافي سأعود -، لم تكن ماريا سوى كائن فوضويّ مشتّت، لا تعرف ما الذي تفعله مع سرعة الأحداث التي قلبت حياتها رأسا على عقب، ومع التغيّرات المفاجئة التي أصبحت تحدث لها بين الفينة والأخرى، أصبحت لا تميّز فيها بين نفسها والآخر الذي يحادثه؛ أحيانا تنقلب الشخصيّات في رأسها ولا تعرف حقيقتها أصلا، فليس من السّهل أن تنزع الإنسان من تربته وتقلعه من الجذور وتضعه في بيئة غير بيئته، ليس من السّهل أبدا أن يترك ذلك الإنسان جذوره في بيئته الأولى ليصنع جذورا ثانية هناك.

عادت تلك المرأة التي تبدو طاهرة إلى ماريا، حاملة إليها فنجان القهوة و - كرواسون - وضعتها فوق المائدة وقالت لماريا بصوت دافئ: - انزعي النّقاب يا

ابنتي، خلّينا نعّرفوك -، نزعت ماريا نقابها والخمار، وبكلّ حياء نظرت في المرأة وهي تغطّي بعض الكدمات من آثار التّعذيب على وجهها و رقبتها، قالت لها تلك السيدة: - ما بك؟ ما خطبك؟ من فعل بك كل هذا يا ابنتي؟ -، أجابت ماريا بكل صمت؛ تلك اللغة التي يجيدها كل أولئك الذين يمتلكون من الأفكار والذّكريات أكثر من اللغة التي يجيدونها، تأملتها بخوف وكأنها ترى في وجه المرأة تلك كلّ ذكرياتها الحزينة، وحاولت أن تخفي آلامها في بؤبؤ عينيها، ولكن ما من لغة أبلغ من لغة العيون.

تكدّست فجأة أحاسيسها في راحة يدها، فأصبحت لا تقوى على حمل فنجان القهوة الذي بيدها، وضعته في المائدة ويداها ترتعشان.

في ظلّ ذلك الخوف الذي كان يتملّكها سكتت تلك المرأة، ومدّت أشلاءها لتلملم بقايا ماريا في حضنها، وشغفتها حنانا وقالت لها: - لا عليك يا ابنتي، لا تخبريني، فأنا أعلم أيضا أنّ بعض الحكايات ثقيلة على اللسان لثقل آلامها -، سكتت برهة ثم سألتها: - هل أنت من هنا، من العاصمة؟ -، لم يكن من ماريا سوى أن نفت ذلك بهزّ رأسها يمينا وشمالا.

فقالت لها المرأة: - لا تخافي مني، أنا اسمي زبيدة، طاطاك زبيدة، أنا وحيدة هنا في بيتي، زوجي توفّى منذ ثلاثة أشهر في حادث سيارة، وأنا عقيمة ليس لديّ أبناء، عشت معه طيلة حياتنا مخلصَين لحبنا، كانت لديه تاكسي نعيش من خلالها، ولكنّها راحت هي الأخرى في الحادث، والآن كما ترين، أنا أعيش مع الحيطان في انتظار انتهاء فترة إيجار البيت، بعد شهر من الآن سأذهب لبيت أبي يرحمه الله، وسأعيش مع أخي وزوجته وأبنائه، ولكني لا أريد أن أغادر بسرعة، أريد أن أنهيَ فترة الإيجار لكي أتذكّر كل الذكريات الجميلة التي عشناها معا أنا وهو في كلّ ربوع هذا البيت. يمكنك البقاء معي ابنتي إلى حين ذهابي إن شئتِ-.

توزّعت نظرات ماريا في أرجاء البيت باحثة فيه عن هذا الحبّ الذي يملؤه،

والذي يشعّ من أرجائه رغم الحزن الذي أصبح فيه، لتجعله يدخل فيها ليحارب بيت الكره الذي يتجلّى ظلمة في أحشاء قلبها وغمد عقلها الضائع.
تأملت ماريا طاطا زبيدة وأجابتها بكل بساطة وعفوية : - شكرا -، لقد استعملت صوتها أوّل مرّة منذ قدومها إلى الجزائر العاصمة، لقد شعرت بالراحة لأوّل مرّة والأمان، وحاولت أن تشعر بالحبّ في ذلك البيت، لكنّها لم تشعر به، بل أدركت أنّ هناك حبًّا ما يجول في هواء ذلك البيت.
ابتسمت طاطا زبيدة وقالت لها : - انزعي حجابك، خلاص، أنت في بيتك الآن-.
ردّت ماريا بخجل: - ولكنّي لا ألبس شيئا تحت الملاية، هذا كل ما ألبسه-.
قالت لها طاطا زبيدة مبتسمة: - لا عليك، سأعطيك بعض الملابس -، وأعطتها جنّة صفراء وسروالا داخليا قصيرا.
لبسته ماريا و شعرت بالطمأنينة وهي داخلة، ثم سألتها طاطا زبيدة عن اسمها، فقالت لها ماريا بخجل: - اسمي ماريا -.
ردّت طاطا زبيدة : - ماريا، اسمك جميل جدّا يا ابنتي، لا تخافي سأبحث لك عن حلّ قبل ذهابي إلي بيت أهلي-.
لم تشعر ماريا بالغربة طيلة بقائها في بيت طاطا زبيدة، فقد كانت حنونة معها كأمّ، لقد كانت تحاول أن تهديها شيئا لا تمتلكه، فكما كانت هي بحاجة لمن يساعدها ولم تجد شعرت بحاجة ماريا إلى ذلك، ماريا التي لم تطلب شيئا من أحد، ولكنّ طاطا زبيدة التي كانت هي الأخرى ضحيّة للرّواية الفاشلة كانت تشعر بأنّها تحتاج ذلك، فالحقيقة أنّ أولئك الذين نحتاجهم لا نبحث عنهم، بل هم من يجدنا، وأولئك الذين يستحقّون مساعدتنا لا يطلبونها منّا، بل نفهم وحدنا تلك الحاجة، وإن كنا فعلا بحاجة نحن أيضا فسنعطيها لمن يحتاجها.
كانت ماريا تساعد طاطا زبيدة في أشغال البيت، ولكنّ دخول إنسان جديد للعمارة قلبها ظهرا على عقب، ولم يترك مجالا للنّسوة سوى للحديث عن هذا الوافد الجديد الذي أتى للعمارة ومحاولة معرفة أيّ شيء عنها.

إنّه الفضول النسويّ الذي لا يتغيّر أبدا، لا في القرية ولا في المدينة، إنّها المرأة الجزائريّة دائما أو ربّما المرأة في كل مكان يخيل لها فيه انها ضعيفة، إنها دائما ذلك الكائن الفضوليّ الذي يسعى للحقيقة، وإن لم يتحصّل عليها يصنع شيئا ما يشبهها و يصدّقه.

لذا تصارعت الأخبار في العمارة حول ماريا، وتمازجت القصص مع كذب النسوة، ولم تعد الواحدة تصدّق الأخرى بالرغم من أنّ كلّ واحدة تحكي للأخرى ما قالته لها الأخرى مع إضافة بعض التّوابل.

كانت كوسم، وكريمة ،وفاطمة ،هنّ مثلث الشرّ في العمارة كما وصفتهم طاطا زبيدة، وكما هنّ حقّا، لذلك كان تحذير ماريا واجبا من زبيدة.

و في الأسبوع الثّاني اقترحت طاطا زبيدة على الجيران أن يعطوا مفاتيح القبو المتكون من شبه غرفة و حمام لماريا، وقالت لهم إنّها يتيمة الأبوين، وقد طردت من بيتها الذي يقع بعيدا عن الجزائر العاصمة، وهربت إلى العاصمة لكي تجد حياة جديدة، وسألتهم ذلك مشفِّعَة أيامها التي خلت والعشرة والخبز والملح الذي بينهم.

وفعلا لم ينطق بالرفض سوى مثلث الشر، رافضات لها أن تبقى أصلا في العمارة، علّلت ذلك كوسم خوفا على أن تصبح العمارة ماخورًا للجنس إشارة إلى ماريا، أمّا كريمة فعللت ذلك بأنّ زوجها (عينو زغّادة) وتخاف أن يتزوّجها عليها، وأمّا فاطمة فلم تجد سببًا مقنعا فقالت إنّها ترفض لأنّها لا تريدها أن تكون في العمارة وحسب لغير سبب آخر.

أمّا بقية الجيران فقبلوا ذلك على أن تحافظ ماريا على شرف العمارة وعلى الآداب والأخلاق العامّة، واقترحوا عليها العمل كمنظّفة للعمارة، على أن يدفع لها سكّان العمارة أجرا كلّ شهر، وكذلك العمل في بيوت العمارة بالطّلب.

قبلت ماريا ذلك وهي ترى أفقًا جديدًا بدأ يظهر، وحياة جديدة بدأت تشرق لتنقشع الليلة الظلماء على حياتها مودّعة تلك الظواهر القروية، مستقدمة

لأقواس وشوارع آلجي المدينة التي أعجبتها ولم تخترها.
قبل ذهاب طاطا زبيدة ساعدتها في نقل بعض الأشياء إلى القبو بيت ماريا الجديد، وأعطتها الكثير من أشيائها، وفي الليلة قبل ذهابها وضعت طاطا زبيدة مبلغا ماليا في يد ماريا، وأعطتها عقدها الذهبيّ، وأوصتها بأن تكون فطنة و- حيلية - مع النساء في العمارة، وأن تحذرهن وأن تكون ديبلوماسية في التعامل مع الغرباء.
أقفلت عليها راحة يدها، أمّا ماريا ففتحت في عقلها بابًا كبيرًا من التّساؤل، والمقارنة بين أمّها البيولوجية وكيف كانت تعاملها؛ حيث لم تكن وصاياها سوى عن الجنس وكيف تحافظ البنت على أعضائها، وعن هذه السيدة الكريمة التي فتحت لماريا بابًا جديدًا في الحياة ونصحتها لكي تعيش، فأمّ ماريا نصحتها كيف ترضخ للمجتمع، أمّا طاطا زبيدة فعلّمتها كيف تقاومه.
زبيدة التي كانت عقيمة، كانت ولودة الطيبة والحنان، ماريا تمنّت بكلّ جوارحها لو كانت هي أمّها الحقيقية، وتذكّرت المثل الشعبيّ - ربّي يعطي اللحم لمن لا يمتلك الأسنان -.
ما كان من ماريا سوى أن تقبل هدية طاطا زبيدة، وعانقتها مطوّلا وهي تحاول أن تتشكرها بتلك الطريقة البسيطة، فالقلوب تقترب من بعضها، وتتّصل عندما تلتقي الصدور في حضن واحد.
وفي الصّباح الباكر غادرت السيدة الكريمة تاركة لماريا ذكرياتها ومشوارها في العمارة، تلك تركة ثقيلة حملتها ماريا على كاهلها، فهي اليوم ليست خائفة على الشرف، بل هي تشعر بالمسؤولية .. مسؤولية أن تكون على حسن ظنّ تلك السيدة الكريمة، التي ستبقى دائما في الذاكرة الحيّة لماريا رغم كلّ شيء.
إن الإنسان يمرّ من خلال حياته بين مدّ وجزر، بين شرّ وخير، بين سعادة وحزن، وبين لحظات من التّفكير العميق ولحظات من الجنون، وبين لحظات من السّهو أنّ حياة الإنسان واحة من المعاني ونهر من الألفاظ والمصطلحات، تتغيّر فيها

المفاهيم والشّروحات من مكان إلى آخر ومن زمن إلى آخر.
لا يمكن للإنسان أبدًا أن يبحر بعيدًا عن هذه الحياة الجدليّة الفلسفية؛ هي قدر الإنسان ولا يمكن لحياته أن تستقلّ عنها، ففي كلّ حدث يعيشه الإنسان يدخل في قلب فلسفته يبحث فيه، ويستقصي فيه لغة الحقيقة والخلاص، وماريا لم تكن مختلفة عن هذا الإنسان الذي يناشد التغيير، انطلاقا من اللّغة والمكان والزمان والمفاهيم والأسئلة والأجوبة والمحيط. ماريا تلك الإنسان البائس الذي تحمل ذنوب المجتمع وحدها لتخلّصه منها، وها هي الآن تولَد من جديد في صفحات جديدة وحروف جديدة، ممسكة بين يديها الفراغ وبين عينيها الأمل في الحياة.
تخلّصت ماريا من كلّ تلك الشوائب في ذاكرتها التي تعطّل مسيرتها بين البشر في لحظة قرار اتّخذته بكلّ قوّة لكي تواصل الحياة، وها هي ذي تبدأ من جديد؛ تبدأ لكي لا تنتهي، هكذا هي الحياة.
بعد ذهاب طاطا زبيدة بساعات حاولت ماريا التّعايش مع قبْوها؛ بيتها الجديد، و في لحظة استرجاع للنفس تذكّرت وهي جالسة تتأمّل جدرانه أنّها لم تأخذ عنوانها، ولا أيّ معلومة للاتصال بها، لقد فقدت ماريا لتوّها المرأة التي جعلتها تواصل وربّما لن تراها من جديد.
لم يكن الأمر صعبا على ماريا، فهي تعوّدت أن تفارق أحبابها دون رجعة، فهي التي فارقت ابنها، ثمّ فارقت جدّها، ثمّ فارقت زوجها، وفارقت أهلها، وصديقها والقرية، ها هي اليوم تفارق مخلّصتها أيضا، فالفراق اليوم بالنسبة لها أصبح جزءًا من الرّوتين اليوميّ الذي لا تنتبه له مطوّلا.
الشيء الوحيد الذي كانت تحمله من أثرها هو صورتها، وضعتها ماريا للزينة معلّقة على حائط قبْوها الذي تعيش فيه لكي تحرسها من القدر ومن المجتمع، فزبيدة أصبحت الآن كالقدّيسة في نظر ماريا، بل هي قدّيسة الآن وكل ما تؤمن به في حياتها، زبيدة كانت الدّين الجديد لها.

لقد بدأت أيّامها الأولى بشفط السلاليم، لم يكن هذا العمل بالنسبة لما عاشته مهمّة شاقّة ، فشفط السلاليم أهون عليها من العيش في جهنّم الشّرف الذي يسمّونه القرية.

مع الوقت أصبحت ماريا تعرف كلّ أسرار العمارة، فهي التي أصبحت تدخل تقريبا لكلّ البيوت، إلّا أنها لوقت طويل احتفظت بتلك الأسرار لنفسها.

كان مثلّث الشّر يحضّر لها كل أنواع المكائد، فالنّسوة الثّلاث أصبن بالكَلبِ من صغر سنّها وجمالها الأخّاذ، ومن جهة، لكلٍّ فيهنّ ابنة في سنّ الزواج، وفي العمارة شابّ أكمل تعليمه الجامعيّ في الطّبّ ممّا جعلهم يخافون على حظوظ بناتهنّ في الزّواج منه أمام ماريا، إلّا أنّها كانت لا تعيرهنّ اهتماما، ولا تحاول الاستسلام لابتزازاتهنّ، لأنها كانت تخاف على خسارة المنصب الذي أصبحت تحوز عليه، وآخر همّها كان (الرجل)؛ الرجل الذي سبّب لها كلّ المشاكل إلى الآن.

وهي تشفط السلاليم كانت تراقب جميع أنواع الأحذية الموجودة، ومن خلالها تعرف مستوى عائلة أصحابها، فالمستوى القريب لعائلتها هم أصحاب أنواع الأحذية نفسها التي كان أهل القرية ينتعلونها، أمّا الأخرى فكانت اكتشافا جديدا.

ما لاحظته هنا أنّ الرّجال لا يغيّرون كثيرا أحذيتهم، بينما النّساء يغيّرنها في كلّ وقت من كل الأنواع وكلّ الألوان.

لم يكن لماريا أبدًا تلك الشّراهة للأحذية، لكنها اليوم أرادت أن تشعر بنفسها كامرأة، مثل كلّ أولئك النسوة في العمارة، وقرّرت شراء حذاء، أو بالأحرى أحذية لتغذّي شراهتها فتكون إنسانًا من جديد.

في العمارة كانت تأخذ أجرة عملها، وأجرة من بعض الجيران

أيضا لخدمتهم في بعض الأحيان، ومساعدتهم في التنظيف وبعض الصّدقات التي كانت تأتيها من بعض المحسنين في العمارة.

لقد كان لها من المال ما يمكنها به أن تشتري ثلاثة أحذية، فقرّرت أن تشتري

حذاءين و تخبّئ ثمن الحذاء الثالث، لسدّ جوعها لبعض الأيام.
كانت تتمشّى في شوارع الجزائر العاصمة وهي تشاهد تلك الأحذية المرصوفة على نوافذ المحلات، وكانت تتأمل الماشين على طريق الحياة و تلاحظ أحذيتهم بكلّ مهل، وتراقص أعينها خطوات المارّة محدّقة في أرجلهم بطريقة جعلت بعضهم يشكّك في صحّتها العقلية، والآخر راح يبتعد منها مذعورا، وتلاقفه بدوارته و- تشقلبات - على الطريق مبتسمة، وهي تأكل - الشّيبس - فرحة بهذا اليوم الذي ستشتري فيه أحذية.
استنطقت فكرها في تلك اللحظات التي غاصت فيها مع الأقدام، وأخرجت لعالمها الرّوحي فلسفة الأحذية، أحذية مهما كان لونها و شكلها فهي تغطّي عجز الإنسان عن الحركة في هذه الحياة، وتعكس خوفه وكذلك نفاقه.
إنّ الأحذية كما كان يبدو لماريا تخبّئ فيها كل الإنسان وهفواته وأخطائه، وما يحبّ وما يكره، ما يخاف أنّ الحذاء هو الشيء الجامع بين كلّ البشر، يلبسه الملوك والرؤساء، كما يلبسه المساكين والفقراء، تلبسه العاهرات وراقصات التّعري، كما تلبسه الشريفات أو من يدعين ذلك، يلبسه الجميع لأن في الإنسان حاجة نفسية في أن لا يمشي حافيا في الحياة، فهو حذِرٌ بطبعه.. يخاف الولوج في الأشياء بصدر عارٍ وأقدام حافية كما يخاف الولوج في الفكر، فهو يخاف من حقيقته ومن أشواك الحقيقة الهادئة، ومن هدفه في الحياة وغايته الحيوانيّة التي يحاول تزييفها بوضع بعض بهارات الميتفيزيقا إلى خياله، فيوهم نفسه بحياة بعد الموت تجعله كسِلًا عن حياته الحقيقية.
الحذاء هو عنوان للبشريّة الصمّاء التي تعمل جاهدة على منع صوت المحبّة الكبرى من لمس راحة الأقدام.
إنّ الأحذية تلازم العقد بالألوان والأشكال، وتجعل الإنسان يبدو أطول وأغنى، فالحذاء هو أيضًا أداة للتّفاخر والتدرّج في قيمة الإنسان في عصر ماديّ، وهو تمويه وقناع يلبسه الأغلبية المتشرّدة عن الحقيقة لكي تقنع نفسها بأنها أعلى

منزلة من باقي الحيوانات، أو إنّها عالية بقدر ما ترى الحقيقة في وضع سفليّ.
مشت ماريا باحثة عن زوج من الأحذية يستطيع كسر يأسها هي الأخرى، ويذكّرها بحقيقتها كإنسان منافق مثل الكلّ، وكإنسان يحترف الكذب على نفسه ليغطّي سوءاته بما يجعله يفتخر بها بهتانًا وزورا.
بين الحوانيت تبضّعت ماريا الهواء والنّفَس الثّقيل وتورّمت الأقدام إلى أن وجدت ما تبحث عنه.
لقد كانا حذائين بالكعب العالي، الأوّل مفتوح من الأمام، والثّاني مفتوح من الخلف؛ حذاءان يصوّران نظرة المجتمع للمرأة على بساطتهما.
حملتهما ماريا، وعادت صوب حيّها، دخلت قبْوها بكلّ فرح، رمت الحذاءين فوق السّرير، وشكرت القدّيسة زبيدة على هذه النعمة، وراحت تحاول المشي بهما.
الأوّل المفتوح من الأمام كان لونه أصفر، أمّا الثّاني المفتوح من الخلف فكان لونه أحمر.
وراحت تجرّب المشي بالكعب العالي لتنسى همومها وتتعالى عليها، وفكّرت في اختيار حذاء لتلبسه الآن، ليس لفرح أو عرس، بل فقط لشفط السلاليم، تذكّرت يوم فرحها في القرية للحظة فقط، ثمّ أسدلت ستار الذّاكرة إلى الأبد.
كان عليها أن تختار حذاءً يتناسب مع شخصيتها، ولكنّها لم تعرف أيّهم أحسن، فكلاهما يصف حالتها الجنسيّة، و- الليبيدو - فيها يريد فقط أن يتعايش مع أحقيّته في لحظاتِ شفافيةٍ بحته.
بعد عناء طويل، اختارت أن تشفط السلاليم بالحذاء الأحمر المفتوح من الخلف، لأنها كانت تريد أن تشعر في لحظتها الأولى من الاستعلاء أنّها حقّا عذراء بكل ما تحتويه الكلمة من معنى.
لبست الجبّة السّوداء والحذاء الأحمر، وأطلقت شعرها وراحت تباشر عملها، ترفع جبّتها قليلا كي لا تلامس الماء وهي تشفط السلاليم بكلّ صعوبة بسبب

الكعب العالي وفي قرارات نفسها يخالجها المثل الشعبي (لي يحب الشبح ما يقول أحّ)، أو بالأحرى - الجمال ألم -.
بدأت نسوة العمارة يسترقن النظر إليها وهي في حالتها تلك، وأضحت في هدوء محض أضحوكة العمارة.
هل يعقل شفط السلاليم بالكعب العالي؟ ! قالت إحدى الجارات منادية ابنتها التي يبدو أنّها قد أغشي عليها من الضحك، أمّا مثلّث الشرّ فلم يلبث الخبر وقتا طويلا ليصل اليهم و رحن لماريا ليتأكّدن من رؤيتهن الخاصّة ضدّها.
وقفن على فوّهة السلاليم ورحن يلفظن حمما من السّم والشّراهة النّسوية في وجه ماريا، فرحة بما رأينه من تصرّف يبدو متخلفًا وغير حضاري، ولا ينمّ إلّا عن فتاة من القرية.
قالت كوسم: - حذاء جميل يا ماريا، تبدين رائعة، وهي تتلامز مع باقي أركان مثلث الشرّ.
وردّدت كريمة بكلّ احتقار لماريا الأغنية الشعبية الجزائرية القديمة (ولولو على مَرْت عْمَرْ ولولو عليها لابسة صُبّاط حْمَرْ خرج عليها).
ورحن ثلاثتهنّ يضحكن بكل سخرية في قهقهات عالية، في محاولة وضيعة منهن لاحتقار ماريا لأبعد الحدود فجأة كان دخول الطبيب الشّاب إلى العمارة ووصوله السلاليم كفارس في اللحظة الحاسمة،الطبيب الذي تتمناه كل فتاة في العمارة زوجا لها، سكت مثلث الشر و رحن يتصنعن الملائكية و الهدوء، اما ماريا فلم تأبه لشيء ولم تشعر ابدا بحضوره و ان عرفت ذلك فالأمر لا يبدو انه قد يهمها،
و ما إن اقترب منها و هي الغارقة في التشطيف حتى فاجأها وقوفه خلفها، فزلقت وسقطت من الدرج وأغمي عليها.
راح الطّبيب يحملها ويحاول إسعافها، ثمّ وضعها في السّيارة وحملها إلى المستشفى.

كان الطريق مزدحما وكانت ماريا تتحرّك بلطف، فتحت عينيها بهوادة ثمّ قالت: - أين أنا؟ -

أجابها: - ماريا، هل أنت بخير؟ -

فردّت: - من أنت؟ -

أنا جارك الطبيب، سآخذك إلى المستشفى.

قالت ماريا: - لا، لا، أنا على ما يرام لا تقلق -.

فردّ: - أنا أصرّ، يجب أن آخذك إلى المستشفى -.

فأجابت ماريا: - أنا أيضا أصر، لا أريد الدخول إلى المستشفى -.

فقال : - إذن سآخذك إلى عيادتي، لعل بك خطبًا ما -.

أخذها الطّبيب إلى عيادته، وراح يتفحّصها، ومع كلّ لمسة من أنامله على جسدها كانت ماريا تتذكّر كلّ عذاباتها الجنسية في القرية، كانت في بعض الأحيان ذاكرتها التي حبستها تحت أحلامها الجديدة تعود أحيانا في نوبات من الفلاش باك لتوقظ فيها حقيقتها التي تسعى بكل ضعفها إلى دفنها أسفل مكبوتاتها اللاواعية.

أبدًا لم تنس ماريا بصمة الرّجل على جلدها المشوّه بكمّيات كبيرة من السائل المنوي، سائل أرداها قتيلة الروح، وفارّة من عدالة أقبح ما فيها هو أجوده في نظر العوامّ، عدالة تغفو على وقع جرائم القتل والسرقة والنفاق، وتستفيق على الخطوات الصغيرة لأقدام الفتيات، عدالة جريمة هي إن حقّ أن نسميها عدالة حتى.

كان الطبيب يحرّك يديه فيها، وكأنّه يبحث عن شيء ما بالرغم من أنّها تبدو على ما يرام.

وضع يديه على عينيها ليتفحّصهما، ثم توجّست عيناه أمام عينيها قليلا، وأخذته رمشتها في موجة فلسلفية إلى شاطئ من الأحزان وقال لها: -عيناك تخفيان حزنا عميقا، و تساؤلات بعيدة كأنك حكيمة أو فيلسوفة تناجي عيونها الحقيقة

بحزن بالغ وقليل من الأمل و إرادة مطلقة في المواصلة -.
تعجّبت ماريا من هذا التشبيه القويّ الذي استعمله الطبيب لوصف حالتها وانبهرت مجيبة إيّاه بكل صدق: - نعم، أنا على هذه الحال منذ وقت طويل، هل من دواء لهذه الحالة؟ -
سكت الطبيب، وساد الصمت لدقيقة في العيادة لم يسمع فيها سوى صوت عقارب الساعة، ثمّ لبرهة بعدها ابتسم الطبيب ابتسامة عريضة قال لها و كأنه يعرفها منذ زمن طويل: - الآن فقط، أنا متأكّد أنّك على ما يرام-. تأمّلته ماريا، وأرادت بكل جوارحها أن تقول له إنّه مخطئ وأنّها ليست على ما يرام كما يعتقد، ولكنّها حبست ألفاظها في داخلها لتستظهر عظمتها كامرأة، ولكي لا تتصرّف بضعف أمام الرجل.
لم تسأله حتى عن اسمه، فهو مجرّد ذكر آخر، والرّجال في نظرها كلّهم رجال، لا يحتاجون لاسم كي نعرف شرّهم وقبحهم، هم كذلك مذ ولادتهم، وكذلك يبقون على تلك الحالة.
كان يسندها وكأنّه يعلّم طفلا صغيرا المشي، أمّا ماريا فكانت تبعده عنها بهدوء دون أن تصدر لفظا أو صوتا، كانت إيماءاتها الجسدية كفيلة بسرد قصّة خوف أنثويّ شبه غريزي من يدي الرجل.
- اللاثقة - هي العنوان الرئيسي لماريا في تعاملها مع الرّجال، اللاثقة من أجل المواصلة، الرّجال ليسوا سوى كوابيس حيّة خلقت لتجعل حياة النساء تعيسة، ردّدت ماريا هذه الجملة في فكرها، وهي تتأمّله وهو يلاحظ أمرا غريبا في صورتها تلك المليئة بالغضب.
أراد أن يطفئ الشّرارة من عينيها، وطلب منها مبتسما: - أنا أعتذر لما سبّبته لك اليوم، فقد كنتُ السّبب في انزلاقك من السّلّم، ولهذا أنا أدعوك للعشاء معا الليلة فهل تقبلين؟ شدّ كلامه عصافير بطنها، ونطقت على لسانها : - عشاء؟ !أين ؟ فردّ عليها: - في مطعم رائع مطلّ على البحر -

فقالت له ماريا: - ولكن، بهذا اللباس؟ -.
لا عليك، سنتعشى فقط، وسأوصلك الآن إلى البيت، وسأحملك على متن طائرتي الخاصة. تعجبت ماريا من كلامه عن طائرة خاصة.
فرد عليها بابتسامة: - أقصد سيارتي، فأنا أناديها بالطائرة الخاصة، في الحقيقة لكلّ شيء في حياتي اسم أسميه به، أو وصف له، أنا أكره الكلمات التي يختارها المجتمع، أنا أحبّذ كتابة قاموس خاص بي -.
-فأنت مثلا ماريا، أنا أفضّل أن أناديك صاحبة الظّلين، لأننا منذ خروجنا من العيادة وأنا ألاحظ ظلين لك على الأرض، بالرغم من أن زمن الظلّين قد مرّ- ، فأجابته ماريا، وكأن اللبؤة بداخلها تستنشق الغضب في عينيها: - أولا: لا تمازحني لأن مزاحك ثقيل، ثانيا: اسمي ماريا ولا يتغيّر هذا الاسم، ثالثا: ليس لي ظلّين وإنّما هذا الظل الثاني لك -.
وقف على غير عادته في الوقوف، وضع يدا في جيب وكأنّه يبحث عن رجولته في مكان ما ليردّ عليها كما يردّ الرّجال على النّساء في هذا المجتمع، ووضع اليد الأخرى على ناصيته باحثًا على كلام آخر يجعل النساء تحمرّ خجلا، فتزهق أنوثتهن بكلّ أنوثة لتبدو رجولته.
وبين رجولته و أنوثتها أضحت مشاعره صمّاء، لأول مرّة في حياته تقف عواطفه مستنجدة برجولته أمام أنثى، قبل أن يقف عضوه الذّكريّ باحثا عن علاقة جنسية.
لأوّل مرّة في تاريخه الحافل بالإنجازات تدوس فتاة بكلّ احتقار على خصيته، وتعطيه درسا في اللامبالاة جعلت ما بداخله يهتزّ ويبحث عن أيّ شيء لينتصب عضوه به من جديد، وقال لها محاولا إطراءها بلكنة غضب أفسدت ما يريد:
- نعم، الظلّ الثّاني لي؛ إنه مندمج بكلّ قوّته مع ظلّك لأنّه ربّما يريد أن يصبح وظلّك ظلّا واحدا.
وابتسم شادّا على أسنانه ضنّا منه أنه قال شعرًا كبيرا لتوّه وستسقط عظمة

ماريا أمامه بسهولة، وسيستعيد كرامة ذكورته من جديد، تأمّلته ماريا بكل احتقار، مستدعية ذاكرتها ولخّصتها في بضعة كلمات واصفة إياه بكل تصغير.
الطّبيب الذي كان يطفو على سطح جسدك سرعان ما أكله قرش كبير بداخلك هو حقيقتك كرجل، كلّ ما يتمنّاه هو أن يثبت لنفسه أنّه رجل ولو على شتات امرأة.
نالت كلماتها منه، وجعلته يستسلم لها، لم يقم بأيّ شيء سوى أنّه فتح لها باب السيارة كالخادم الضّعيف، وركبا السّيارة وكأنّ شيئا لم يحدث سوى ذلك الجليد الذي بينهما، وبدون حياء قالت له: - لا تنسى سأنتظرك الليلة لتصحبني إلى المطعم المطل على البحر-.
ابتسم الطبيب وشعر بسعادة بالغة لم يفهم سببها أصلا، أوصلها إلى الحيّ وكلّ من في العمارة يشاهدنها من النافذة، وعلى رأسهنّ مثلّث الشر.
نزلن مسرعات يمثّلن دورا بائسًا في إسعاف ماريا، وهنّ يحاولن شدّ نظر الطبيب إليهن وإلى بناتهنّ، كنّ يسألنه عن حالتها وهو ينظر إليها بعين معجبة لم يعرهنّ أيّ اهتمام، لقد صبّ جلّ اهتمامه في ذلك الوقت في ماريا.
ماريا نزعت حذاءها وأكملت المشي حافية إلى قبْوها ولم تعرهنّ ولا هو أيّ اهتمام.
دخلت القبو وهنّ يحاولن الاستفسار، أوصدت الباب في وجههن وجلست على السّرير، حملت صورة زبيدة و قبلتها وطلبت منها بكل إيمان أن تبعد الرّجال عنها وغفت قليلا.
عندما استيقظت كان قد مرّ على المغرب ساعة، قامت من مكانها وبحثت عمّا تلبسه لتذهب مع الطبيب الذي لازالت لا تعرف اسمه إلى العشاء، في مطعم مطلّ على البحر.
هي لم يغرها الطبيب أو المطعم بقدر ما أغراها الطّعام والسّهر كالنّاس، لكن وللأسف لم تجد ماريا شيئا جميلا تلبسه، سوى بعض تلك الألبسة القديمة التي

أهدتها زبيدة.
أمسكت أحد الفساتين القديمة من سبعينات القرن العشرين ذا اللون الأصفر المنقّط بالأبيض، ولبست حذاءها الأصفر الجديد وخرجت من قبْوها ووقفت وانتظرت، لم تيأس، انتظرت مدّة طويلة إلى أن نزل الطبيب على مهله.
صرخت ماريا في وجهه وكأنّها أمّه : حتى الآن وأنا انتظرك؟ أين كلمتك؟ تفاجأ بصراخها في وجهه، ولم يفهم نفسه لمَ يتحمل كل هذا الحجم من الاهانة وهو يبدو سعيدا، لم يفهم لمَ يزداد تشبّثا بها كلّما أهانته بتلك الطريقة !!.
اعتذر منها على التأخّر، وركبا معا السيارة، وأخذها في نزهة صغيرة بالمدينة، حيث تعرّفت ماريا أوّل مرّة على العاصمة الكبرى بعماراتها البيضاء، ونوافذها الزّرقاء اللّازوردية، ثمّ ذهبا معا إلى المطعم في النهاية.
أعجب الطبيب بملابسها، فهو لم ير مثل ذلك - الروب - في كلّ الجزائر من قبل، كان يراها وردة جميلة يفوح منها طعم الربيع جوّه الهادئ، تلبسه لكنة قروية بحتة تزاحمها أشجار الصنوبر في مخيال الطبيب، وشلّال من الأسرار لا يفهمها فيها.
نظر إليها مبحرا في فضوله، وسألها بهدوء وهما جالسان على المائدة: - ماريا ما لقبك؟ من أين أنت؟ ولماذا أنت هنا وحيدة؟ ردّت ماريا بشكل سريع، وبدون أيّ تفكير: - ولماذا تسألني؟ هل سألتك أنا عن اسمك؟ -
كانت أجوبتها تحرّك شيئا بداخله لا يعرفه، كأنه يدخل حربا معها وهو لا يريد أن يقتنع أنّ هناك أنثى في العالم يمكنها ان تقف شامخة أمام جبروته.
انتبه لتوّه أنّها لا تعرف اسمه حتى، سكت لبرهة ثم سألها: - ألا تعرفين اسمي ؟ -، أجابت ببشاعة : - لالا والله والو -.
ردّ عليها بعدّ كحّة خفيفة وكأنّه يعرض كنزًا كبيرا يسمّى اسمه: - اسمي سفيان -، ردّت عليه ماريا متأنية: - ليس هناك أيّ مشكل -.
تلك الأجوبة الباردة جعلت من ماريا تبدو أمام سفيان سرّا كبيرا، فهو قد تعرف

بعشرات النساء في حياته من كل الأصناف إلّا هذا الصنف البارد جدا، لذا كان يحاول مقاومتها، لم يكن يريد أن يخرج من هذه المعركة خاسرا، أراد بكلّ قوّته أن يثبت لنفسه أنّه على قدر التحمل أكثر.

قوّته كرجل في هذا المجتمع تكمن في ضعف المرأة، إن هو استسلم الآن فسيتسلم للأبد، فلا رجل يستطيع أن يعشق امرأة أخرى إن هزمت رجولته امرأة.

امرأة بدرجة انثى

الهزيمة عند الرجل ليست كمثلها هزيمة، خاصّة إن هزمته امرأة، سيبقى دائما قابعا في هزيمته، ستنقش الهزيمة نفسها في عروقه، وسيبقى يشعر بها إلى الأبد.

أن تقاوم المرأة سحر رجل فذلك في حدّ ذاته تشكيك في رجولته.

تمالك نفسه و لم يقل أيّ كلمة، أخذ ينظر في ساعته دون أن يحدّق في العقارب، كان يحدّق في الحقيقة في ألمه تلك اللحظة؛ ألم يشبه نوعا ما ضربة قوية على الخصيتين.

كان يحدّق في شفتيها محاولا أن يرى فيهما نقطة ضعف ليسجنهما في فمه، ولكنّها كسرت شروده بلكنتها الجبلية: - سنبقى طويلا هكذا؟ ألن نطلب شيئا لنأكله ؟ -.

تنهّد وردّ عليها: - نعم، سوف يأتي المضيف، هل اخترت شيئا ما ؟ -، ردّت عليه ماريا: - نعم، أريد طبقًا من الرّشتة، وعصير كوكتال وسلطة فواكه- ، اختار هو أيضا ما اختارته وطلبه من المضيف وبقي يتأمّل ماريا.

هو لا يعرف أصلا أنها قاصر سنّا، فهي تبدو بحجم امرأة بالغة، لم يقرّر أن يسألها ثانية، فقد أراد أن يحافظ على ماء وجهه، سكت وانتظر منها أيّ تصرّف، ولكنّها همّت بالأكل بكلّ شراهة.

انتظر منها مطوّلا أن تقول كلمة ما، ولكنّها لم تقل شيئا على الإطلاق، فحاول أن يبعث في المكان جوّا من الرومانسية فقال لها مبتسما كعادته مُذبلا عينيه:

- ماريا، أنت جميلة جدّا -.
تأمّلته ماريا لبرهة ووضعت الشوكة على المائدة برفق و قالت له: - الظاهر، كلّكم سواء، هيا انهض، أعدني إلى قبوي -، تساءل متعجّبا من كلامها: - قبوك؟ أجابت: - نعم، إلى الفندق -خمس نجوم - الذي امتلكه، هيا -، حملت نفسها و راحت دون انتظار، سبقته إلى السيارة.
ركب هو أيضا بكلّ كآبة، فتلك الهزائم المتكرّرة أشعلته غضبا داخليا كبيرا، تمالك نفسه وراح يسوق السيارة، أمّا ماريا فراحت تغنّي كلّ الطريق.
عندما وصلت السيارة إلى الحيّ، نزلت ماريا دون أن تسلّم على سفيان، وقف يتأمّلها وهو يشفق على نفسه وفي الوقت نفسه يكحّل ناظريه بجمال خصرها الفتّاك.
وضع رأسه على السيارة متحسّرا، وصعد هو أيضا إلى بيته، واضطجع على الوسادة، ولكن لم يرد النوم أن يستلقي الليلة على جفونه.
بقي يفكّر فيها بكلّ صبيانية، بكلّ مراهقة، ربّما هو يحبّها، أو ربّما أعجب بها، هو لا يعرف هو أبدا، لم يكن يصدق كلمة الحب، ولكنّه اليوم يفكّر فيها بكلّ قوّته، مع كلّ نفَس من رئتيه كانت هي تتشعّب في قصباته الهوائية.
قوّة شخصيّتها فرضت نفسها في عقله، هو لم ير أبدا امرأة بتلك القوّة، لكنّه لا يعرف أنّها في حقيقة الأمر امرأة بلا مشاعر قد قنصت طفولتها على أيدي رجال مثله، وهي لا ترى فيه سوى مشروع لجريمة أخرى.
إفرازات الكبرياء الذكوري من هرموناته كانت تدفعه أن يفكّر فيها أكثر، فما أجمل التّحدّي عندما يكون في الحبّ، فكم من غدّة فيه كانت تتقلّص بشكل فجائيّ كلما هبّت نسماتها على مخيّلته.
مرّت الأيام وهو يحاول لفت أنظارها، يغيّر تسريحة الشّعر أحيانا، يغيّر الكثير من الملابس، يرسل لها بعض الهدايا التي كانت تقبلها دون أدنى شكر، يمازحها أحيانا، ويستعرض عضلاته أحيانا أخرى.

فعل كلّ ما يتوجّب فعله، استنفد كلّ خططه، ولكنّ ماريا لا إحساس لها تجاهه ولا ردّة فعل، ماريا هي ماريا، لم تتغيّر ويبدو أنّها أبدا لن تتغيّر.
راح يرسل لها النّقود، يطلب منها أن لا تشتغل مجدّدا في شفط السلاليم، ولكنّها كانت تمسك النّقود وتواصل.
قارب سفيان على الانهيار، وقرّر أن يصارحها بحبّه، وراح يبحث عن خطّة ما تجعلها تقبل بهذا الحبّ الصّعب الذي لم يقرّر بعد له أن يخطو خطواته الأولى.
اشترى باقة من الزهور، وعقدًا ذهبيًّا جميلًا، وساعة يد جميلة، وخاتمًا، وقرّر أن يفاجئها بمشاعره.
كان متحمّسا بشكل كبير لتلك اللحظة الجوهرية حيث يقول لها بكل شاعرية - إنّه يحبّها -، وحيث تردّ بكلّ أنوثة بأنها تحبّه.اضغاث احلام ربما و لكن قد تصدق كرؤية
وقف عند السلالم منتظرا إيّاها لكي تنزل، أمسك الورود في يده وراح يبتسم فرحا وهو يشاهدها تتمايل بخصرها وهي تشفط السلاليم.
كانت تتراقص مع الماء النّازل من السلالم درجة درجة، وكان قلبه يتساقط حبّة حبّه.
سأل نفسه: - ماذا يمكنه أن يفعل؟ ماذا يقول؟ -، وضع هداياه على الأرض وأمسك الورود بكلتا يديه، وبقي يتأمّل كالخاشع في الصلاة؛ الجهة اليمنى من فمه تبدو مبتسمة، بينما الجهة اليسرى بقيت على حالها منكمشة متحسّرة وحزينة.
كان الماء ينهمر من السلّم كالشّلال، وكانت ماريا كملاك تسحر كلّ الطّبيعة بجمالها.
اقتربت أكثر منه فراح يخسر بعض نبضات قلبه، اقتربت أكثر وأكثر، وهو يخسرها أكثر وأكثر، إلى أن كاد قلبه يتوقف بشكل كامل، وفي اللحظة التي فقد فيها الإحساس بنفسه أدارت ماريا غير منبته دلو الماء فانسكب على سفيان فبلّلته.

لاحظت ماريا ما اقترفته يداها بسفيان، فالتفتت إلى الخلف وضحكت بصوت مرتفع لأوّل مرّة منذ سنوات، وقالت له متأسفة على تبليل الورود: - آسفة لأنّي بلّلت ورودك-.

قال لها: - الورود فقط، ألم تلاحظي أنّك بلّلتني أيضا -.

قالت له ساخرة منه: - آسفة، ولكنّني لا أشفق إلّا على الورود، أمّا البشر فلا شفقة عليهم، الزّهور بها أشواك عادة، لكنّها لا تجرح القلوب، كما يفعل البشر-.

ردّ سفيان وقد اعترت وجهه حمرة عاشق: - لا أدري ماذا تقصدين، لكنّي سعيد لأنّك بللتني -.

فأجابت وقد كانت كالملاك في عينيه، وابتسامتها التي رآها أوّل مرّة تحفر على وجهه جبلًا من الحبّ: - سعيد لأنني بللتك!! إذن لن أبلّلك بعد اليوم -، - لا تقولي هذا أرجوك-، قال سفيان، - اليوم بعد أن بلّلتني سمعتك تضحكين أوّل مرّة، وهذا أجمل ما حدث اليوم في حياتي -.

وقفت ماريا على أصابع قدميها وكأنّها تريد أن تتطاول على سفيان، هي في حقيقة الأمر انتبهت لخطأ استراتيجيّ أقدمت عليه الآن، فهي لم تكن تريد أن تضحك، لقد دخلت في ضباب الأسود منذ مدّة طويلة، ولا يحقّ لأمّ رمت ابنها أن تضحك.

تسارعت دقّات قلبها، وتذكّرت ابنها وهو يبكي أمام الوادي، ومرّت الصورة كالسكّين على قلبها، وتلوّنت عيناها بالكآبة، وردّت على سفيان وهي تتلعثم :

- لقد أصبحت تتجاوز حدودك سفيان، حذار ما تقول -.

راحت الدّهشة تزاحم نظرات الإعجاب في عينَيْ سفيان وهو يبسط ناظره على ماريا، وهي تتألّم لشيء جميل قاله لها من باب الإطراء لا أكثر، إذ قال: - ولكن. ..-، ولكنّها لم تسمح له بمواصلة الحديث، وهمّت تجري وهي تبكي هاربة إلى قبْوها كالعادة.

لم يكن من سفيان إلّا أن يريح يده ويفرغها من وردها الذّابل ويقف كالصّنم

بكلّ دهشة مراوغًا كلّ أحلامه، متحسّرا على قلبه الذي لم يعد يتحمّل هذا الجنون.
عاصفة من التّخمينات الفارغة كانت توسوس لسفيان لعلّه يجد سببًا مقنعًا يجعله مذنبًا فلم يجد، ولكنّه مع ذلك شعر بالذّنب، فأحيانا لا يشعر الإنسان بالذنب لارتكابه فقط، بل حتى عندما يشكّك الناس فيه، أو في صدق نواياه، فالذّنب ليس أن ترتكب جريمة فقط، فأحيانا تلك الجرائم التي لا نرتكبها، والتي يريدنا المجتمع أو أيّ إنسان آخر أن نلبسها تشعرنا بالذّنب أيضا رغم أنّنا لم نرتكبه.
لقد كانت فعلا أيّامًا مخلوطة بالحلو والمرّ، أيّامًا حلوة بلا مشاعر ولا ضمير لماريا وأيّامًا أخرى مُرّة بلا مشاعر ولا ضمير، كذلك المتغير الوحيد فيها لم يكن ماريا بل طعم الأيّام الذي أبدًا لم تتذوّقه، هي بمشاعرها ووجدانها، بل قيل لها إنّ تلك الأيّام كانت كذلك فصدّقت.
صدّقت وقد أصبحت لا تصدّق أحدًا سوى أولئك الأكثر كذبًا على أنفسهم، فمن يقولون الصّدق دائما يصبح الصدق عندهم رخيصا جدّا لكثرة الاستعمال، بينما أولئك الذين يكذبون كثيرا؛ أولئك هم الصّادقون في اللحظات التي تحتاج فعلا للصدق، فهم أدرى النّاس كيف يعطوك الحقيقة بالمقلوب، ويجعلونك تحلّل شفراتها العكسية.
لقد تعلّق بها سفيان بشكل كبير، ولم تنفع مكائد مثلّث الشّر في إبعاده عنها، ولم تنفع التّذليل المتتابع الذي كانت تعطيه إياه ماريا على ردعه على هذا الحبّ.
لقد حاول مرارا وتكرارا معها، ولكن لا حيلة كانت تنفع، أو تجعلها تبادله الحبّ، فجرحها مع الرّجال كان عميقا جدّا، وقلبها لا يزحمها فيه شخص مع ابنها الذي رمته، والذي لازال شعورا كبيرا فيها يخبرها أنّه حيّ.
قارب سفيان على الجنون، فهو لم يكن يعي سبب رفضها له أبدًا، ولم يسبق له أن أحبّ إحداهنّ كما أحبّ ماريا، وأبدًا لم يكن لطيفًا كما كان معها، الآن لم

يعد سوى طفل صغير يريد أن يأخذ قطعة الحلوى التي يتشهاها بالقوّة، و قد تحول اعجابه بها الى مرض نفسي خطير، وأصبح يشكّك في كلّ شيء فيه حتى رجولته.

أمّا ماريا فكأنّ شيئا لم يكن يخطر ببالها أصلا، إنّه يحبها ولن تقبل أبدًا حبّه، فهي باتت تغرّد بعيدًا عن هذا العالم، جسدها يعيش بينما قلبها بنبض بعيدا عنها، وعقلها لا يفكّر سوى في النّجاة أكثر لإيجاد القلب المبتور منها

النفحة الثالثة

كم سيبدو رائعا كوكب الأرض لو يتوقف عن الدّوران، ستبدو البحار ساكنة، وسيتوقّف اللّيل والنّهار، سيكون جزء فقط من الأرض نائما على مدار الأبد، والجزء الآخر مذعورًا على مدار الأبد، سيتوقّف الزمن، ولكن لو واصل الإنسان الحياة سيبقى تقويمه الشّمسي والقمريّ مستمرّا في العمل وإن لم تتحرك الأرض و لم تدر، سيحدث ربّما زلزال عنيف ولن يعيش سوى سكان اليابان، وسيتذبذب الحقل المغناطيسي للأرض، وربّما ستنعدم الجاذبية، وسيصبح البشر لأوّل مرّة في التاريخ أحرارا كالطيور، سوف تسقط المباني كما سقطت من قبل الأشجار، سوف تسقط المعاني كما سقطت من قبل الأخبار، لو توقّفت الأرض عن الدوران فهناك حتما خلل وقع في قماشة الزمكان، وسيتوقف الكون ككل ربّما، وسيختفي ويتقلّص إلى اللحظة الصفر، وسيغدو - بوزون هيغز - يتراوح بين الانعدام وبين الانبعاث من جديد، ويتلاشى في المادّة المظلمة، ثمّ تتّحد الطاقات مجدّدا، وتصارع نفسها لتختفي هي الأخرى، ويبتلع آخر ثقب أسود نفسه، و من بعد ذلك ستبقى ماريا دائما تحبّ فتاها هذا، يا للهول !!.

هكذا فكّر غبريال كثيرًا في هذه المشكلة الغراميّة التي تدفّقت من ينبوع السّعادة لسذاجة ماريا وشجاعتها، ولكن بعد أن قتلت السّطحية فيها، وبعد فوات الأوان، كيف سيصحّح غبريال خطيئة بعد الموت؟ فكّرت روح غبريال مطوّلا في هذه التراجيدية السّعيدة ولكنّه لم يكن مستعدّا للبوح بالسرّ الكونيّ. الطبيعة وما وراءها تمنعه من النبش في خيوط القدر، مهمته لم تكن سوى

مساعدة البشر باسم الحياة التي تدب في أجسامهم، وباسم الروح التي تحلّق في البعد الآخر من الزّمان.
وضع يده اليمنى على الحائط، وراحت أمواج الطّبيعة تغدو فيه في تناسب مع قامته الأدبية تعطيه بعضا من لون السماء، وراحت شعيرات شنبه تتحرك عاليا وأسفلا، كأنّها تكنولوجيا رقمية تبحث عن أفكار هي الأخرى لسدّ ذلك الثّغر البادي على سد يأجوج و مأجوج في صراع مع الحقيقة في كلّ لحظة اتصال بين مهبل ماريا و قضيب حبيبها المداعب الذي يخلق كواكب جديدة من الخطايا في كل لحظة انفجار لشهوة بوم الخطيئة.
غبريال كان سعيدا وحزينا، وفي الوقت نفسه باحثا عن رشفة من ذكاء وعبقرية.
توقف مسلسل الرّعب الذي منيت به لحظات انبعاثه للحياة في شكل هلوسة غبريالية مقدّسة، رفع غبريال يده ولامس بعينيه ساعة يده التي تخلو من عقاربها، ثم أسند ظهره على الحائط حاجّا بنفسه لكعبة مصنوعة من بر دين - اللاحيلة -.
تميّعت كلّ تلك القوى الخارقة بداخله التي يتمتّع بها فراعنة كلّ زمان ومكان عادة؛ عظماء الأموات الأحياء على مدار الزّمن، المخلدون بأعمالهم، اشتاقت نفسه لفكرة تنقذ ماريا من كبوة جواد مشاعرها الفيّاضة، ولكن خارت كلّ قواه بلا جدوى مستسلمة لواقع موتها، بالرّغم من كلّ تلك الحياة المرابطة على أهبة جهاد على سطوة قدراته وشغف رواياته المستعمرة لأرض اللغة لأمد وأبد.
أراد أن يخبرها الحقيقة لكي تكون مسؤولة على حبّها، ولكنّ حبّها كان يقطع الهلوسة كما تقطع صلاة المسلمين اليوم لخمس مرات وأكثر، كان يريد النفوذ لنخاعها الشوكيّ ليقرأ لها بعض أبيات من محض سرّ ولتكون حرّة في حبّها ومشاعرها، ولكي لا يكون هو قد أخفى عنها شيئا مهمًّا كهذا، ولكنه لم يستطع ذلك، والأحلام تبدو صعبة القراءة وأصعب فهمًا.
بسط - خورخي أمادو- يدًا على كتف غبريال محاولًا مؤازرته في حزن بادٍ على

روح عادت لتلامس بعضاً من الواقع، فأغلق سندان القدر أسنانه عليها بقوّة غير تارك لها أيّ مجال من التّعديل، جاء من سرداب الروائيين ليساعد غبريال وهذا الاخير غارق في التفكير وقال بصوت خافت: - ماذا تفعل هنا يا خورخي؟-، أجابه خورخي فورا: - وهل تظنني أترك صديقي في عالم الأرواح تائها يصارع الواقع وحيدًا! الصديق وقت الضيق صديقي -.

ردّ غبريال وهو يهزّ رأسه أسفل، وكأنه يرفض أمرًا واقعا: - لا، لا أريد مساعدتك خورخي، ابحث عن أحياء لتساعدهم، أنا هنا أصارع الحقيقة وحدي-، ردّ خورخي: - لا تستعجل صديقي الأحداث؛ لا يمكننا هزيمة الحبّ، كلّ شيء سيغدو على ما يرام بعد وقت قصير-، أجاب غبريال: -هل حقا تظن الحياة تشبه رواياتك القصيرة ؟-.

ضحك خورخي : - هكذا هو الإنسان دائما حيّا أو ميتا، في أسوء ظروفه يجد مكانًا للنّكتة والسّخرية، قدرنا أن نضحك، أن نضحك إلى الأبد صديقي، هذا هو الإنسان -.

أجاب غبريال وعلامات الحزن عادت لتطفو على وجهه: - أن يضحك الإنسان يا خورخي لا يعني أنّه سعيد، أن تحلم لا يعني أن تنال، أن تؤمن بالعدالة لا يعني أنّها موجودة. عالمنا الأبدي أكثر واقعيّة من هذا الواقع المزيّف، كلّ المفاهيم هنا أوهام فقط، كما أنّك من زاوية واسعة جدّا سعة عالم الروح تحلل حالتي المصارعة في زاوية ضيقة للغاية في هلوسة امرأة تمردت على الواقع -.

ردّ خورخي وهو يبتسم لصديقه: - لا عليك يا رفيق، فكلّ شيء سيكون على ما يرام، صدّقني؛ إنّ الحياة قصيرة مثل روايات خورخي أمادوا، ومهما تكن تبدو وكأنها بشعة فهي ستنتهي في الأخير-.

ابتسم غبريال وودّع صديقه بإدارة ظهره له، وأكمل تفكيره ترافقه عيناه على الأرض، حيث تأمّل صفّا من النّمل يمشي في خطّ واحد، ويختفي و بالرغم من روحه البعيدة عن الواقع، ولكنّ بعضًا من فضول الإنسان زحف إلى تجويفه

الرّوحي وغدا يتتبّعها ليعلم مصدرها، ولكنّ النمل وللأسف، كان يختفي في النهاية، وهناك رفع عينيه هنيهة على باب الغرفة وأجساد مشعّة تمازح الهواء بسمفونية للحبّ ترسم المستقبل بريشة ليوناردو دافنتشي، تمازج رومانسيّ يرتشف من الطبيعة متناقضات البشر، جسم ماريا بين شخصين؛ رجل وامرأة يراقصان رجلا واحدًا على السّرير، كانت ماريا تمسك قضيبه بين يديها كما لو كانت تمسك رضيعا بكلّ نعومة، كان كلّ اهتمامها أن تمص خصيته بشراهة الجوعى حين يأكلون قطعة خبز طري، كان لعابها يغرق المكان، ويرفع منطاد الرّغبة فيه إلى ألف رجل، أمّا هو فقد كان يقبّل الرجل الآخر أمامه واضعا يديه على مؤخرته، كانت ماريا تضع القضيب أحيانا بين ثدييها وتتنهد، وكأنها تغنّي الأوبرا في مسرح تشايكوفسكي، فيما كان هو يضمر الغضب في فتحة مؤخرة حبيبه، كان يجلدها بلسانه و يلعقها ككوز الحلوى، كان حبيبه يلعق أصابع يديه بشراهة تنسيه ذكورته. دقائق عشر وشفع ووتر، وسرعان ما أدخل قضيبه بسرعة في مؤخرته، وراح يقضبه ويجعل منه يبحر في اللذة والألم، وهو يدخل فيه قضيبه كما يوضع عادة في المرأة، استنطقت اللّذة قلبه بينما كان القضيب الكبير كبر مقام الشهيد يحكّ البروستات داخله، وغيّر قلبه نبضه من ضربات فوضوية إلى حروف موسيقيّة كانت تنطق بشكل سريع ومتفرق لتتراوح بين حرف الزاي والباء؛ المتعة الكبيرة هي كلّ ما كان يشغله، أن يضاجعك الرّجل الفخم بقوّة ليكسر رغبة في أن تؤذي ذاتك - اجعلني أنثى بين يديك حبيبي، لا أريد أن أشعر بالرّجولة حين أكون معك-؛ صاح ذلك الرجل وهو غارق في اللّذة، كان كسيّدة ورجلاه معلقتان على كتفه، كما يعلق دعاء الفقير بين الأرض و بين السّماء بعيدًا على بلاط الآلهة، كانت كتفاه معلّقتين على كتف حبيبه وقد أدخلت ماريا رأسها بين فخديها، كانت ماريا تقبّل حبيبها من فمه، وحبيبها يضاجع حبيبه، وحبيبه يلعق لها فرجها.

استلقت ماريا فوق صديقها، وراح حبيبهما يداعبهما بقضيبه الواحدة تلو

الأخر، كان قضيبه كآلة الخياطة وهو يضاجعهما بالتساوي - ما ألذّ كلّ ثغر في العالم، ما ألذّ كلّ فتحة، الجنس هو الحياة، أنا هو الرجل الوحيد الحيّ الآن في هذا العالم -؛ هكذا كان يردّد في قرارة نفسه وقد انتشى بقوّة انتصاب قضيبه الذي لا يبدو عليه التّعب، كان يرى رأسه المحمرّ يتدفق شهوة وجمالا لم ير ولا ماريا رأت مثيلا له في حياتهما. ما أجمل ذلك القضيب، لا امرأة ولا رجل في العالم يمكنه أن يقف مكتوف الأيدي أمامه، أن يبدو وكأنّه خلق لجنس قوي بين افروديت و باخوس على سرير فينوس، ذلك القضيب المبجّل لا يستحقّ إلّا أن تلتقط له ملايين الصور، وأن تنحت له ملايين التّماثيل وهو يصلّي صلاة اللّذّة تقرّبا للآلهة المبجّلة، إله اللّذة، إله الحبّ، وربّة الرّغبة الجيّاشة، لابدّ لكلّ إنسان في العالم أن يتحصّل على صورة لذلك القضيب أو تمثالا، ليبدأ كلّ صباح يومه بسعادة و شغف، ولكي يتذكّر الطقس المقدّس الذي جاء به إلى هذا العالم.
كان ذلك القضيب وكأنّه من الفولاذ، كان لا يكلّ ولا يتعب، حتى أنهكهما بطريقة تشبه الثّورات الشعبية التي لا تنتهي، كان أحيانًا يبصق في فمهما ليذكّرهما برجولته، وأحيانًا أخرى ينهيها بقبلات أسد يلتهم فريسته من فاهها، حتى انتهى الطقس التعبّدي بماء الحياة يغمرهما معا، وقد تدفّق كالشّلال على أجساد الجميع.
أوصد غبريال الباب وفي قلبه شوق للّذة تستنطق سره، لكنّه تأمّل نور الشّمس الخافت بين الستائر، وتذكّر مآسي كوكب الأرض وما تعانيه، فودّع إيمانه بالنّهايات السعيدة، وقد اعتلى وجهه يأس ما، أمّا ماريا فأكملت روايتها بكلّ حبّ وجنس وقضيب.

فلاش باك ثالث.

يفتح القدر ساعديه كلّ مرّة بمفاجآت جديدة تختزل الخيط الرّوائيّ في لحظات شاهقة الكلّ يعلم أنّه يسير، ولكنّ الطّريق لا يعلمه إلّا الله مثلما يقال، ومثلما سألت ماريا نفسها عن معرفة منكرة لسراب الحقيقة ذاك؛ لكنّه الله نفسه الذي لا يتوقف عن التّذمر من الطريق الذي نسلكه وقد اختاره هو وليس نحن.

ألم يكن جديرًا بأن يسلكه هو عوض أن يورّط الآخرين به، أم هو ربّما ساكن لا يتحرك ! يقال إنّ له عرشًا تحمله الملائكة، إلهٌ كثير الجلوس ربّما لكسل أو ربّما لإعاقة أو ربّما فقط لأنّه لا يكترث.

ثم أردفت بخوف بالغ - أمعقول أن لا يكترث لأحد؟ !، أن لا يهتمّ سوى لمن يعصونه؟ ! إن لم يكترث فتلك مشكلة كبيرة لا تكمن في عدم اكتراثه، بل في اكتراث البشر لإله لا يكترث سوى لعبادته و تأليهه ووحدانيّته، لا يكترث سوى لنفسه وكيف يكون دائما إلهًا أكثر ألوهيّة وليس إلهًا أفضل، وأنانيّته الزّائدة عن اللّزوم، التي تفرض علينا التّعبد الخشوع دون أن نسأل ماذا و لماذا، ثمّ هو إله مليء بالتناقضات؛ فمرّة هو أرحم الرّاحمين، ومرّة شديد العقاب، ويمكنه أن يكون نفس الشّيء في نفس الوقت، إله غير بشريّ، ولكنّه يمتلك كلّ تلك المشاعر التي يمتلكها البشر عادة، وأحيانًا الحيوانات فهو يغضب ويحبّ وينتقم ويفرح وغيرها من المشاعر؛ لماذا هو إله إذن يعقل أنّه إنسان مثلنا قد صعد إلى هناك قبلنا دعكي ماريا من كل هذا فربّما أو أكيد ليس موجودا البتّة، فمن اخترع

الدّين لكي يحتقر المرأة لن يكون سوى رجل مثل باقي الرّجال، هيّا انصرفي أيتها الأفكار الشرّيرة واتركيني أعيش بسلام، لا أريد أيّ رجل في حياتي مهما كان؛ إنسانًا كان أم آلهة.

هكذا كانت ماريا تتساءل بينها وبين نفسها في كلّ لحظة روائيّة في حياتها حين بدأ يومها عاديّا ككلّ الأيام، حيث قادت ماريا جسدها صوب رياض الفتح لشراء بعض الحاجيات لأحد الجارات، كانت قد أوصت بها بعد أن أخذت نصف عمولتها منها كأحد مهارات الحياة التي اكتسبتها في العمارة تلك، كانت تمشي بكلّ ثقة في النفس تزعزع الطريق كما تفعل الشاحنات الكبيرة عادة، فهي لم تعد نفس الماريا التي أتت من القرية والتي تخاف السيارات، بل أصبحت تعرف شوارع العاصمة شارعًا شارعًا، وأصبحت تمارس بكلّ شارع شعائر معيّنة خاصة به حسب صفاته وشكله، تغيّرت مشيتها حسب تغيّر كلامها، فالشّارع البرجوازيّ يستحقّ ابتسامة لا يستحقّها شارع (العرايا) كما يسمّيهم العاصميّون نكالا في فقرهم الذي لم يختاروه بأيديهم، أو ربّما لطبائعهم المتوحشّة التي زرعتها فيهم الحياة الصعبة، وقد باتت هنا في هذا المكان تتحرك بكلّ أريحيّة فيه، كما أنّها أصبحت لا تخاف من أحد على الإطلاق. كانت تردّ بكلّ قوّة على أيّ شخص يتكلم معها بطريقة سيّئة، أو كما يقال بالدّارجة: - كانت دائما تردّ الصّرف -، فماريا الآن فهمت أنّ النّاس في العاصمة كثيرو الكلام وثرثارون، لكنّهم لا يقدمون على أيّ فعل، فكلّهم يبدي الغضب ليخيف الآخر، ولكنّه في حقيقة الأمر حمل وديع مازال يعيش طفولته بجسم أكبر.

فهمت أيضا أنّها إن لم تقاوم ولم تبدي هي أيضا الجزء القويّ منها فسيلتهمها المجتمع الذي لا يقبل الجزء الضّعيف منه، أو بالأحرى له شرهٌ لالتهام الضّعفاء ورميهم في مجاري الصّرف الصّحي، راحت تمشي وتغلق على حاجبيها وكأنها خرجت من منازلة في الملاكمة لتوّها، ضاغطة على شفتيها بكلّ قوّتها لكي تخيف مثلما يفعل الكلّ؛ إنه سلوك حيوانيّ حتما، ولكن، هل يخرج الإنسان من دائرة

الحيوان؟ الإنسان الذي يريد دائمًا أن يقنع نفسه أنّه يقع في نقطة أعلى، ولكنّه دائمًا ما يكتشف أنّه أقل.

وهي تتمشّى لاحظت شابّا في الثلاثينات من عمره، كان ملتحيًا يشبه بابا نوال الذي شاهدته أوّل مرة أمام محلّ الملابس -لوشيك-، ألا أنّ لحيته كانت سوداء تتخلّلها بعض الشعيرات الحمراء لم تعرف مصدرها؛ ربّما حنّاء، أو ربّما لأنه أصهب سابق قبل توبته، كان يتبعها وهي تسير في الشارع بمحاذاة المحلّات، حاولت ماريا أن تزيد سرعتها أحيانا لعلّ هذا الشّيطان الذكريّ ينصرف، وتغيّر الطّريق أحيانا أخرى لتبتعد عنه، ولكن لا جدوى، كان الشّاب يلاحقها بكلّ إصرار، فحاولت ماريا التوغّل بين المارّة لعلّها تضيّعه بين الزحام، أو تحرجه بالمارّة الذين يملؤون المكان، ويعطونها بعض الأمن، ولكن لا مفرّ منه، لقد واصل سعيه وراءها، وقفت ماريا للحظة وتأمّلته جيدا، كانت تحاول أن ترى من يكون، فرأت فيه الشّخص المتديّن الذي يبدي كلّ علامات الوقار والهدوء، لكنها تذكّرت بسببه كلّ آلامها، وبالتحديد الرجل الذي اغتصبها - ذبّاح الخرفان وكاسر النسوان -.

رأت في وجهه ذلك الرّوائيّ الفاشل الذي جعلها تعيش هذا الدّور البائس، رأت في وجهه كاتب سيناريو الحياة الذي لطالما شعرت برغبة كبيرة في قتله، ثمّ غيّرت وجهها بوجه ذلك الوحش الذي يقبع بداخلها، وراحت تتأمّله بكلّ غضب.

وقف الشابّ في مكانه وتحرك ببطء، وقد لاحظ في عينيها ذلك الغضب البادي على محيّاها المزركش بملحمات الذّاكرة المنتقمة، كان كقنبلة ذريّة منفجرة على أرض جميلة، لا هي جعلت من الجمال يندثر، ولا هي تركت الحياة تقبع في سلطان جمالها، كان جمالا جافًا ليس فيه من الحياة سوى ذلك الذي نراه في حجر كريم، فتعجّب لذلك وفكّر أنّ فتاة كهذه لا يمكن أن تحمل كلّ هذا الحجم من المأساة في عينيها، إلّا إن كانت مجنونة. توقف لبرهة و كأنّه ندم على ملاحقتها، ولكنّ ماريا لم تستسلم بعد، لقد شاهدت في عينيه ذلك الخوف،

وهي لن تشفي غليلها منه سوى بردّ الصّاع صاعين، سارت إليه بقوة و قد كان يمدّ عينيه أحيانًا إلى يساره صوبها ليتأمّلها إن كانت تسير نحوه أم لا.
وصلت إليه وتأمّلته قليلا في حين كان يحاول تجاهلها كما تفعل القطط حين تلعب دور الخرساء، فوقفت أمامه وشدّت على لحيته بقوّة وأدارته صوبها، وقالت له بكلّ قوّة وقد بدا طويلا جدّا حين وقفت قربه، حيث كانت هي تبدو كالقزم. وشدّت لحيته وكأنّها تشدّ على ماضيها التعيس وراحت تعرّيه من خصيته: - اسمع، لماذا كنت تلاحقني يا صاحب الذقن؟ هل تظنّني فريسة سهلة يمكن اصطيادها ببعض الكلام الحلو؟ اسمع جيدا أيّها المنافق...، وراحت تشدّ لحيته إلى الأسفل أكثر: - اسمع جيدا، لا يخدعني مظهرك، وأنا لا أومن بربك ولا بدينك، وإذا تبعتني مرّة أخرى ستندم، هل فهمت؟ - أمّا هو فلم يفعل شيئا، كان مندهشا وفي الوقت نفسه لا يعي ما يحدث له، شدّت ماريا لحيته مرّتين إلى الأسفل موحية لنفسها برأسه أنّه يقول نعم، ويوافق على أنّه لن يتبعها مجددا، ثم أفلتته من يدها وركلته، بصقت في الأرض وراحت تصرخ مستهزئة لإذلاله: - رجال آخر زمان، تفو، يجبلك غمّة يا عيب الأمة، تفو، غمّة في ركايبك، اطلقلي دوكا شنايفك يا بولحية، تفو تفو -.
راح الشّاب مسرعًا بعدما زادت النظرات من المارّة الفضوليين حوله في الشّارع، فرّ إلى إحدى المكتبات القريبة محاولا تفادي اهتمام الفضوليين به، أمّا ماريا فأكملت عملها واتّجهت نحو العمارة البائسة ببؤسها، وساقتها تلك الخيوط المتبقيّة من شبه جواربها النسوية إلى قبْوها وأخذت حمّامًا دافئا ونامت بعيدا عن ضوضاء المدينة، نامت كالأطفال.

* * *

كان سفيان على حاله، لايزال ذلك المتيّم بحبّها بالرّغم من أنّها رفضته مرارا وتكرارا، إلّا أنّه لم يفقد الأمل بعد، كان مازال يظنّ أنّه بعد كلّ رفضها له،

سيظفر بحبّها يوما ما. ماريا لا تتجاوب مع الأحداث كثيرا، فالحدث في حياتها لا يلبث أن يحدث إلّا وتتصرّف معه في وقته الآني ومن ثمّ تنساه إلى الأبد، فإن سألت الآن ماريا عن سفيان أو عن الشّاب الذي تبعها في الشارع أو عن الأحداث الأخرى فهي لن تتذكّر سوى أنّها يجب أن تواصل الحياة، و يجب أن لا تموت، لكنّ ما لم تنتبه إليه ماريا أنّه ليس الجميع ينسى بهذه السّرعة، فذلك الشّاب الملتحي الذي التقته لم يقرّر بعد أن يتركها، حيث حصل في ذلك اليوم أنّه تبعها إلى حيّها في خفية عنها، وقد سجل عنوانها، وصار يسير يوميّا بسيارته مع الغروب إلى حيّها، ويبقى هناك يحاول استراق النّظر لعلّه يشاهدها، أو يسمع خبرًا عنها، وعن من تكون.

بقي الشّابّ على هذه الحالة حوالي الأسبوعين، كان يراها في اليوم مرّتين أو ثلاث مرات بينما تخرج أو تعود، أمّا هي فلم تلاحظ أنّ هناك من يراقبها، فقد كان يختار زاوية بعيدة حيث يراها ولا تراه، بحيث كان يجلس في سيارته التي غطّى زجاج نوافذها بالمعتم، وهو ما يجعلها كأيّ سيارة فارغة مركونة على الطّرق، أمّا الجيران فلم يكن أحدٌ منهم ليركز على وجوده هذه اللحظة، فحين كان يترجّل من السّيارة كان يبدو بلحيته وعباءته كرجل متديّن لا يؤذي أحدًا، لأنّ هذا المجتمع المنافق يكفي أن تكون متديّنا لكي تفوز بثقته، بالرّغم من كلّ تلك المجازر والجرائم التي حدثت وتحدث كلّ يوم على يد المتديّنين في كلّ بقاع العالم. فهذا المجتمع يبدو أنّه أصبح يقدّس العنف ولا يطيق العيش بدونه، فهم يدّعون تقديسهم للإله، وهم في الحقيقة يقدّسون أنفسهم ويقدسون مجتمعهم الذّكوريّ ويبجّلون فيه العضو الذكري.

كانت ماريا كلّما تذكرت ذلك تدعو قدّيستها زبيدة لكي تبعد عنها الرّجال، كلّ الرّجال دون تمييز أو عنصرية، كان الرّجال يزدادون قربًا منها، فالجيران وبائع الخضر وأصحاب المحلّات والميكانيكي وغيرهم، الكلّ أصبح يطمع في ماريا، فهي الفتاة الجميلة التي تعيش وحدها؛ الغريبة عن المدينة، المقطوعة من

شجرة، كل ذلك الضعف الذي كان يبدو حولها كان يغري أولئك الذّئاب البشريّة خصوصًا أنّها تسكن لوحدها في قبْو العمارة، والأمر الوحيد الذي كان يمنعهم اغتصابها هو الباب الحديديّ الذي كان يغلق باب العمارة، وسفيان الذي كان لا يرتاح ولا ينام لكي يحرسها بكلّ غيرة عليها وكأنّها زوجته.

كلّ يوم كان الشّاب الملتحي يحوم حول تلك المنطقة باحثا عن أيّ معلومة عنها، بسؤال الأطفال مرّة، أو المتشرّدين في الحيّ الذي يغريهم ببعض المال، محاولا نبش أرطال التّراب التي تبدو حولها وحول شخصيّتها إلى أن اكتشف هو الآخر وحدتها كالآلهة، وعرف نقاط ضعفها التي جعلتها تتصرّف بتلك الطريقة، فزاد إصراره في متابعتها لأجل شيء يريده مازال لم يعبّر عنه، ربّما هو حبّ أو قضية أخرى، أمّا في العمارة الملطّخة بقبح المجتمع وطباعه الحشوية والحشرية، فكانت النّساء تستقي الأخبار والكلام عن تلك الجثّة التي تلعب دور الحياة المسمّاة بالخطأ الصّواب ماريا، وتتداول الإشاعات والأكاذيب حولها وهنّ يعلمن أنّها أكاذيب فقط، ومع ذلك يواصلن تصديقها ونشرها أكثر، لا لشيء سوى لأرواحهنّ الشّرّيرة والحاسدة، فالمرأة في الجزائر تنتقم من نفسها بسبب أذيّة الرّجل لها، فهي تساعده على إرضاخ المرأة أكثر، فالأمّ تريد لابنها دائما أن يكون سيّدًا على زوجته، والأخت كذلك، وأمّا الصديقات فكثيرًا ما يمارسن الكثير من النّميمة والشرّ للإيقاع بصديقاتهن، لا لسبب سوى للغيرة وحبّ امتلاك الرّجل الذي تسعى المرأة بكلّ قوّتها لامتلاكه ومنع الأخريات منه، وفي الأخير ينتهي بتملّكه لها؛ والقاعدة الأكثر انتشارًا هنا - المرأة ليس لها إلّا الزّواج، وإن لم تتزوّج فستصبح أقلّ النساء قيمة، لا أحد سيعطيها أيّة أهمّية وستحنّط اجتماعيا وستعتبر أمة أو ما شابه ولن تقدّم النساء الأخريات لها أيّ نوع من الاكتراث، وستعيش بقيّة حياتها منبوذة، وستلقّب إلى الأبد بالبايرة أو العانس، فالزّواج بالنسبة للمجتمع الجزائريّ هو غاية المرأة، وهدفها في الحياة وما دراستها سوى ورقة حظّ أخرى لزيادة حظوظها في الزواج، إنّه

بالتأكيد الاضمحلال الفكريّ الذي أدّى بالمجتمع الجزائريّ إلى التفكير بتلك الطريقة المحنطة والمذلّة في النّساء، ولكن كسبب آخر جدّي، فإنّه لمن البديهيّ القول إنّ المرأة هي التي أوصلت نفسها إلى تلك الحالة التي يرثى لها في هذا المجتمع الذّكوريّ، وماريا وما عانته في تلك العمارة مع النسوة إلّا جزء من ذلك المشروع النّسويّ الفاشل، والسباق البيني للظفر بأعلى قيمة بين النساء، وماريا كشابّة صغيرة جميلة ورقيقة ومتحررة كانت تثير اهتمام الكثير من الرّجال، وهذا طبعا ما لم تستحسنه أبدًا النسوة في العمارة، وكنّ يعتبرنه تهديدا حقيقيًا لهنّ ولبناتهنّ هناك، لذا كنّ يسعين بكل قوتهنّ لإيجاد ذريعة لطرد ماريا من المنطقة، ولم يجدن حيلة سوى تشويه سمعتها والدّفع بالكلّ إلى نبذها.

وفي خضم كلّ تلك الإشاعات التي كانت مستفحلة حولها كانت ماريا بالكاد تعيش حياتها عادية وكانت تلاحظ تغيّر النّظرات صوبها في العمارة، كانت تشعر بأمر مريب يحدث حولها ولكنّها لم تأبه كثيرا، كانت تواصل حياتها باستمرار فأسوء الأشياء التي قد تتوقع حدوثها لها لن تكون أسوء مما عايشته في حياتها، فعندما يكون الألم روتينًا يوميّا في حياة الإنسان يفقد الألم مصداقيته ويصبح شيئا عاديًا جدًّا، ومع الوقت يفقد قدراته على جعل صاحبه يتألّم فهو يصبح درعا واقيا له لكلّ تلك الآلام الأخرى، وهكذا كانت العذراء ماريا مخدّرة ضدّ الشّعور بأيّ ألم ولو مرّ بقربها، فهي بالكاد تشعر بذلك الألم الكبير وهو لصيق بها كظلّها كلّ يوم، فالألم في حياتها لم يكن سوى جزء يوميّ من الكلّ أو ربّما كان الكلّ من الجزء الذي هو الكلّ، ومن الغريب جدّا أن لا يكون مصاحبًا لها، فهو الذي كان وفيّا لها على مدار الحياة، حتى أصبحت لا تلاحظه؛ لقد قطع وعدا ليكون معها للأبد مهما قاومته وليكون لها درعا يقيها من الآلام الأخرى في المستقبل.

ما أحقر الإنسان، يسعد بألم أخيه الإنسان، ما أحقر المرأة التي تدوس بقدميها على أختها المرأة من أجل الفوز برجل، وما أحقر الرّجل الذي يذلّ الرجل من

أجل المصلحة، كانت ماريا تفكر بعمق في آلامها الإنسانية وقد بدأت أفكارها تتوسّع من دائرة جسدها إلى حدود الإنسان، ولاحظت في نفسها عنصر تجريب لما قد يمكن أن يصل له الإنسان المظلوم من حقارة، فالظّلم يقضي على سمات الإنسان و يجعله بلا مشاعر وبلا كينونة، وإذا ما استفزّت غرائزه ومنع من التّعبير عنها بالوسائل الحضارية فإنّه يدخل في دوّامة من إنكار الوجود بأتمّ معنى الكلمة واحتقاره، وينتهي به المطاف عاجلًا أم آجلًا إلى مسخ في نظر البقيّة التي تدّعي الملائكية.

والمسخ الذي كان بداخل ماريا كان يحادثها بتسليم تامّ للواقع الشّرير وبضرورة الشرّ لمواجهته، لم يكن ذلك المسخ سوى المجتمع الذي خلق بداخلها ذلك العنف الذي يقضم أنوثتها رويدًا رويدًا باحثًا عن صناعة فرد جديد لقطيعه المريض، ولكن رغم كلّ الظّلام الذي زرعه المجتمع بداخل ماريا كان بداخلها بصيص من النّور يجعلها متشبّثة بالحياة، ويدفع فيها غريزة حبّ البقاء من أجل الصّمود والمقاومة، ذلك البصيص كان ابنها المسيح؛ ابنها الضّال؛ ابنها الذي ستعيش دائما لأجله، فلا معركة بين الإنسان وبين باقي البشر هزم فيها الإنسان الإنسان، هو الذي ينتصر في النّهاية مهما كانت قوة الجماعة الضّاغطة من حوله، فالإنسان هو العنصر الفعّال والوحيد في هذه العملية، وهو العنصر المحدّث والمجدّد والمقاوم.

وبين غضب النسوة في العمارة والحي، وبين حبّ سفيان و تفانيه وجنونه، وبين عبثية ماريا، كان هناك في حياتها ما ينتظر، وهو ذلك الكائن الملتحي بين النقاط الثلاثة يحوم دائما حولها كمجسّم الإله، ويزيد دعمًا لحجّة النّسوة حولها وأنّها أصبحت حقّا عاهرة، يبحث عنها الرّجال من كل صوب، إنّها العاهرة المعروفة بعهرها الذي لم ترتكبه قط.

فذلك الشاب الملتحي لا يبدو أنّه سيتركها هو الآخر، فحضوره الدّائم إلى ذلك المكان يستعرض إدمانًا رهيبا على ذلك، وكما كان يبدو دائمًا هناك في حالة

ترقبيّة وبدأ حضوره بإضرام بعض الرّائحة على أطلال العمارة الناريّة تلك بسخونة الحرب النسويّة البينيّة، وبدأت إحدى النّسوة هناك تشتمّ حضوره بشكل مقيت من الرّيبة، هو اليوم هناك واضع يده على مقوده وفاتح نافذة سيارته، إذ دعا أحد الأطفال وأعطاه بعض النقود وأعطاه حقيبة يد نسوية وطلب منه أن يأخذها إلى ماريا وهمّ بالانصراف، ذهب الطفل إلى ماريا فرحًا بالمال الذي كسبه، دقّ عليها باب قبْوها، وأعطاها الحقيبة دون أن يقول لها كلمة واحدة، أمسكته من ذراعه وهو ذاهب، - إلى أين أنت ذاهب؟ ما هذا ؟ أجابها: - هذه حقيبة أعطاني إيّاها رجل، وطلب مني أن أعطيكها -، سألته: - هل سفيان هو الذي أعطاكها؟ قال لها: - لا، إنه رجل ملتحٍ قدّمها لي وطلب مني أن أقدّمها لك -.

تذكّرت ماريا في تلك اللحظة الشّاب الملتحي بصعوبة، ثمّ تركت الطفل ينصرف ودخلت إلى قبْوها وأغلقت الباب، لقد أعجبت بالحقيبة التي تبدو غالية الثّمن، ثمّ فتحتها لتتفاجأ بمبلغ ضخم بالنّسبة لها بداخلها، تغلّفه أوراق الجريدة، عشرة مليون سنتيم، كانت تعدّهم ورقة ورقة، لقد كانت كالثّالوث المقدّس بالنسبة لها، وكعادتها ماريا تقبل الهدايا وترفض أصحابها.

داخل الحقيبة كانت هناك رسالة مرمية، في البداية لم تعرها ماريا أيّ اهتمام، ولكنّها في النهاية فتحتها بعدما انتهت من عدّ النّقود، فتحتها لتجد بداخلها عقدا ذهبيا جميلا، وورقة مكتوب عليها: - ماريا، أنت رائعة، وأتمنّى الزواج منك، قرأتها ماريا مرّة واحدة، لم تقدّم لها أيّ إدراك أو مشاعر، احتفظت بالعقد الذهبيّ، ثمّ رمتها.

عشرة ملايين الآن بحوزتها، يمكنها أن تقوم بالكثير من الأشياء بهذا المبلغ الذي يبدو ضخما بالنّسبة ليد صغيرة كيدها، وهو أكبر ثمن قبضته في حياتها، وبدا الرّوائيّ السّماويّ في ذلك الوقت بالنسبة لها يبدو وكأنّه استرجع بعض قرارته، وقرّر إسعادها نوعا ما، ولكنّها لم تفكر أنه ربّما يرسل لها طعمًا لكي يغريها

لاستدراجها إلى حفرة يحفرها لها في طريق هذا القدر الشائك.
و بروية أرجعت المال إلى الحقيبة، وعادت لحياتها، وكأنّ شيئا لم يكن، أمّا هو فمازال يحوم بالمنطقة حتى استطاع أن يلفت أنظار العامّة إليه، أصبح كلّ أسبوع يرسل حقيبة بنفس المبلغ بداخلها إلى ماريا مع نفس الطفل معتزّا بماله لكي يغريها، فقد كانت كلّ مرة لا تعيره أيّ اهتمام، تأخذ المبلغ والهدايا وترمي الملتحي ولا تترك له حيزاً ولو بسيطًا في الذّاكرة.
كان سفيان يلاحظ هذا الرّجل المقيت الذي أصبح يتردّد كثيرًا على الحومة بعد أن رأت عيناه (لّي ياكلهم الدود) الطفل الصغير يجول كلّ أسبوع بين سيارة الملتحي و بين العمارة، ولكنّه لم يتجرأ على التّحرك بعد لإيقاف الأمر، فالمسألة لديه لم تبد واضحة أو تستدعي التركيز، ولكنّه مع ذلك لم يعد يستطيع أن يخفي غيرته على ماريا منه أكثر من ذلك، فهو لم يضمن بعد حبّ ماريا، ووجود ذكر آخر في هذا القطيع أمر مهدد لهذا الحبّ الذي لم يولد بعد.
بعد أن مرّت أربعة أسابيع وماريا على نفس الحال تستقبل المال وترمي الرّسائل ولا خبر لها في العمل في العمارة، فقد كانت ترفض مساعدة الجيران الذين بدورهم أصبحوا يتذمّرون منها أكثر من الماضي، وما كانوا يظنون أنّها إشاعات في البداية ولو أنّهم صدقوها كذبا أصبحوا الآن متيقّنين فعلا أنّها حقيقة، وأنّ بعض الكذب قد يتحول أحيانا إلى حقيقة، خصوصا بعد أن اكتشفت أمّ الطفل الذي كان يقوم بدور المرسول بين الملتحي و بين ماريا، حيث لاحظت في الآونة الأخيرة توافر مال مجهول المصدر لدى ابنها، وحين سألته أخبرها أنّ الرّجل الذي يقدّم له حقيبة أسبوعيّا ليأخذها لماريا هو من يعطيه المال، وهكذا شاعت الحكاية أصداء العمارة وأخذ الطفل حسابه من العقاب لكي ينتهي عن فعلته تلك.
للأسبوع الخامس على التّوالي مازال ذلك الغراب الملتحي يحوم حول تلك القطعة البرّاقة يحاول ضمّها لأكسسواراته، ومازال يستقي الأخبار عنها، والمرأة الأولى

التي لاحظته صارت اليوم أربعة، وربّما خمسة وربّما أكثر، فمثل هذه الأخبار تتكاثر في العمارة بالانقسام، خصوصا وأنّ حضوره لم يعد حضور شخص متديّن عادي وفقط، بل حضور شخص تلاحظ على تحرّكاته الرّيبة والشّك المنبعث رائحة من تحت تنّورة ماريا، والخبر الطازج الذي فاح في يدي الطفل الرّسول.
نادى الطفل كعادته وسلّمه الحقيبة، بالإضافة إلى حصّته من المال كإكرام له، وضرب على ظهره مثلما يضرب على ظهر الحصان وقال له: - يا الله روح -.
في النّاحية المقابلة كان سفيان يراقب المشهد، وما إن همّ الطّفل بالانصراف، حتى جرى نحوه في ثورة غضب تجرّد فيه من مكانته الاجتماعية كطبيب، وراح يصرخ في وجه المتديّن ويطلب منه الانصراف و كأنّه ثور ثائر مدّ قرونه صوبه وكأنّه يريد مهاجمته، وبسرعة ركب الملتحي سيارته من الحيّ على وقع شتائم سفيان الذي كان يبدو مسعورا، والذي بدوره أمسك الحقيبة الخامسة وراح لقبو ماريا وراح يصرخ بكلّ قوّته وجوارحه متنكّرا لمبادئه راضخا لمشاعره متسكّعا في عالم من الفوضى بداخله، طرق الباب بقوّة ومن فرط الغضب لم يفتح الحقيبة ولم ير ما فيها، فبمجرّد أن فتحت ماريا الباب انهال عليها بالضّرب بكلّ قوّته و كأنه لم يكن له أحاسيس تجاهها أبدا، صارخا: - هكذا تخونينني يا ساقطة، تخونينني من أجل بضعة حقائب؟ وهل تركت أنا شيئا لم أهدك إيّاه يا عاهرة ؟-
وألقى الحقيبة وهو منهال عليها بالضّرب، ومن هول الصّراخ نزل الجيران ومعهم مثلّث الشّر بكلّ تشفٍّ في ماريا محاولين بكلّ تمثيل إنقاذها وهم يهدّؤون من روع سفيان، لتصرخ إحدى النّساء: - هذه مكانها ليس هنا، يجب أن تخرج من العمارة، منذ أن وصلت هنا والجوّ كلّه متقلّب، لم يعد رجالنا نفس الرّجال، ولم تعد نساؤنا نفس النّساء، بل وحتّى الأطفال لم يعودوا نفس الأطفال، إنّ بقاءها هنا هو تهديد لنا ولسمعتنا كلّنا وبات اليوم من واجبنا طردها -.
كان الكلّ يبدو غاضبا والكلّ فرحًا في الوقت نفسه، فهذه هي الفرصة التاريخيّة

لإزالة هذا الورم دون أن يرى أحد للأمر على أنه سيّء ولن يحزن أحد لها.
وبالفعل كان لمثلّث الشّر ما شئن هاته المرّة، ومنحت ماريا مهلة ثلاثة أيّام لترحل من العمارة، ووضعت صوب ذلك القرار المفاجئ دون أدنى حظّ لها بالنّجاة؛ ثلاثة أيّام لم تكن تكفي حتّى لتحضير نفسها، لكنّها استجمعت قواها وجهّزت بعض الحقائب وما كانت تمتلكه من مبلغ ماليّ، والذي كان يصل لخمسين مليون سنتيم والقليل من المدّخرات الأخرى، وبعض الملابس والهدايا التي كانت تصلها من سفيان وبعض المجوهرات التي امتلكتها سلفا.
ماريا أتت من القرية وليس لها سوى نعل رجاليّ ترتديه، وبرقع أسود، أمّا الآن فقد خرجت بثروة لم تكن تتخيّل أبدًا بأنّها ستمتلكها يوما، وكان الغريب لديها أنّ سبب بؤسها في القرية كان الرّجل، وسبب ثروتها اليوم كذلك الرجل، إنّه فعلا كائن غريب هذا الرجل الذي يحيي ويميت، ويفقر ويغني، إنّه كالإله في هذا المجتمع، هو الذي يصنع البؤس، وهو الذي يصنع السعادة، بكلّ بساطة هو مجتمع ذكوريّ مغلق ليس للنساء فيه من دور سوى صناعة الرّجال، أو الحرب البينيّة من أجله.
مهلة ثلاثة أيّام كانت قصيرة جدّا لتفعل الكثير من الأشياء التي يجب فعلها قبل أن تغادر، ولكنّها ستغادر شاءت ذلك أم أبت، وعليها في كلّ الأحوال أن تواصل كما تفعل الطيور المهاجرة حين يأتي نداء الطّبيعة بطلب الرحيل.
أمسكت ماريا صورة زبيدة؛ قدّيستها التي راحت واعتذرت منها على عدم إعطاء صورة جيّدة عنها في العمارة، وعدم تمثيلها كما ينبغي، وقرّرت أن تحرق الصورة على ضوء شمعة ليس كرها فيها، بل لأنّها أصبحت تخجل من نفسها كلّما لاقت عيني زبيدة البارزتين في تلك الصورة.
فكّرت بقوة إلى أيّ مكان ستغدو إليه، وتذكّرت رسائل ذلك الملتحي الذي يبدو عليه التديّن، وتذكرت أنّه قد طلب منها الزّواج، أمسكت رقمه واتّصلت به، عرضت عليه اللّقاء وقصّت عليه أنّها طردت من العمارة وما كان منه سوى أن

أجاب بسرعة تتملّكها الشهقة والتلعثم: - لا تخافي عزيزتي.. أنا هنا سأحميك، خذي سيارة تاكسي، واطلبي منه إقالتك إلى فندق الكوثر أو كما هو معروف فندق ليتوال أو النجم، سأكون هناك حالا.

وضعت حقائبها وثرواتها وطلبت تاكسي وغادرت العمارة، ولم يودّعها أحد، أمسكت إحدى الجارات مزهرية ورمتها من الشّرفة كفأل لدرء ماريا، ولكي لا تعود أبدا إلى الحيّ أو العمارة، وأغلقت إحداهنّ باب العمارة بقوّة وهي تقول: -طريق السّدّ تدّي ما تردّ -، ركبت ماريا التاكسي بدون أن تلتفت لكلّ تلك الأمور، فهنّ ليس في عقلها الآن، بعدما صارت العمارة مجرّد مكان آخر من الماضي، واتّجهت نحو فندق الكوثر حيث طلب منها ذلك الرّجل المتديّن الذّهاب.

هناك وبعد أن وضعتها التاكسي دخلته وهي خائفة وخفقان قلبها مسموع في أذنيها، فهي لم تدخل فندقًا قطّ في حياتها، دخلت وذهبت نحو الحارس تسأله عن ذلك الرّجل الملتحي التي عرفت لتوّها اسمه -سي حكيم-، وأشار الحارس للاستقبال ودلّها على الطّريق حيث ستتحصّل على إجابة، وبالفعل سألتهم عنه، ثمّ أردفت أنّه هو من أوصى بها، أصبح كلّ من في الفندق يعاملها بوقار واحترام شديد، حمل الموظّف الحقائب وأوصلها إلى الغرفة التي كانت تبدو سوية، وكانت بها زهور في كلّ جهة ورسالة صغيرة مكتوب عليها: - سنلتقي في المساء في مطعم الفندق، ستجدين طاولة مكتوب عليها اسمك انتظريني هناك على الساعة التاسعة -.

وضعت ماريا حقائبها، وتأملت غرفة النوم تلك، كانت غرفة أجمل من الغرفة التي كانت في بيتها القديم، فتحسّست كل تفاصيلها التي لم تعهدها أبدًا في حياتها، فغرفة كتلك لا يمكن لماريا حتى أن تحلم بها.

أخذت ماريا حمّاما هادئا ونامت بعد أن طلبت كوبًا من العصير، نامت كالطّفلة الصغيرة، وكالعادة وكـأنّ شيئا لم يحدث؛ هذا النوع من اللااكتراث الذي كانت

تواجه به ماريا المجتمع كان يضع هذا الأخير رهن الحيرة، فهو لا يعتاد هذا النّوع من الشّخوص، حيث لا يعبّر الإنسان عن آلامه التي يصيبه بها المجتمع، ولا يقدم على الانتقام، بل فقط يقابله بالتّجاهل، فالتجاهل و اللااكتراث واللاخوف هو أكثر ما يخيف المجتمع، فهذه الثلاثيّة تجعل من الأسلحة التي يستخدمها لقهرالأفراد تصاب بالميوعة، فالمجتمع يعتمد على قوّة الجماعة في قهر الفرد عن طريق تسديد ضربات قوية لشخصيته تسبب لها الميوعة، وإنّ تلك الثلاثيّة تجعل تلك الضربات تبدو كالقبضة الحديدية التي تلكم الماء، فماذا تفعل القوّة أو الصّلابة في لكم الماء، وهو بالذّات ما كان يجعل المجتمع يتسبّب بنفسه لنفسه بنوع من الارتباك، وهذه هي الخطّة اللّاواعية التي جرّبتها ماريا دون تركيز منها.

نهضت ماريا في المساء وكانت الساعة تشير إلى السّابعة والنصف، وكان يجب عليها أن تحضّر نفسها لتلتقي بالسّي حكيم؛ ذلك الشّخص المتديّن الذي يبدو أنه لن يتركها أبدا.

لبست ملابسها ووضعت بعض المكياج، وسافرت في المرآة تتأمل ماضيها في بعض أجزاء وجهها الذي كان يبدو أنّه يصبح أجمل كلّما أخذت ضربات أكثر من المجتمع، نزلت إلى المطعم وجلست في الطاولة التي حجزت لهما، وجاء المضيف يسألها ما تريد، فطلبت كوكتيل فواكه كعصير، وانتظرت إلى أن جاء -سي حكيم- يخطو خطوات ملتهبة هو المسبل لثوبه، ويبدو أنّ كلّ من كان في الفندق كان يقدّم له الكثير من الاحترام الزائد نوعا ما عن اللزوم، جلس إلى جانبها في الطّاولة وقال لها بنبرة صوت هادئة: - لقد انتظرتك طويلا يا ماريا، يا صاحبة الشخصية القوية -، فردّت عليه: - هيا ادخل في الموضوع مباشرة، أنت تريد الزّواج مني صحيح؟ إذن فلنبدأ من هذه النقطة -، فراح سي حكيم يضحك، ثمّ ردّ: - أوكي فلنبدأ مباشرة، أنا حقا أريد الزّواج منك، ولكن زواج مصلحة حتى أكون صريحًا معك -.

من البداية تلقّت ماريا كلامه بغير اهتمام حقيقيّ، ثمّ سألته بكلّ ربوتيّة: - ماذا تقصد بزواج المصلحة ؟ فردّ عليها: - يا ماريا، اسمعيني جيّدًا وعليك أن يبقي الأمر سرّا بيننا، كان يراودها عن سرّه وفي صوته نبرة تردّد ضعيفة لم يبدها وكأنّه متأكّد أنّها لن تحاول كشف سرّه، فهي مقطوعة الشجرة، ويستطيع أن يضع لها حدّا لحياتها إن هي حاولت القيام بذلك، وراح يقول لها السّرّ بعد أن وافقت ماريا على ذلك: - ماريا، أنا الآن كما ترين في سنّ الزّواج وأمتلك ثروة عظيمة، لديّ هذا الفندق، وفندقين آخرين، ومحلات في كلّ الجزائر، وملبنة ، ولديّ أربع سفن صيد، وشركة للاستيراد والتصدير، وقصرين، وعدة سيارات، والعديد من الأرصدة المالية، وأنا أعيش مع أمّي وأخواتي البنات وأخي الصغير، ولكلّ فيهم تقريبا نفس ما لي أنا، وقد ورثنا هذا كلّه عن أبينا (الله يرحموو)، نحن عائلة محافظة ومتديّنة، وكما ترين، أنا والحمد لله أتبع خطى العائلة على الدّين والطاعة، وأنا أيضا جدّ متديّن وأقيم الصّلاة في وقتها وأساهم في بناء المساجد، ولكن هناك مشكلة، أمّي تريد منّي أن أتزوّج وأنا لا آبه كثيرا للنساء. تساءلت ماريا: - كيف لا تأبه للنساء؟ لم أفهم صراحة ؟ فردّ: - اخفضي صوتك واسمعيني جيّدا، أنا لا تعجبني النساء، بل يعجبني الذّكور وبكلّ بساطة لكي أسهّل لك الفهم : أنا بداخلي امرأة وأحبّ الرّجل القويّ الذي يتجبّر على ضعفي، ولو تمثيلا، لا أحبّ المرأة -، فقالت ماريا بعفوية: - إذن أنت امرأة ترتدين لحية اصطناعية وملابس تنكّرية كرجل، صحيح ؟ فقال لها : - لا، لا، أنا رجل ولكني لا أحبّ النّساء، هكذا ولدت وهذا طبعي؟ فتساءلت ماريا: -إذًا لم تريد الزّواج بي إن كنت لا تحبّ النّساء؟-.

- لأنّك أوّلا جميلة وستعجبين والدتي-، قال حكيم : - وثانيا، لأنّ شخصيّتك القويّة تلامس بعض مشاعري، فأنا أحيانًا أشعر بالمتعة حين يذلّني شخص ما، أو يعاملني بقسوة مهما كان جنسه، رجلا كان أو أنثى، ومهما كان الأمر جنسيّا أو غير جنسي -، فأجابت ماريا: - إذن لن نمارس الجنس؟ - فأجاب:- لا، هذا هو

المطلوب هه -، فأجابت ماريا ببرودة أعصاب: - حسنا، أنا أقبل الزّواج منك، ولكن هناك مشكلة، ليس معي أوراق، ولا عائلة، فكيف سنتزوج ؟-.
- لا تقلقي ماريا، الأمر سهل جدا، سأصنع لك أوراقا بالاسم الذي تريدينه، وبالعمر الذي تريدينه، وأوراق جدّ أصلية، وسأصنع لك عائلة أيضا، إذن - مبروك عليك -، سنبدأ هذه الأيام التدابير، وأنت ستبقين هنا في هذا الفندق، وطلباتك أوامر، اتّصلي فقط بالمضيفين وكلّ ما ستطلبينه سينفّذ إلى حين أن أتمّ العمل. الآن سأتركك تتعشّين، أمّا أنا فذاهب، لديّ انشغالات، هيّا، السّلام عليكم و رحمة الله تعالى وبركاته -، وانصرف حكيم.
لقد كان الأمر سريعا جدّا، لقد تجاوزت مرحلة بأكملها من حياتها في جلسة من بضع دقائق أو أقل! كم يمكن للدّقائق أن تغيّر حياة الإنسان، فاللحظة الفارقة في حياته ليست سوى لحظة، إذ هناك الكثير من الأمور التي لا تتغيّر في حياتنا في سنوات عمل، ولكنّها يمكن أن تتغيّر في لحظة / في دقيقة / أو في ثانية من الحظّ؛ إنّ اللحظات تختصر فجائيّة الأحداث؛ اللحظة في الحقيقة هي ينبوع التجديد، وبدون اللحظة الفارقة ستبدو السّنوات روتينيّة حادّة، تسير في خطّ واحد كخطّ الموت، فها هي ماريا ذي تتحوّل من فتاة فقيرة تشفط السّلالم، إلى ملكة تطلب وتأمر فتنفّذ طلباتها وتقام أوامرها، فهي أصبحت آمرة ناهية في عالم بدأ يتغير حولها، وفي قدر قرّر أن يهديها بعض الثروة ليتصالح معها.
دلّلت ماريا نفسها في الفندق وقضت فيه أيّاما كالملكة بين صالوناته ومطاعمه ومسابحه، وأخذت كلّ يوم تعدّ أموالها وتنام حبّا في تلك الرّائحة الغبيّة التي تتبخّر من الأوراق، إلى أن جاء السي حكيم بعد أسبوع ليخبرها فحوى خطته، جاء ليطلب منها اسما لها واسما عائليا أيضا لكي يزوّر لها أوراقا، كما أخبرها أنّ أحد الشيوخ العاملين عنده سيزوّر له أوراق أخرى أيضا ليلعب دور أبيها عند الخطوبة، والذي سيموت في تمثيلية بعد شهر من الزواج لخداع أمّه، وافقت ماريا واختارت كاسم لها - مريم -، وكلقب - لعدرا - أو العذراء بالعربية، وعاد

سي حكيم إلى غيبته وعادت ماريا هي الأخرى إلى عادتها، لقد تناست كلّ مخاوفها وحسراتها وأحزانها هناك، ومع الوقت أصبح شكل شعرها أجمل؛ لون بشرتها أجمل، حتّى عيناها أصبحت أجمل بعد زوال الهالات واكتسبت خدّاها و شفتاها بعض الاحمرار بعد أن أصبحت تتغذّى جيّدا، وماريا لم تغيّر حياتها فقط، بل تغيّر اسمها كذلك، وسوف تصبح شخصًا قانونيّا يعترف به القانون كمواطن جزائريّ كامل الحقوق، وعليه كلّ الواجبات، لكن فقط باسم مزوّر وهوية مزوّرة وتاريخ مزوّر، إنها بداية أخرى كتبت في رواية القدر لماريا بداية مشوقة لحياة أفضل.

وكما كان الحال، راح سي حكيم وماريا ينفّذان خطّتهما، وتحصّلت على هويّة مزوّرة ودفتر عائلي لها ولأبيها المزوّر بلقب العدرا، و بيت أيضا وتمّ تجهيزه وأخذ أمّه وأخواته لخطبة ماريا التي ارتدت الحجاب كما طلب منها سي حكيم، وضيّفتهم بكلّ وقار وأدب وقدّمت لهم القهوة، لقد كان أدبها وحياؤها الظاهرين عليها وهي تمثّل على أمّ حكيم يفقدان هذه الأخيرة أيّ شعور بالالتباس، فقد أعجبت بها وقرّرت أن تعطيها ابنها، - نعم، هذه هي البنت التي تليق بك يا ابني، الجمال والأدب والتّدين، هذا ما أريده، وبنت ناس وعائلة وشبعانة عرفْت تخيّر يا وليدي -، ما هي شروطك يا أخي، الله غالب كما ترى ابنتك يتيمة الأمّ وابني يتيم الأب وليس معنا رجل يتحدث إليك ولا امرأة تتحدث -، ليردّ الأب المزوّر: - شرطنا الهناء -. فردّت أمّ حكيم: - وهو لكم، ومني عهد أن تتذهّب ابنتكم وتتجمّل بأثمن المجوهرات من رأسها حتى رجليها-، ثمّ (قراو الفاتحة)، ووضع سي حكيم لماريا الخاتم الذي يبدو غاليا جدا، مع زغاريد الأخوات، وهكذا كانت خطبة ماريا، أو بالأحرى - مريم العدرا -، وبكلّ سهولة أصبحت سيّدة مجتمع بعدما كانت في الحضيض، وارتفعت درجاتها في الحياة بعدما كانت في أدنى الدّرجات، وبعدما سلبتها الدنيا ملابسها وتركتها عارية تواجه النّاس، كستها الآن بالذّهب من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها.

بعد شهر من الخطوبة فقط أقيم عرس ماريا، وأحضر لها سي حكيم صديقات مزوّرات وعائلة كبيرة مزوّرة كذلك، الكلّ يمثّل، كان يمثّل ويرقص، وكانت حفلة كبيرة انتهت بشهر عسل مزوّر في هواي، كانت تلك أول مرّة تركب فيها ماريا الطّائرة، وأول مرّة ترى فيها العالم ببعد جديد وترتدي فيها البيكيني، وتتعلم السّباحة في شاطئ في جهة مرمية على الكرة الأرضية، ولكنها لم تكن سعيدة كثيرا، لا يزال قلبها متعلّقا بابنها الضّائع، لذلك لم تأخذ الرحلة أيّ اهتمام في وجدانها الضّيق وتجاوزتها كما يتجاوز الغديرَ الماء.

بعد عودتهما من شهر العسل، ذهبا إلى بيتهما الذي هو عبارة عن قصر كبير، بمسبح داخله وخدم وحشم، كان المكان الوحيد الذي لا يدخله هؤلاء هو الطّابق العلويّ، حيث يقضي سي حكيم وقته مع زوجته أو في العمل، لقد كانت أيام ماريا فعلا سعيدة فهو أبدًا لم يمارس عليها الجنس، كما أنّ كلّ ما عرفته من هذا الزّواج هو المال والحياة، فهذه كانت صفقتها التي أبرمتها وكانت بالتأكيد في صالحها من كل مناحي الحياة، وبعد أن قدمت للمدينة أوّل مرّة بنعل رجاليّ يحملها فوق الأرض أصبح لها الآن سيارة بعد أن اجتازت رخصة السّياقة.

وبعد مدّة لا تقل عن ستة أشهر، فتحت ماريا الجريدة صباحا لتقرأ أنّ سفيان قد انتحر، قرأت الخبر ثلاث مرّات للتّأكد من المعلومة، ثمّ لم تفعل شيئا، أغلقت الجريدة وأكملت حياتها، وكأنّ شيئا لم يكن، سفيان الذي أحبّها بجنون، أو بالأحرى حبّه للامتلاك جعله يصبح رخوا جدّا بعد أن هزمت فيه تلك الصّفة التي كانت تبدو كلّ ما فيه من صفات فانتحر. انتحر لأنّ ذكورته أفلتت أمامه ولم يعد له من مكان في عالم الخصيّ فبينه وبين نفسه لم يكن سوى حمار وحشيّ خسر لتوّه أنثاه بعد منازلة.

بدأت حياة التّرف تعمي بصيرة ماريا عن قضيتها الأولى، وهي ابنها الضائع، بالرّغم من أنّها كانت أوّل فرصة لها لتجد مكانه بسبب الثّروة الهامّة التي تمتلكها، ولكن مع مرور الوقت بدأت ماريا تؤمن عقليا أن ابنها قد مات،

فالمنطق وطبيعة الظّروف في تلك اللحظة توحي بشدّة أنه مات وانتهى، فقد تكون نهشته الكلاب، أو أحد الحيوانات الضارية الأخرى التي تتجول في تلك الأنحاء، ولكن من ناحية أخرى، عواطفها كانت دائما تدفعها نحو البحث عنه، كل تلك الثّروة التي بيديها لم تكن في حقيقة الأمر سوى لعبة خسيسة من القدر لينسيها ابنها، لقد بدأ الشّطر الثّاني من الصفقة يتحقّق وبدأت الوفود المذلّة لسي حكيم تتوافد على البيت، كانت ماريا تراقبهم، في المرة الأولى رأت كيف كان زوجها المزوّر حكيم يذلّ من طرف ذلك الرجل الذي كان يضربه، ويتبول عليه ويمارس عليه الجنس بكلّ قوّة، فيما يعذّبه أيضا بكل الطّرق الجنسيّة، وأصبحت ماريا الآن تكتشف في الرجل جزءا آخر لم تعهده من قبل؛ هذا الجزء المريض؛ أن يعذّب الطرف الآخر في الجنس أو أن يتعذب، لقد كان ذلك قذرا جدّا بالنسبة لماريا، ولكنّها قد عاهدت على أن يبقى الأمر سرّا، ولم تكن تتخيّل أن تكون حياتها بهذا التّرف أبدًا، لذا، فهي ممتنّة لهذا الرجل الذي يهوى الرّجال الأقوياء ويتلذّذ عندما يُذلّ ويُهان.

احتارت ماريا بين الصّورتين المختلفتين للشخص نفسه، وعرفت بذلك مدى غباء المجتمع، فليست الصّورة التي يصنعها المجتمع عن شخص أو لشخص هي حقيقية دائما، أو حتّى تلك التي يصنعها لنفسه، فالمجتمع كذّاب ويكره الحقيقة، فسي حكيم هذا الذي يحترمه الكلّ ويقدّمون له الكثير من الوقار، ما هو إلّا رجل يهوى أن يكون ذليلًا ومحتقرا، ويجد في ذلك نشوته الجنسية.

كانت أصوات الرّجال وهم يذلّون سي حكيم تقدّم كلّ مرّة صورة أوضح للرجل في نظر ماريا؛ الرّجل الضّعيف الذي يحبّ الظّهور في المجتمع بصورة القوّة، إنّ أفراد المجتمع يخبّؤون تحت أقنعتهم أسرارا كثيرة، والإنسان يحبّ دائمًا أن يبدي عكس ما بداخله ليخبّئ الحقيقة، فهذا سي حكيم المحترم أفضل اسم كان يحب أن ينادى به على وقاره و تديّنه البادي وهو في لحظاته الحميمية مع الرّجال (العاهرة حكيمة)، وأفضل وصف كان يحبّه هو الكلب المطيع.

كان الرّجال الممارسون معه يتفنّنون كلّ مرّة في إذلاله، فهناك من كان يربطه ثم يضربه، وآخرون كانوا يذيبون الشمع على جسمه، وآخرون كانوا يجعلونه يرتدي ألبسة نسويّة، ويجعلونه يلعق الأرجل والجوارب، لقد كانت ماريا فعلا تبحر في عالم من القذارة الذّكوريّة التي لم تعهدها أبدًا في حياتها، ولم تتصوّرها أبدًا عن الرجل، لقد كانت الأيّام تمرّ بانتظام وماريا تعيش حياة البذخ، وسي حكيم يعيش حياة الذّل؛ يتلذّذ كلّ ليلة بعد صلاة العشاء بمصّ قضيب أحدهم و بلع سائله المنوي

لم تكن تلك اللّيلة الشّتوية سوى احدى تلك الليالي العادية العادية التي تمرّ بها ماريا، وهي في غرفتها تبحث في المجلات الجديدة عن ملابس جديدة وموضات جديدة أو حليّ جميلة لكي تشتريها، فمنذ مدة لم يعد هناك أيّ فعل آخر تقوم به في حياتها سوى هذا الفعل؛ الشراء ثم الشراء ثمّ الشراء ولا شيء إلّا الشراء، كحياة تافهة وسعيدة من الاستهلاك الهمجيّ لكلّ شيء دون أيّ تعب أو راحة.

كانت تلك الليلة مطِرَة تصفّر فيها الرياح وتهزّ أشجار الصنوبر هزًّا وكان المطر الغزير يسقط على الأرض وكأنّه يشقّها، وكان زجاج النّافذة مبلّلا ورطبا مليئا بأكسيد الكربون، وكان سي حكيم يتلذّذ بتذلّل كعادته، وماريا مرميّة هناك تتسكّع بين المجلات، وفي لحظة زيف وحقيقة مخبأة في نزيف حادّ في الذاكرة وقفت ماريا تلامس النافذة وتتذكّر من خلالها طفولتها التي سجنت في قبو الأعضاء الجنسية، وتذكّرت ذلك المشهد الحزين لها وهي تشاهد صديقاتها يلعبن في الخارج رغم البرد، وتذكّرت كيف حرمت من طفولتها هناك في قرية العدم الفكريّ والتّناقضات الأخلاقية الحادّة في عالم الرّجل القذر الذي تعيش فيه وعليه المرأة الغبيّة التي لا تعرف مدى قوّتها وقدرتها على التغيير، وقفت هناك تلامس النّافذة وتتذكّر نافذة بيتها التي كانت منتفخة في فصل الشتاء وحيدة كئيبة وأصوات التّعذيب والشّهوة تملأ المكان ، وإذا بصوت يداعب أذنيها - كنت سعيدة هناك، أليس كذلك؟ - دارت ماريا تبحث عن الصوت

الذي يتحدّث إليها، ولكنّها لم تجد أحدًا، لم تجد سوى الفراغ، قالت وهي خائفة: - من هناك؟ -، فإذا بها تسمع نفس الصوت خلفها.

اقشعرّ جلد ماريا من فرط الخوف فالتفتت خلفها، فإذا برجل وسيم يبدو على وجهه الهدوء بشوارب كبيرة تملأ شفتيه وتغطّيهما وكأنّها تغطّي نصف وجهه، تتراوح بين بعض شعراتها الشيباء شامة كبيرة في خدّه الأيمن أمام أنفه، صرخت في وجهه بقوّة وقالت: - من أنت ؟ وماذا تفعل هنا أيها اللص؟ ماذا تريد مني ؟-، فردّ الغريب: - لا تخافي لا تخافي، لست هنا لأؤذيك، أنا هلوسة فقط وسأمضي-، فردّت مستغربة : -هلوسة ؟-، - نعم، هلوسة -، فهل تظنّين أنّك كنت ستمضين كلّ حياتك بكلّ تلك الأحداث دون أن تُجنّي، ها أنا ذا؛ أنا أحد العلامات الأولى المصاحبة لجنونك، أنا هلوسة -.

- لكن كيف تكون هلوسة؟ وأنت إنسان عاديّ جاثم هنا أمامي - قالت ماريا بحيرة لا تخفى على محيّاها، فأجابها الغريب: - كلّ إنسان هلوسة في حدّ ذاته، ما الذي يجعلك متأكّدة أنّ العالم من حولك هو عالم حقيقيّ، في الحقيقية كلّ فرد يولد في الحياة قد كتبه روائيّ يوما ما وكتب حياته، وهو يولد ليقضي تلك القصّة التي كتبت عنه فقط، الرّوائيّون وحدهم من يولدون كآلهة ليكتبوا قصص الخلق-، فردّت ماريا بصرامة: - ما معنى روائيّ؟ لو كنت هلوسة حقيقية لتكلّمت بما أعرف، وليس بمصطلحات أخرى لم أسمع بها طيلة حياتي؟ فأجاب الغريب وهو يضحك: - عزيزتي ماريا، وهل تظنّين أن الهلوسات هي من نسج الخيال؟ إنّ العلم يخطئ أحيانًا ويستحي أن يقول ذلك، كلّ أولئك المجانين ما هم إلّا بشر عاديون، من فرط المشاكل أصبحت عقولهم بقدرات أقوى، أصبحوا يمتلكون قوى عجيبة كمشاهدة العالم الآخر معهم، من بينه عالم الأشباح، فردّت عليه بحزم: -اسمع ليس لديّ وقت للمزاح، وإن كنت من أصدقاء زوجي فانصرف لحال سبيلك وإلّا سأتّصل بالشرطة، ومازال الغريب يضحك ويردّ عليها : - لم لا تريدين تصديقي، أنا شبح، أنا هلوسة، ماذا أفعل لتصدقيني؟ هل

تريدينني أن أختفي وأعاود الظهور؟ -، وإذا به يختفى، فراحت ماريا تبحث عنه وهي مذعورة، ومن ثمّ عاد من خلفها ووضع يده على كتفها وقال: - هل صدقتني الآن؟ -، فقفزت ماريا في مكانها من فرط الخوف وصرخت: - اسمع، أنت يا سي هلوسة، ابتعد عنّي، أنا لا أريدك معي، ابتعد، ثمّ طار الرّجل في السّماء مردّدا: - ماريا، لن أبتعد عنك أبدًا، أنت صديقتي الآن-، ثمّ اختفى.

دقّات قلب ماريا كانت كحبّات الرّصاص المتطاير في الحروب، كانت خائفة جدّا، لأوّل مرة يتحرّك فيها شعور الخوف منذ قتلت من اغتصبها وهي في سنّ السادسة عشر، الخوف شعور رائع لإنسان لم يجرّب المشاعر منذ مدة طويلة، لذلك سرعان ما ابتسمت ماريا وشعّت بالسّعادة بعد غياب طويل للمشاعر، إنّ للخوف فعلا مذاقا رائعًا وللسّعادة طعم أروع بعده، لقد ضربت ماريا عصفورين بحجر واحد؛ شعورين في شعور واحد : الخوف وتلته السعادة، إنّ كلماته كانت عميقة، إنّها هلوسة دقيقة، هلوسة إيتش دي، فهي كانت تشعر بأنّ الرّجل فعلا حقيقيّ ولم يكن هلوسة.

وقفت ماريا وهي تضحك، وقالت بصوت هادئ: - فعلا، هلوسة آخر زمان، وكان حينها سي حكيم غاطّا في ذلّه وعذابه وهو يصرخ بكلّ عهر، ماريا أصبحت مصابة بالهلوسة وتدافعت في ذاكرتها الأحداث وطفت مكبوتاتها في قاعها، ولم يعد لها من مكان تلجأ إليه سوى نفسها، إنّ تغيّر الجوّ حول ماريا كان كتقلّب الحرارة الشّديدة إلى البرد الشديد فجأة، فقد زاد ذلك الأمر من فرص جنون ماريا بسرعة، لكن ليس ربّما جنونًا حقيقيًّا، فلنقل هلوسة فقط.

كانت كلّ ليلة تمضي على ماريا بنفس الروتين؛ حياة بذخ ولا غاية لها، وهلوسات، في بعض الأحيان كانت تشاهد أمامها ذلك الرّجل في كلّ مكان، لم يكن يتكلّم، ولكنّه كان يشاهدها ويبتسم دائما ويختفي، مما كان يسبّب لها بعض الإحراج أحيانا، وأحيانا أخرى كان يضعها قاب قوسين من الانفجار أمام النّاس، وعلى الخطّ الفاصل في المجتمع بين الأناقة والجنون، هي لا تريد أن تعود للحضيض

ثانية، لذلك قرّرت أن تواجه رجل الهلوسة ذاك بقوّة، وأن تجعله يبتعد عنها، لذا جلست ماريا في شرفة غرفتها في قصرها الكبير و القذر في جوّ بارد وجافّ، جلست وهي ترتدي معطفها الأسود واضعة يديها في جيبها لتحميهما من البرد ونادته: - أيّها الشّبح، يا أيّها الهلوسة، أين أنت مختبئ؟ تعال إليّ، فأنا أريد الحديث معك، أعلم أنّك هنا في مكان ما، فهل أنت خائف؟-، بقيت تناديه وتحادث نفسها إلى أن قرّر الرّجل أنّ يظهر أمامها وهو واضع يديه على سور الشّرفة، وهو مبتسم بكل ثقة - هاأنذا يا جميلة، السّيد هلوسة أمامك، ماذا تريدين؟ - أجابت: - أريد أن أواجهك لأني تعبت منك، ستجعل منّي مجنونة أمام الجميع -، ردّ وهو يضحك: - وهل تظنّين أنّك لست مجنونة ؟ أنت كذلك يا عزيزتي، هدّئي من روعك -، تنهّدت وقالت: - حسنًا، أخبرني لم أنت تتبعني هكذا؟ -، ردّ والثّقة تبدو على وجهه الشّفاف: - اسمعي يا عزيزتي، هل تؤمنين بالملائكة، اعتبريني ملاكا أو اعتبرني شيطانًا طيّبا، اعتبريني أيّ شيء إلّا تلك الشخوص السيّئة، لأنّي لست هنا لأذيّتك، أنا هنا لأساعدك، لأكتب لك سيناريو جديد لحياتك، فهل تقبلين؟ -، ردّت ماريا: -حسنا، ولكن لم أنا بالذات وليس غيري؟ فأمسك شانبيه وأدار ظهره: -أنت ماريا يا ماريا ولا ماريا بلا روح قدس، أنت مريم العذراء الجزائريّة الجديدة وأنا جبريلك؟ سألته متعجّبة: وكيف ستساعدني يا غبريال؟ فردّ: -ثقي بي فقط، واتّبعي خطواتي وسأنقذك-.

ابتسمت ماريا: - تنقذني؟ من ماذا بالضبط؟ ألا ترى أنّي أعيش حياة التّرف هنا؟! أم تنقذني من هذه الحياة الرائعة هنا؟

فأجابها غبريال: - هل أنت جادّة؟ هل تقولين هذا الكلام من كلّ جوارحك؟ هل تظنّين فعلًا أنّ هذا الرّوتين البذِخ حياة؟ فتنهّدت ماريا ثم أجابت: - أوكي، حسنا، هي ليست حياة حقيقيّة، ولكن على الأقل بلا مشاكل-، حتّى قاطعهما صوت سي حكيم يصرخ بقوة: - أنا عاهرتك يا سيدي -، فخيّم الصّمت للحظة، حتّى عاد غابريال للحديث: - إذن قلت لي إنّ الحياة هنا بلا مشاكل، صحيح؟ -

وضحكت ماريا: - أوكي، معك حقّ إذن، أنا موافقة، لكن، ما هو عربونك لهذا؟ -، فردّ الغابريال: - حتى لغتك تغيّرت وأصبحت تتحدّثين مثل أولئك الأثرياء والأغبياء، حسنًا، عربوني لك هذه الجملة -، ثم طار في السّماء مردّدا - ابنك لا يزال حيّا، ابنك لايزال حيّا -، لقد اقشعرّ بدن ماريا لتلك الكلمات، وراحت تصرخ وتنادي: - لا تذهب، عد إلى هنا، أين هو ابني؟ غبريال .. عد إليّ، قل لي أين هو ابني يا غبريال؟ -، ثمّ أجهشت بالبكاء، ودخلت غرفتها وهي كذلك وألقت نفسها على السرير، ومن فرط البكاءحملت الوسادة في يديها وكأنّها تحمل طفلا صغيرًا، ثمّ راحت تضحك وتقول: - ابني يا ابني، سأجدك بعد هذه السّنوات، قلبي كان يقول لي إنّك لازلت حيّا، كنت أعلم هذا -.

أن تصدّق ماريا الواقع كان ذلك أمرًا مستحيلا، وأن تصدّق هلوساتها كان أمرًا مجنونًا فعلا، فالهلوسات عادةً تخاطب الإنسان بما يريده، لا بما يعرفه، فعندما يصاب شخص ما بالهلوسة فإنّه يستعرض نقاط ضعفه تلقائيا، ويحاول أن يتجاوب معها، ولكن بالنّسبة لماريا هذا ليس بهلوسة فقط، بل هو حلم جديد، هو باب جديد يفتح على غريزة الأمومة بداخلها التي لن تتغلّب عليها أبدا، ولو حاربتها طيلة حياتها، وإنّ هذا الأمل الجديد الذي فتح جرحها القديم قد يقلب حياتها رأسا على عقب، فأن يعود الأمل يعني أن تفتح الورود ثانية، أن تحاول ثانية يعني أن لا تنسى، الأمل هو الذي يعطينا القدرة على المواصلة والمجازفة، وأحيانا يمنحنا القدرة على الإيمان بالخوارق الطبيعية، الإيمان بالصّدف، الإيمان بأنّه لا مستحيل إلّا المستحيل، وأنّ الإنسان في حياته يمرّ بمراحل تفصل بينها الصّدف، ويحمله بين المرحلة إلى المرحلة الأخرى، وقود الأمل على أجنحة أحيانا طويلة وقوية وأحيانا قصيرة ومنكسرة، ولكنّ الإنسان يواصل عندما يطول أمله، وعندما تتلاشى تلك الشّمعة المنيرة فإنّه يتيه في ظلمات الحياة بينها و بين الموت إلى النهاية، وهكذا هي ماريا التي دبّت فيها روح المشاعر من جديد عندما أخبرتها هلوساتها أنّ ابنها حيّ يرزق، وأنّه في مكان ما في الزمكان ينتظرها

لتنهله شلّال حنانها واشتياقها.
واصلت ماريا أو مريم العدرا حياتها على وقع صخب زوجها سي حكيم العاهرة، وعلى هلوسات غبريال الذي لم يكن يحادثها طويلا، ولكنّه قد أسدى إليها معروفا كبيرا بإعادة المشاعر الإنسانية من جديد إلى جسدها، وبقدر كبير من المحبّة كانت تنتظر ماريا هلوساتها، كانت تنتظر هذا الغبريال الذي أتاها من داخلها لإنقاذها، والذي تعوّدت عليه وأصبح جزءا منها، وفي ليلة ليست ككلّ الليالي، وبينما كان سي حكيم يمارس صلاته المقدّسة على أعضاء رجل ما، فتح عليها الباب وهو عارٍ وطلب منها أن تأتي معه.
رفضت ماريا وبقيت تصرخ: - اتركني، اتركني -، ولكنّ سي حكيم جرّها بالقوّة، وعرّاها بالقوّة، وأمسكها من قدميها، وراح ذلك الرّجل الأسمر يمارس عليها الجنس في حضرة زوجها وبمساعدته. لقد كانت ماريا تبكي و تصرخ محاولة الدّفاع عن نفسها، ولكنّ زوجها كان ممسكا بها بقوّة ليسمح لصديقه أن يمارس الجنس عليها بارتياح لكي يشعر هو بشهوة الذّلّ والمهانة.
مازال هذا الرّجل يظلم النّساء، يظلم الآخرين والأخريات لأجل شهوة، ومازال يظنّ نفسه أنه سيّد الكون، وسيّد التّاريخ. انهارت ماريا على وقع ذلك الجنس القذر، وعندما فرغ من الجنس عليها ذلك الرّجل انقلب على زوجها سي حكيم يمارس عليه الجنس هو الآخر أمامها وهو يقول لها انظري كيف انكح زوجك أمامك؛ زوجك العاهرة وسي حكيم يصرخ: -نعم، افعل ذلك سيدي، ماريا كانت وهي عارية منهارة تماما، ورأت هلوسة غبريال يناديها بيده أن تأتي و تتركهما في فعلهما ذلك، قامت ماريا من مكانها متشبّثة بالحائط، وتبعت غابريال إلى غرفتها، فطلب منها أن ترتدي ملابسها وأن يسافرا معًا إلى مكان ما في الرّيف، لبست ماريا ملابس خفيفة بسرعة، وأخذت بعض الملابس والمال في حقيبة صغيرة، وفي حقيبة يدها بعض المال أيضا وأخذت مفاتيح سيارتها، حيث لم يمض شهر على اكتسابها لرخصة السياقة، ركبت السّيارة بسرعة في تلك الليلة، ومعها

غبريال جالس أمامها يتحدث إليها: - سوقي على مهل يا ماريا، لا تسرعي فسي حكيم منشغل بالجنس -، فردّت والعرق يتصبّب منها وهي تبدو منهارة تماما: - لقد مارس عليّ الجنس ذلك الرّخيص، لقد قدّمني كالجارية لذلك اللعين -، ردّ عليها: - لا عليك يا ماريا، انسيْ، فأنت من قِبل من البداية- فقالت ماريا: - ولكنّني قدّمت له شروطي من البداية -، فأجابها غبريال: - ولكنّك تعلمين أنّه كذّاب ومنافق من البداية -، فزادت ماريا في السرعة وهي غاضبة لا تعي ما تفعل، فقال لها غبريال: - هدّئي من روعك، هل تريدين أن تنتهي في المستشفى في غرفة التّبريد وأنت ميتة وابنك ينتظرك في مكان ما؟ هل تريدين منه أن يعيش يتيم الأبوين؟ أوقفت ماريا السّيارة في نصف الطريق الفارغ، وراحت تبكي على المقود، وهي تقول لغبريال: - أنت مجرّد هلوسة يا غبريال، مجرّد هلوسة، ابني ربّما يكون ميتًا، ربّما لن أراه ثانية -، فأجابها الغبريال: - انظري مباشرة في عينيّ، هل تظنّين أنّي أكذب، أو أني هنا للمتعة؟ ابنك حيّ وأنت على بعد خطوات فقط في الزمان لتجديه، نزلت ماريا من السّيارة وصرخت بقوّة: - أين أنت يا ابني؟ سأجدك حتما يوما ما وسأحضنك بقوّة -، ابتسم الغبريال في وجه ماريا وقال لها: - نعم، ستجدينه ماريا، ستجدينه، أعدك، وهكذا عقدت ماريا العزم على المضيّ قدما باحثة عن ابنها في هذا العالم، في كلّ نقطة فيه، ففي أيّ إحداثيّة في هذا العالم قد يكون هناك، ولكن، مادام ابنها على متن هذه الكرة الأرضية فلن تقطع الأمل أبدا، ولن تترك اليأس يستعمرها.

غريزة الأمومة وهلوسة غبريال ستحملانها إليه في مكان ما هنا على وجه الأرض، سيحملها حدسها إلى تلك البقعة حتمًا، أو ربّما، فالهلوسات أحيانًا أصدق من الواقع بكثير، وسراب الحقيقة قد يشبهها أكثر من أن يشبهها عمل يشدو الحقيقة.

النفحة الرابعة

منبطحًا على بطنه، رافعاً قدميه يلعب بأصابعهما، ويحمل في يديه رواية ويقرأ بشغف بصوت دافئ يتحرّر من قيود الذّكورة، يستلهم من بعض الجُمل الشّعرية شذرات من نبيذ العنب رافعًا مؤخّرته قليلا نحو السماء، يبدو في عجالة مسرعًا نحو الجمال تثير لحظات ضعفه وهو يتسلّق أبراج الإنسانية في كلمات أدبية مكتوبة بدم روائيّة ماهرة أفكار ماريا؛ ماريا حبيسة النّفس متناثرة الحدث تراقبه من كرسيّ هزّاز، وهي تلامس بطنها النّامي فوق خط - غرينيتش - في نصف حملها باحثة عن تساؤلات أخرى عميقة عن سرّ هذا الجمال الناطق لغة مازالت لا تفهم شفرتها وهي سجينة في جماله الهارب بين المفردات المنتشرة حبًّا في هواء هذا البيت المكتظّ بالمشاعر.

مازالت لم تفهم، ويبدو أنّها لن تفهم أبدًا سرّ هذا الحبّ الكبير والعظيم في حياتها، فهي لم تجرّب أن تكون شاردة فيه كلّ الوقت، تزخر أجزاؤها بفيض من المنمنمات السّرّية التي لا تستطيع مقاومة سحرها، فهذا الحبّ الكبير الذي أنساها كلّ شيء في الحياة لا يبدو أنّه حقيقيّ فعلا، هناك مغناطيس يجذب مشاعرها نحوه بطريقة كبيرة لا تعرف تفسيرًا منطقيّا لها.

لا يمكن لإنسان أبدًا أن يحبّ إنسانًا آخر بهذه الطّريقة؛ وكأنّه مكتوب على ظهر غريزتها الأولى، أو نسج في روحها قبل ولادتها وهي تلاقيه الآن ببحر فيّاض من المشاعر الخلّاقة التي تكتب فيه ألف سؤال وسؤال ورواية حبّ مبلّلة بريقه، هو الذي يستلقي هناك بأدب يمارس الجنس مع السيدة -رواية -.

السيدة - رواية - لا تجامل أحدًا، تقدّم افكارها ولغتها بثرثرة بالغة، وتغطّي في الإنسان ذاكرته ومكبوتاته، وتخطفه من واقعه، وترسم بداخله حياة جديدة، وتربي به شخصيات لم يكن قد عرفها من قبل، فيعايشها ويتعايش معها، ويغدو بعدها في شوق لها، يفتحها أحيانا ويقرأها مجدّدا ليقرأ لها السلام.

كانت عيناه تتحرك من اليمين إلى الشمال يقرأ رواية مترجمة للغة العربية لروائية ساحرة من جزر الموريس اسمها - إنندا ديفي -، والعنوان -الرّجال الذين يحادثونني -، كانت قد لمحتها ماريا على طاولته في البيت وأعجبت بعنوانها.

لو ماريا اختارت عنوانًا لحياتها لكان - الرّجال الذين اغتصبوني -، أو -الرّجال الذين حطّموني - ، - الرّجال الذين مزّقوني -، - الرّجال الذين قهروني -، - الرّجال الذين فصلوني عني و اشبعوني رغبة في الانتهاء -، رجال يفعلون كلّ شيء ألا أن يحادثونني، فهم لا يعرفون الحديث بلغة اللّسان، خطابهم اغتصاب للحرية، للشّرف، للضّمير، لكلّ شيء، وكان بإمكانها أيضًا بجملة أخرى أن تعنون حياتها بـ - الرجل المراهق الذي أحبه -.

طريقته في إمساك الكتاب بين يديه، ابتسامته التي تطفو على ثغره كسفينة نوح تصرخ بمحبّة لإنقاذ ماريا من غرق حتميّ في حبّه، شكل أصابع يديه المنحوتة وأظافرهما المحروسة بعناية فائقة من ملائكة الجمال وذلك الاحمرار البسيط على أطرافها، وعيناه اللتان تحكيان كلّ روايات الحبّ التي قرأها من قبل، كلّ ذلك الهدوء السمفونيّ الذي يتناوب مع سوبيرات الهواء في القضاء على الملل في أعين ماريا التي صغرت بسنوات عن عمرها الحقيقي مودّعة سنّها الحقيقيّ في سكرات من خمر شفاهه التي تلمع مع نور شمس خافت يتسلل من بركان شهوتها عليه.

قامت ملتفتة في مكانها وكأنّها ترقص البالي، وريح جسدها تنثر عصافير بلقيس من قفص الأحلام في - اندروميدا -؛ سبأ جديدة تتكوّن بالقرب من نهودها تبحث عن ممارسة حبّ عميق مع حبيبها الذي يبدو في عظمة - نيويرك -،

خطواتها كانت تذرف دموع الشّمس لتستلهم من نشوات جسده شعرا نبطيا، اقتربت من روايته، قبّلته من يده وأصابعه، واصل قراءة الرّواية وكأنّ شيئا لم يكن، قبّلته من رقبته، وامتدّ وادي القبل منها ليلامس شفاهه؛ وضعت شفتيها فوقهما وتحسّست وجودهما وهي مغمضة عينيها، ضحك بسخرية ولذّة وحب، ثمّ قبّلها قبلة بسيطة، وقال لها: -سأعطيك حقّك بعد قليل، اتركيني أكمل القراءة -.

كانت أحيانا تغار من الرّوايات بسبب تعلّقه بها، تغار من هدوئه وهو يجالس تلك الأوراق بعانية بالغة، كلّ اللّحظات لها سوى لحظات القراءة، فهو مشغول جدّا بإتمام رواياته، فقراءتها دين مقدّس بالنسبة له، كلّ رواية كنز آخر يرتمي في أحضانه، فكّرت في البداية أن تحرق كلّ الروايات في العالم، أن تقتل كلّ الرّوائيين، ثمّ قرّرت في النّهاية أن تكتب الرّوايات هي الأخرى، وإن تصارع أولئك الكتاب الذين يقرؤون له.

استلقت بجانبه في امتداد عكسيّ مع جسده وراحت تمرّر أصبعها على مؤخّرته المرفوعة، وتقبّل قدميه ذات الملمس الحريريّ، تنتظره لكي ينهي روايته، وفجأة انقضّ عليها يلاعبها كالطفلة الصغيرة وهو يضحك، وسرعان ما تطوّرت اللّعبة إلى إيلاج عنيف لما تسمّيه ماريا عادة الزّعيم بداخل أدبها بشكل مباغت لحيرتها محاولا استنطاق رغباتها معطيا لها لحظات من الجنس الهادر بكلّ ما فيه من صواريخ حنان طائشة، كلّ هذا والابتسامة الصغيرة مازالت مبحرة على ثغره وكأنه لا يمارس الجنس معها، بل يدغدغها قليلا فقط، أمّا هي فلأول مرّة تتيه في المجرّة داخل رأسها وهي في طور الزّلزال معه غير مبالية يسكنها التفكير ويعمّ على غيمة من أحلامها، ويتمالك الخيال في سطوة نظراتها له، تريد أن تقوم بشيء ما بعيد عن مجرّد جسد احتارت قليلا كيف تسأله وهو يتفرّغ لنشوة ورغبة يحاول بسطها كأجنحة ملاك تائهة على جسدها، نطقت بالحرف الأول، ثمّ بالحرف الثاني، فالثالث، وهكذا تمازجت تلك الحروف مع

أنين الشّهوة ونطقت السؤال كاملا: - أريد أن أكتب رواية حبيبي، كيف أفعل ذلك؟ -، انفجر قضيبه ضاحكا، وقذف سعادته بسرعة على غير طبيعته بعدما أثار ذلك السؤال البعيد عن محلّه الكوميديا في وجه حبيبها الضاحك لتوّه هو الآخر مخرجًا شيئه بسرعة، مندمجًا في حالة أخرى، سألته ماريا بكلّ استغراب: - لما تضحك؟ أريد أن أكتب رواية، فهل هي أفضل مني انندا ديفي؟ -، وقف حبيبها يستعصي عليه السؤال، وأجابها إجابة سهلة شدّت بريق عينيها: - اكتبي كما أكتب عليك الحب دائمًا، اكتبي كما أنثر فيك شكوكي وإبداعاتي، ازرعي في الورق كما زرعت فيك أنّ ذلك الحبّ النّامي في أحشائك، اكتبي دائمًا وكأنّك ستموتين، اكتبي وكأنّك آخر من يكتب وللمرة الأخيرة، اكتبي وكأنّ كلّ كتابة هي الأولى والأخيرة، اكتبي كخنفساء جميلة تعصر من سوادها ألوانًا بهيّة ترافق أشعّة الشّمس، اكتبي وكأنّك تحنّين دائما لطفولتك وإن كانت حزينة، اكتبي لتدفني كلّ أوجاعك على تراب الورق، اكتبي ليكون الحبر خيطًا رفيعًا ينجيك من الغرق، اكتبي لكي لا تنطفئي ولكي تنطفئي، اكتبي لتحاربي كلّ أعداء الحياة، اكتبي لأجل الحياة ولأجل الموت الذي يرافقها، اكتبي لكي لا تكوني كاتبة فقط، اكتبي لكي تكوني ماريا سانتا ماريا بكلّ ما في الكلمة من معنى.

سكتت ماريا لأربع برهات عطريّة ثم تناوبت مع نفسها على التفكير وهي تغامر بذاتيّتها ناسجة أوّل حلم لها في أن تصبح روائيّة، قالت له: - وهل ستقرأ لي بحبّ مثلما تقرأ لكلّ أولئك الروائيين؟ هل ستعلّق صورتي في غرفتك مثلما علّقت صورة غبريال؟ وهل ستتملّكك تلك الشعائر المقدّسة عندما ستقرأ لي أم أنك ستفضلها دائما تلك الأنندا وستتيه دائما في عالم غبريال؟

ظهر غبريال متّكئًا على الحائط وهزّ رأسه بطريقة مائلة وهو يبتسم يريد أن يخبرها أنّه هنا ويستمع لما تقول، فكّرت ماريا في أن تكتب قصّة حياتها على دم رواية في أوّل فكرة تتملّكها عن ذلك وكأنّها قالت الفكرة بصوت مرتفع، ردّ عليها حبيبها وهو متشوّق لما قد تذرفه حبيبته من كلمات: - عزيزتي، لم لا

تكتبي قصّة حياتك، قد تفوزين بنوبل للأدب -، واصل حديثه فيما راحت هي تتعمق في منظر غبريال المبتسم على الحائط، ثمّ راحت تفكّر في كلّ الماضي وواصلت نسج أفكارها باحثة في حياتها عمّا حدث، تتذكّر شيئا وتنسى آخر، وجاءها همس من هلوسة في رأسها يقول إنّ بعض الذكريات تستفحل فيك ثم تتلاشى ببرودة، الأخرى لا تعطيها أيّ أهمّية لتبرز فجأة للسطح بحرارة. غدًا يوم آخر البارحة أمس آخر، ويمضي الموت.

فلاش باك رابع

أكملت ماريا المسير بقلب منفتح و جسم منهك، تتمرّد على سطحيّتها في نفور بين نفسها وحقيقتها التي تعوّدتها، أكملت مسيرها كثورة تحرق الأخضر واليابس وهي كارهة لذلك الزّوج الرخيص الذي قدّمها طعما سهلا لأحدهم بدون أدنى كرامة، كانت تعرف ذلك من البداية، ولكنّها لم يعد لها أيّ شهوة للجنس مهما كان، وكانت تلك المعاملة الدّنيئة التي عوملت بها تذكّرها بكل لحظات الاغتصاب في حياتها التي جعلتها تخسر حياتها العادية في وجه صفحة فقط من رواية مازالت لم تنته فصول معاناتها بعد

هل كان جديرًا بها أن تموت؟ ولكن لم يكن جديرا بها أن تنتهي؟، كان عليها أن تجد أوّلا دافعًا لها للحياة، ولكنّها لم تجد سوى دوافع للموت، كلّ ما كان يمنعها عن فعل ذلك هو الجزء الضّائع منها، وقد اكتسبت أملا في العثور عليه مجدّدا.

خلاصة ذاك الجنس أنّه اغتصاب، الحبّ كذبة، الزّواج صفقة، الحياة نكتة، الموت ضحك على الذّقون، هكذا كانت ترى الجنس حتّى ذلك الوقت

فكلّ ما رسمته في بالها عن الجنس لم يكن جديرًا بأن يأخذ حيّزا جميلا في وعيها، فبنات أفكارها عذارى ولسن قادرات على إيلاج عضو ذكريّ بداخل أوجاعهنّ مجدّدا.

توجّهت بسيارتها ولم تتوقّف، قادها غبريال بهلوساته إلى مكان عالٍ في أحد الجبال، كان المكان الذي قصداه قفرًا من اي وجود للبشر، يعلوه كوخ قديم

محفوف بالأشجار، لا أحد يعيش فيه، ربّما غادرته الأقدام منذ اندلاع الثّورة التّحريرية أو العشريّة الدّموية.
تقدّمت إلى داخل الكوخ ومعها غبريال مبتسما، تحرّكت بداخله وكان فارغا تماما، لا شيء فيه، كان يحكي قصّة حياة، كان يبدو جرحًا كبيرًا في قصّة حزينة من بيت قد سكن من قبل.
تأمّلت غبريال باستغراب ثمّ تساءلت: - هنا تريدنا أن نبقى يا غبريال؟ -،
فأجاب: - نعم، هنا عزيزتي ماريا -.
-- ولكن لا شيء هنا! فلا يوجد حتّى سرير لننام،لا توجد كهرباء ولا بطّانيات، لا شيء على الإطلاق -
فابتسم غبريال و قال لها: - نعم، وهذا ما تحتاجينه يا ماريا، أنت تحتاجين الفراغ والكثير من الفراغ لترميم نفسك داخليا، وليس هناك أحسن من أن يعود الإنسان إلى أصله، إلى الطّبيعة ليقوم بإعادة بناء نفسه ... تعالي يا ماريا، أريد أن أريك شيئا -.
وذهبت ماريا مع هلوستها إلى بحيرة جميلة أمام الغابة، وكان ضياء الصباح قد بدأ يظهر للعيان.
ما أجمل ذلك المكان، ما أجمل الطبيعة، ما أجمل الهدوء، ما أجمل الصّمت، كلّ شيء هناك كان جميلًا جدّا لدرجة جعلت ماريا تجسّ على ركبتيها وهي ترى الشّمس تخرج بين قمم الجبال مودّعة ليلها الحالك تقطّع بأنوارها غيوم فصل الشّتاء، قال لها غبريال: - أنت كتلك الشمس يا ماريا، ستنيرين يوما ما وستنتصرين على الظّلام الحالك، وستقطّعين المصائب كما تقطّع الشّمس الجبال تلك، وستمرّ أنوار سعادتك في قلوب من حولك كما قطعت أشعّتها الغيوم الشتوية ...-، - ومتى ذلك يا غبريال؟ - سألت ماريا.
-عندما تؤمنين بالشّمس التّي بداخلك، هل تشمّين رائحة التّراب المبلّل هنا؟ إنّ تلك الرائحة التي نعشقها هي رائحة العودة؟ رائحة البعث؟ ابعثي نفسك

يا ماريا من جديد، افتحي صدرك لهواء الحياة، اجعلي من ذاكرتك سلالم تقودك للنّصر لا سلالم نحو الفشل -.
بقيت ماريا في المروج تلك تصارع ذاتها، كل يوم تنام في العراء وتقضي أيامها في الطبيعة، ولم يكن هنا سوى الغبريال يساعدها على اختيار النّباتات والفطريّات التي كانت تطبخها على النار.
لقد كانت تمضي فعلا أيّاما طبيعيّة في مكان من الغريب جدا أن لا يكون فيه إنسان واحد؛ مكان مهجور كهذا كان يجب أن يكون مليئًا بالزّائرين الباحثين عن السكينة، ولكنّ مفهوم الجمال قد تغيّر لدى البشر، ولم يعد أحد يعي الجمال الحقيقيّ، ما من معنى في ذاكرة، ووعي الشّعب المحنّط ذاك المقموع من طرف نفسه سوى القبح، وكذلك تغيّرت المفاهيم والمصطلحات.
لقد كان سي حكيم يتّصل بها دائما راجيًا منها العودة، إلّا أنّها كانت ترفض ذلك وتؤجّل ذلك إلى أجل آخر، لم تكن تتكلّم معه بنبرة حقد، ولكنّها كانت تتحدّث معه بنبرة شخص ذاكرته مليئة جدّا، لدرجة أنّها غير كافية لتحمّل الجديد والمزيد.
كان غبريال هو المعلّم هنا، يجعل ماريا تنافس نفسها من أجل إصلاح ساحة شعورها، واستنفار لاشعورها في طاقات إبداعية تكفي لترميم جبل الرّوح بداخلها، وجعلها تندمج مع الطبيعة.
غبريال: انبطحي ماريا على الأرض، افرشي نفسك كما تفعل السحالي وهي تناجي الشمس، وكما تفعل الهرّة وهي تفرك الحياة على الأرض، كوني جزءا من هذا المكان واللامكان، وتخيّلي نفسك وبشكل كلّيّ مندمجة مع تلك النباتات من حولك كأنّها أعضاؤك، مدّي أعصابك لتمتدّ مع جذورها؛ هل تشعرين بالريح من حولك ماريا؟ هل تتحسّين قطرات النّدى تعلو أغصانك ماريا؟ إنّها أمّنا الطبيعة ترحب بك من جديد..
الآن يا ماريا، شهيق هادئ قد يكفيك لتتذكّري كلّ الأحداث المؤلمة في حياتك،

الآن احبسي نفسك قدر المستطاع، اطلبي في قلبك من أمّنا الطبيعة أن تمحوها من ذاكرتك، وأخرجي كلّ ذكرياتك المؤلمة من حياتك، كما تخرجين الهواء من رئتيك.

حاولي الآن أن تستمعي إلى الصّمت الموجود في الطبيعة، ابحثي عن السّكينة بين كلّ تلك الضّجة الفوقيّة، بين حفيف الأشجار وزقزقة العصافير، بين هديل اليمام ودبيب الخنافس العمياء على هذا المرج النديّ، هل تشعرين الآن بالصّمت؟ الآن، ابحثي عن الصّمت بداخلك، ابحثي عن اللّاشيء، ابحثي عن الهدوء، ابحثي عن العدم؛ اللاصوت داخل جسدك، لا تفكّري في شيء نهائيّا سوى ذلك الصمت الذي يبدو متخفّيا بيد دقّات قلبك وغدير الدّورة الدّموية في عروقك، وطقطقة العظام.

امسكي الآن الصّمت الخارجيّ بيد، والصمت الداخليّ بيد أخرى وأوصليهما ببعض.

كانت ماريا تندمج مع كلّ حرف من هلوستها، وتنفّذ أوامرها بابتسامة شاردة فوق جثّة وجهها، وكأنّها تناشد الفراغ بالتوغّل أكثر فيها، كانت تلك أوّل مرّة تصغي فيها ماريا لوجدانها بكلّ انتباه، لقد عادت لنفسها والتمست لحظات انصياع لذاتيّتها.

واصل غبريال محدّثا ماريا لتغوص في تجربة لم تجرّبها من قبل: - الآن، أعصابك هي جذور النباتات، وعقلك هو ذكريات الطبيعة، الآن، أنت الرّوح في كلّ كائن حي، وأنت بجسدك صرت الآن في الكلّ -.

- حاولي ماريا الآن أن تتنكّري لاستقلاليّة جسدك، تنكّري لهذا نهائيّا، أنت الآن الطّبيعة والطبيعة أنت..-

- واصلي ماريا أكثر وأكثر، جدّفي بمخيالك إلى بوّابة الزمكان، اتركي تلك الخيوط البرّاقة في العالم الأبيض أمامك تلامسك -.

ابتسمت ماريا وكأنّها تقترب من الضحك فقال لها غبريال: - أنت تشعرين

بدغدغة في أصابع يديك ورجليك، لا بأس بذلك، تلك الخيوط ترحّب بك فقط، هل تسمعين تلك الأصوات التي تبدو كالصدى في عالم فارغ؟ إنّها أصوات كلّ من يندمج الآن مع الطّبيعة في كلّ العالم .. الآلاف الآن يقومون بنفس التّجربة، لكن لا يمكنك التّعرف عليهم، انت تتصلين بهم عن طريق الوحدة الطبيعيّة.

- ضعي يديك على الباب، ستتعرّف الأمّ الكبرى عليك، لا تحاولي مشاهدتها لأنّك في الحقيقة جزء منها -.

- الآن فتح لك الباب، ربّما ستتفاجئين، فلا يوجد شيء، أنت في فراغ تامّ، لا يوجد صوت على الإطلاق، لا حركة، لا جاذبية، أنت ترتفعين في العدم ولا تشعرين بذلك، أنت تشعرين الآن أنّك ثابتة في مكانك رغم ارتفاعك، لا عليك الآن عليك أن تعرفي كلمة السّر لكي تدخلي الكون..-

- ابحثي عن كلمة السر في داخلك، إنّها أوّل كلمة قيلت لك في خيالك قبل أن تولدي، أمّنا الطبيعة بحثت عنك هي الأخرى مثلما تبحثين أنت عن ابنك -.

- هل وجدت كلمة السرّ؟ إن لم تجديها فقولي بداخلك إنّ كلمة السرّ لا توجد، نعم، الآن فزت بثقة الأمّ الكبرى، لا توجد كلمة سرّ لتدخلي الكون، الصّدق هو كلمة السّر -.

- شعاع كبير يبدأ من قدميك الآن، وسيغيّر كلّ شيء من حولك، لا تخافي، أنت الآن بداخل الذّرة، هل رأيت ذلك الشّيء الذي يتحرك هناك ويختفي ويظهر أحيانا مرتين وأحيانا ثلاث مرات في أماكن مختلفة في آن واحد وأحيانا أكثر؟ ذلك هو البداية و سرّ كل شيء -.

كانت ماريا في ذلك الوقت تصدر أنينا، وكأنّ روحها تتوضّأ استعدادا للصلاة، أكمل غبريال في تلك الأثناء رسم لوحته: - الآن غوصي إلى عالم أكبر، اركبي الكون، هل رأيت تلك المجرّات المشعّة والكواكب اللمّاعة والبراقة؟ أنت من هناك، كلّ جزء فيك يا ماريا صنع في مكان ما في تلك النجوم -.

- هل رأيت تلك الشّمس الكبيرة التي يتدفّق منها الحبّ والطّاقة إلى تلك

الكواكب من حولها؟ انظري إليها فهي أشبه بشمسنا، وفي تلك الشّمس صنع عقلك يا ماريا، كينونتك بدأت هنا يوما ما، أنت تنتمين إلى هنا -.
- الآن يا ماريا قد وجدت الشّمس التي بداخلك، احمليها، ضعيها في جيبك .. .الان استأذني أمّنا الطبيعة لتغادري، ستفتح لك الباب من جديد، غادري الآن وحاولي أن لا تصدري صوتا حتى لا توقظي الخيوط، امشي ببطء، وابتعدي عن تلك الخيوط، عودي إلى ذاتك رويدا رويدا، اتركي أعصابك تعود إليك، اتركيها تنفلت من أعصاب الأرض رويدا، فلتجعلي أعصاب عينيك آخر عصب يستقلّ عنها -.
- فكّي الوصل بين الصّمت الداخليّ والخارجي، أنت الآن وحيدة و لكنك ايضا واحدة وكأنّك تسبحين فوق بحر كبير و فوق محيط أكبر فلا تخافي، اندمجي قبل أن تفتحي عينيك، تلك متعة اللّحظة الأخيرة بعد الاندماج -.
- الآن، افتحي عينيك ماريا، لقد عدت الآن كائنًا مستقلّا، فأهلا بك من جديد -.
فتحت ماريا عينيها بصعوبة وراحت تبحث في كلّ مكان عن شيء لا تعرف ما هو، ثمّ وضعت يدها في جيبها تبحث عن الشّمس التي التقطتها، لكنّها لم تجد شيئا، وقف غبريال أمامها وقال لها: - اهدئي يا ماريا، لم تذهب الشّمس إلى أيّ مكان، أنت هي الشّمس تلك، الآن عليك أن تنيري من جديد -.
ردّت بصعوبة وفي عينيها دموع محبوسة، فيما التصقت بعض الخصل من شعرها على وجهها الذي اكتساه العرق رغم برودة المكان: - شكرًا غبريال -.
لقد استعادت ماريا الآن شعورًا آخر هو الشكر والامتنان، فكلّ تلك المشاعر التي كانت مخبّأة بداخلها أصبحت تسترجعها الآن شيئا فشيئا، فشكرا لهلوساتها، فهي الآن قد أصبحت تعلم شعور المجانين، والذين رغم كلّ المآسي التي حولهم يبدون دائما سعداء ومبتسمين.
الاندماج في أمّنا الطبيعة كان أحلى تجربة مرّت في حياة ماريا بالتأكيد، فهي لم تجرّب أبدًا الخروج من ذاتها، والسّماح لنفسها أن تصبح جزءا متّصلا مع الكلّ

وأن تتعرف على أسرارها بتلك الرهبانيّة المفعمة بالنّور والقداسة الواضحة، لقد كرّرت تلك التّجربة مرارا وتكرارا بصحبة الهلوسة الغبريالية، وكانت كلّ مرة ترى أسرارا جديدة عن نفسها وعن معنى الحياة، وقد تيقّنت أكثر من أيّ وقت آخر أنّ الإنسان بشرّه وخيره جزء من هذا الكلّ العظيم، وأنّ مغتصبها مثلا هو جزء منها وهي جزء منه، وأنّ ابنها المغادر ليس بعيدا عنها، فهو في مكان ما يمارس استقلاله المؤقّت عن الطبيعة، أو اندماجه الكلّيّ معها سواء كان حيّا أو ميتا، وأنّ بممارستها الاندماج مع الطبيعة تكون أكثر من أيّ وقت آخر أقرب لابنها من حبل الوريد.

لقد أقدمت ماريا على الجنون بصدر رحب، لا لشيء إلّا لتجد ابنها، وكانت كلّ يوم وكلّ ليلة تمارس الاندماج، لا لشيء إلّا لتسأل أمّنا الطبيعة عن مكانه، وكانت كلّ مرّة تجيب الطّبيعة أنّه لا يزال مستقلّا، أي إنّه لايزال حيّا بلغتنا البشرية.

واصلت بحثها لأيّام إلى أن جاءها اتصال من طرف سي حكيم: - ألو، ماريا.

ماري: ألو نعم، ما بك؟ ماذا تحتاج ؟

لقد توفّى أبوك يا ماريا

ردّت عليه بانفعال: كيف توفّى

للوهلة الأولى كانت تظنّ ماريا أنّ أباها المتوفّى هو أبوها الحقيقيّ، ولكنّها استرجعت وعيها وعلمت بأنّ من يخبرها عنه ما هو إلّا فصل من المسرحية التي كانا قد اتّفقا عليها، وكانت تبدو جاهزة للتّنفيذ بعد مدّة أطول من المتّفق عليه منذ البداية.

ردّت ماريا بسرعة: - نعم، نعم، سآتي بعد قليل -.

ردّ سي حكيم: - هل تريدين أن آتي لإحضارك، فقط أخبريني أين أنت؟ - قفرا

ردّت ماريا: - لا عليك، أنا قادمة -.

أقفلت ماريا الهاتف ووقفت عند البحيرة تتأمّل المكان لآخر مرّة ونادت غبريال ليعودا من جديد إلى القصر.

حملت ماريا من جديد حقائبها وركبت سيّارتها، وركب غبريال معها بعد أن جعلها إنسانًا من جديد، وجعلها تتناسى المجتمع بالتّفكير في الوحدة الطبيعيّة للكائنات.

كان غبريال يلاحظها بصمت، يرى فيها الاختلاف العظيم الذي أصبحت عليه، وكانت الابتسامة ترسم على ثغرها لوحة جميلة كلماتها سعادة النقاء. إنّه صفاء الرّوح، ذلك النّور الخافت الذي يمحو كلّ الظّلام الذي بداخلنا ويمنحنا إكسيرًا جديدا للحياة، إنّها الحقيقة التي قد نموت لنكتشفها أو نحيا لنتمرّد عليها، أو لنبحث عنها في مكان ما بعيدا عن الحياة.

دخلت بسيارتها القصر، وراح الكلّ يعزّيها؛ من الحرّاس إلى الخدم، ثمّ وجدت أمّ حكيم تنتظرها في القصر حيث أخبرها سي حكيم أنّها قد غادرته بسبب وفاة أبيها إذ لم تتحمل الصدمة، وقفت أمّ حكيم وقالت لماريا: - تعالي إلى حضني يا ابنتي تعالي -.

وصبّت جسدها تعانق به ماريا التي غلب عليها الضّحك وأصبحت تضحك بصوت عالٍ كالمجانين، لم تستغرب أمّ حكيم، ولا أحد من الحضور استغرب ضحكها، لقد كانوا يظنّون ذلك الذي يحدث معها إنّما يحدث من هول الصدمة، راحت أمّ حكيم تبكي شفقة على ماريا، وطلبت من الخدم أن يسندوها إلى فراشها وأن يهتمّوا بها وبمتطلّباتها، لقد أقيمت الجنازة التمثيلية يوما قبل قدوم ماريا، لذا فإنّها لم تجبر على تقديم شيء ما، وأمّ حكيم قد قررت أن تبقى في قصر ابنها لتساعد ماريا على اجتياز محنتها.

ماريا كانت تحادث غبريال أحيانا في الغرفة، وكانت تمارس حركات كانت تجعل منها تبدو مجنونة أمام الكلّ، وقد لاحظت أمّ حكيم ذلك أيضا، حيث أصبحت تراقبها بين الفينة والأخرى، لقد كانت ماريا تبدو وهي تحادث غبريال أنّها مجنونة، فهي الوحيدة التي كان بإمكانها أن تراه، إذ لم يكن سوى هلوسة بالنسبة لها، لقد شعرت أمّ حكيم فعلا بالشّفقة، وأرادت أن تقوم بأيّ شيء

لإنقاذها، لقد كانت تلك المرأة فعلا طيبة ولم يكن لها من أداة لإنقاذها سوى من الزّاوية التي ترى من خلالها الحقيقة، إنّها الزاوية الدينيّة المغلقة التي لا تعرف عنها سوى تلك المظاهر الدينيّة التي تعوّدت عليها في حياتها اليومية، والتي لم يكن لها أيّ معلومة معمّقة حولها.

راحت لابنها بكل هدوء والدموع تنهمر من عينيها شفقة على ماريا، أو مريم العدرا كما تعرفها هي بالاسم وقالت له: - حكيم، أظنّ أنّ مريم قد تجنّ إن بقيت على هذه الحال، إن لم نقل إنّها جنّت بالفعل، صدمة وفاة أبيها قد أثّرت فعلا عليها، إنّها تتكلم مع نفسها وتضحك وتمارس حركات غريبة، أظنّ أنّ جنّيا ما قد أصابها، وأظنّ أنّ اسمه غبريال، سمعتها تناديه بهذا الاسم، عليك أن ترقيها يا ابني، إنّها زوجتك، اقرأ عليها بعض القرآن لكي نطرد منها ذلك الكائن الشّرير من داخلها -.

وافق سي حكيم على قراءة القرآن على زوجته ماريا التي أهداها منذ وقت قريب لأحد أصدقائه ليمارس عليها الجنس، تمّ الإتيان بماريا وطلب منها أن تغمض عينيها من أجل أن يقرأ عليها بعض القرآن، وراح سي حكيم يتلو آيات منه ويتكلم مع ماريا على أساس أنّه يطرد الجن منها، ماريا التي لم تكن متديّنة لم تكن تشعر بشيء على الإطلاق، لذا فقد كانت تلعب بأصابع رجليها لكي تمضي تلك اللحظات بسرعة، لأنها كانت بالفعل تمثّل لها نوعا من الملل الحادّ.

في تلك اللحظات التي كان فيها سي حكيم يتلو القرآن كان الكلّ ينظر لأصابع ماريا وهي تتحرك وهو يبدي القليل من الخوف، تحرّك أصابع ماريا كان دليلا على وجود جنّي يسكن جسدها حسبهم.

أكمل سي حكيم العاهرة قراءة القرآن، وعند الفراغ من ذلك رشّ الماء عليها وطلب منها أن تشرب القليل منه لمدة أسبوع، أمسكت ماريا القارورة وذهبت إلى غرفتها، ولم تحمل في عقلها لتلك العملية سوى مفهوم عميق لمعنى النّفاق الاجتماعي الذي يعاني منه المجتمع، فأيّ فرد في هذا المجتمع قد يحمل على

وجهه ألف قناع يغيّر بينها وقت يشاء، فهذا حكيم الكذّاب الذي يتلو القرآن بصوت رائع، والزوج الصالح الذي يهدي زوجته للرّجال ليمارسوا عليها شهوتهم، والمحترم الذي يوقّره الجميع، والذي يهوى أن يكون ذليلا أمام صخب الرّجل، والابن البارّ لوالدته التي خدعها، وجعلها تصدّق مسرحية غير حقيقيّة، فقط لكي يزيل الشّبهات من حوله.

ماريا أمضت سنوات مع سي حكيم على نفس الحال وكان غبريال يساعدها كلّ مرّة على اجتياز عقبات حياتها، فوجدانها كان يتحدّث إليها من خلاله، ووجدانها هو رسالة الطبيعة.

بالرّغم من كلّ المال والبذخ الذي كانت تعيشه ماريا، والذي أبدًا لم يكن ليجعلها سعيدة لولا تدخّل غبريال على الخطّ وما علّمها من أسرار لتصبح أحد أسعد نساء العالم.

كلّ إنسان وله مكان خاصّ يجد فيه أمله وراحته، والمكان الخاصّ بماريا كان الهلوسة، نعم، الهلوسة التي استطاعت أن تحملها من عالم إلى عالم آخر، وجعلتها تسافر إلى أعالي الأكوان مرّات عديدة وأن تجمع الشّموس، وتضعها في جيبها الصّغير لتنير حياتها، وتشعل بها قنديل رحمة لتبحث به عن ابنها الضّائع والذي أقسمت على حياته الطبيعة وما فيها.

لقد كانت تلك الهلوسة الجميلة باسم غبريال تتمدد في حياة ماريا، وتتوسع إلى أن سيطرت عليها كليّا وأصبحت لا تقوم بأيّ فعل إلّا باستشارتها.

إنّ هذا الاستعمار الذّاتيّ مكّن ماريا من ملاقاة أحلامها ومشاعرها الإنسانيّة من جديد، ولولاها لما وصلت ماريا أبدًا لذلك الوعي الذّاتيّ والاندماج الطبيعي الذي وصلت اليه الآن، والذي جعلها تدور بظهرها للمجتمع وترمي بنفسها في أحضان الحقيقة الوجودية الكونية.

الحقيقة التي مفادها أنّ كلّ كائن حيّ هو جزء من دورة الطبيعة، وأنّ الكون وما فيه هو كمّ واحد، متّصل كالأرقام، لانهائيّ، ولكنّه ينطلق من بداية؛ البداية

التي هي لحن الأمل وعنوان السّعادة وقوّة القوّة وشجاعة الشّجاعة، لكلٍّ فينا بداية، وبدايتنا هي اللّانهاية الكونيّة الطبيعيّة، وكلّنا جزء من الكلّ الذي هو كلّ كواحد، بل هو واحد، هو نحن، هو الأمّ الكبرى.

الحياة هي استقلالية الجزء مؤقّتا، والموت هو عودة الجزء إلى الكلّ، أبدا أو زمنًا، تلك هي الحقيقة التي أرادت الطّبيعة أن توصلها إلى ماريا عن طريق هلوسة غبريال، وقد فهمت ماريا مضمونها، وعن طريقها محت سطورا من مكبوتاتها وأحقادها لتبدأ من جديد كإنسان لانهائيّ؛ لا يموت بموتها ولا يحيا بحياتها، بل يعيش بمعاناته وآلامه بسعادة كونيّة هادفة غير تائهة كما كانت من قبل، وأنّ الإنسان لَهُو لسان الحقيقة الأبكم ورسول نفسه الثّرثار، وأنّ نفس الإنسان كذب، فلا استقلالية كونية له، بل هي استقلالية قرار فقط، أمّا الحياة التي تدبّ فيه فهي مرتبطة بكلّ حيّ وجماد في الكون، ولكنّ الإنسان يكتم حقيقة ذاته سرًّا فينساها، فتغلب عليه الأنانية فيظنّ نفسه منفصلًا عن الكمّ المتّصل، فيغدو شرّيرا مضرّا بالآخرين، وبمجرّد أن يتذكّر حقيقته الطبيعيّة يعود من جديد إلى طيبته وحياته التّضامنية التّشاركية مع الآخر الحيّ والآخر الجماد من أجل الكلّ؛ من أجل الأمّ الطبيعة.

مرّت السنوات ومازالت ماريا على نفس الحال، بين زوج يهوى الرّجال الأقوياء الذين يذلّونه، وبين هلوسة غبريالية تعلّمها أسرار الكون والطّبيعة والحياة، بالإضافة إلى الكثير من المال ترميه هنا وهناك، وأمّ حكيم التي أصبحت تظنّ أنّ ابنها عقيم لا ينجب، والتي رغم حزنها بذلك كانت جدّ ممتنّة لماريا التي حسبتها كانت صبورة مع ابنها، ومضحّية من أجله لأنه لا ينجب الأطفال.

قلّت الأحداث في حياة ماريا، ولم تمرّ تلك السنوات إلّا كسجن ذهبيّ خانق، وكمدرسة سريّة من الهلوسة والجنون، وما كان إلّا خبر صاعق يسقط على مسامع العائلة الكبيرة: - السي حكيم توفي مقتولا في بيته بينما هي كانت تبيت لوحدها في إحدى بيوتها بوسط المدينة بالجزائر العاصمة ..-

لقد كانت ماريا تعلم بكلّ تأكيد أنّ سي حكيم لم يتمّ اغتياله، بل قد قتل على يد أحد معذّبيه الذين كان يمارس معهم طقوسه الغامضة في الجنس، لكنّها لم ترد إخبار الشّرطة بذلك، فإن مات الآن فقد مات وأمّا أن تفضح حقيقته فربّما سيموت لعشرات المرات، لم يكن هذا خبرًا يحتاج منها أن تقوله، خاصّة وأنّ تلك الأمّ الطّيبة التي أصبحت تبدو طاعنة في السّن لا تستحقّ أن تُحتقر لأجل ابنها، ولا تستحقّ فضيحة كتلك، لذلك قررت ماريا أن تقف إلى جانبها في أيّامها تلك بكلّ صدق، مما جعل من أمّ حكيم تقف هي الأخرى معها أثناء توزيع الميراث، فقد أعطت بقوّتها وجبروتها وكلماتها المسموعة كلّ ميراث ابنها من أملاكه لماريا، فتحوّلت تلك الفتاة المعدمة التي قدمت من الرّيف وليس على جسدها سوى عباءة سوداء وحذاء رجاليّ كبير المقاس إلى مليونيرة وسيّدة أعمال تمتلك ثروة كبيرة من العقّارات والفنادق وأرصدة ماليّة خارج البلاد، ولكن، هل يفيد المال مَن حاجته لم تكن المال؟.

تركت ماريا أملاكها تعمل باستقلالية، فليست تلك الفكرة التي تشغل بالها والتي ألح بها غابريال، لهذا وظّفت لديها محاسبين، وكانت أحيانا تزور أملاكها لكي تتفقّد العمل والأرباح، ومع الوقت اكتسبت خبرة في إدارة المال، ممّا مكّنها من تسيير ثروتها وتوسيع مشاريعها في عدّة مجالات، خاصّة العقارية منها، أمّا ما كان يهمّها حقّا فهو ما كان غبريال يلحّ عليها به؛ فتح ملاجئ لليتامى من مالها، وهي الفكرة التي أحبّتها ماريا، ولكنّها لم تجد الوقت الكافي لفعل ذلك، إلى أن قرّرت بحزم أن تبدأ المشروع.

لقد بنت في البداية دارًا واحدةً لليتامى، ولكنّها بنت فيما بعد دارين آخرين فأصبحت الدُّور ثلاثة، وقد كانت تدعمها ماليا، وتستقبل عشرات اليتامى سنويّا تتكفّل بهم من كلّ الجوانب، إلّا أنّها لم تكن تزرهم، ليس لضيق الوقت، أو تكبّرًا عليهم، بل لأنها كانت تخاف أن تشتاق إلى ابنها الذي يبدو أنّه الآن في سنّ المراهقة، كون ماريا أصبحت في الثلاثين بيولوجيا، وفي سنّ الرابعة والثلاثون على

الأوراق الرّسمية.
لم تنس ماريا بعد كلّ هذه المدة الطويلة ابنها، وما كانت تقوم به من مشاريع وأعمال كانت تقوم به في حقيقة الأمر لأجله، وكونها منذ مدّة طويلة وهي جزء من الطبيعة الأمّ، وهي الآن على علم أكيد أنّ قلب ابنها مازال ينبض في مكان ما، فقد أصبحت تسمعه بطلاقة في أذنها كلّما أرادت ذلك وأذن لها غبريال.
كانت تسمعه وهو ينبض بسرعة، وكانت تتخيله يمارس الرّياضة، وأحيانا كان النّبض هادئا فتتخيّله نائما أو مستلقيا، كانت اللّحظات التي تستمع فيها إلى نبض قلب ابنها وهو يمتزج بنبض قلبها بجوفها أسعد اللّحظات حتى أصبحت روتينًا مقدّسا في هلوسات ماريا الذي يجب أن تقوم به كلّ يوم كالصّلاة.
لم يفلس حلم ماريا بعد، وهو كلّ يوم يتصاعد إلى الذّروة، إلى الكون، ويحلّق بين المجرّات، ليعود فيرتطم بالواقع وبالأمل في آن واحد، فلا هو يندثر ولا هو يتحقق.
لقد كان غبريال سعيدا جدّا بماريا وما أصبحت عليه، أو هذا ما كان يبدو عليه، وكان يقول لها إنّ الخير الذي يقوم به الإنسان يعود إليه من جديد، لأنّنا كلّما قابلنا الطبيعة بإيجابية أكثر كلما ردّت لنا الجميل، إنّه امتحان الخير والشرّ.
أمسك غبريال ورقة وقلمًا، ووضعها على الطّاولة ونادى ماريا: - تعالي ماريا، أريدك أن تجلسي وتكتبي رسالة اشتياق لابنك، ولكن اكتبيها وكأنّه حبيبك -.
ماريا : ولكن لماذا؟
غبريال: لأني أريدك أن تفعلي ذلك.
ماريا: حسنًا، سأفعل ذلك.
غبريال: سأتركك الآن إذن، وبعد أن تكملي كتابتها سأعود للظّهور من جديد.
أمسكت ماريا القلم وراحت تخطّ على الورقة كلمات خفيفة من المداد، كبيرة بالشعور - إلى حبيبي الضائع، في محطّة ميترو الجزائر وسط، اليوم انتظرتك عندما كانت تشير الساعة إلى الثانية عشر، انتظرتك زمنا طويلا، ربّما أنت لا

تدري ذلك، ولكنّني انتظرتك قبل أن يشيّد الميترو، والذي أصبح علامة فارقة في جرح الذاكرة. حبيبي لقد اشتقت إليك كثيرًا لأنّي لم أعانقك أبدًا، فقد تلفّظت آخر أنفاس الاشتياق منذ سنوات طويلة، ولم أعد أمتلك من الطاقة اللازمة لأتنفّس بعيدا عنك أكثر، فهل تستجيب اشتياقي وتجعلني أتنفس؟ حبيبي الضّائع الذي لا أعرف أين هو، وهو لا يعرفني، لقد قضيت حياتي أبحث عنك في كلّ مكان، وقد عانيت طويلا لأجلك وملاقاتك لأجَل غير مسمّى، ولا يزال الأمل ينير بصيرتي إليك... حبيبتك الضائعة ماريا.-

ثمّ نادت غبريال بعدما فرغت من كتابة رسالتها: - غبريال أين أنت؟ لقد أنهيت الرّسالة -.

ظهر غبريال مقلوبا رأسا على عقب، ممّا جعل ماريا تقهقه ضاحكة من الموقف ذاك، ثمّ عاد غبريال إلى وضعيته العاديّة ، وقال لها:

- قد أفعل أيّ شيء لأراك تضحكين، الآن بعد أن كتبت الرسالة يا ماريا، اكتبي تاريخ اليوم وضعيها غدا في صندوق البريد بلا عنوان، اكتبي فقط في الرسالة: إلى حبيبي، واكتبي عنوان البيت الصّغير الذي تمتلكينه في شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة -.

ماريا: - ولكن، ما الجدوى من هذا؟ من سيقرأها إن كانت الرسالة بلا عنوان؟-

فأجاب غبريال: - ما بك يا ماريا؟ هل تظنّين أنّ الفضول انتهى في العالم؟ -

فأجابت ماريا: - حسنا، لك ما طلبت -.

فرد غبريال: - ولديّ طلب آخر ماريا، علينا أن نغادر إلى ذلك البيت بديدوش مراد -.

وما كان من ماريا إلّا أن تطبّق ما كانت تطلبه منها هلوساتها بكلّ إيمان و اتّباع وانقياد، فقد أصبحت تلك الهلوسات بمثابة شيء يعلو الواقع ولا يبعد عنه، فقد فهمت ماريا الهلوسات أكثر من أيّ واقع آخر.

نفّذت ماريا ما طلبه منها غبريال في اليوم الموالي، وغادرت بصحبته إلى شقّتها

بشارع ديدوش مراد، وبقيت هناك أسبوعًا وبضعة أيام، إلى أن وجدت رسالة في صندوق الرّسائل أسفل العمارة.

فتحتها ماريا بسرعة ومعها غبريال يحدّق ويبتسم، وراحت تقرأها:

- عزيزتي ماريا، أنا لا أعرفك ولا أعرف حبيبك، ولكن أشعر من خلال رسالتك تلك أنّ لك قلبا كبيرا، ومشاعر محطّمة، أردت أن أرسل لك هذه الرّسالة لأشكرك، لأنّي كنت في حالة سيئة مع حبيبي، وعندما قرأت رسالتك ألهمتني ووضعت نفسي مكانك، وقرّرت أن أسامح حبيبي حتى لا يضيع مني هو الآخر.. شكرًا لك عزيزتي ماريا لإنقاذك حياتي العاطفيّة، أتمنّى من كلّ قلبي أن تجدي حبيبك في أقرب وقت ممكن -.

بعد أن قرأتها ماريا قالت لغبريال: - لم أتوقّع أن يكون هذا هو الرد، الظّاهر أنها عاشقة عثرت على الرسالة فردّت علي!. -، فأجاب غبريال: - لكي نعرف ذلك يجب علينا أن نرسل رسالة أخرى، اكتبي رسالة أخرى يا ماريا، وأرسليها إلى نفس العنوان الظاهر بالرسالة تلك -.

فكتبت ماريا:

- عزيزي أو عزيزتي، أنا لا أعرف اسمك، ولكنّني أشكرك كلّ الشّكر لأنّك اخترت أن ترسل لي جوابا على رسالتي الهائمة في زمن قلّ فيه استخدام الرّسائل .. أنا اسمي ماريا، وأنا أعيش وحدي، لا أصدقاء لي ولا أحبّاء، أتمنّى أن أتعرّف عليك، وأن نصبح أصدقاء إن كنت تريد ذلك طبعا.. مع فائق الاحترام، ماريا -.

وقامت ماريا بإرسالها، وبعدها سالت غبريال: - هل تظنّ أن الأمر سينفع؟ فقال لها غبريال بكلّ هدوء: - يا ماريا، إن الإنسان مبنيّ على أربعة أضلاع : الطبيعة – المجتمع- الزمان - المكان، ومن طبيعتك كإنسان أن تكوني فضوليّة لمعرفة الآخرين، وأن تكون لديك مشاعر وأعصابا، أمّا ضلع المجتمع فهو يعمل جاهدا على نسج تفاصيل شخصيتك كالنّحات، وأمّا الزّمان فهو لكي تفهمي الآن معنى الانتظار والأمل، أمّا المكان الآن فهو يذكّرك بانتماءاتك الثلاثة: الطبيعة

والمجتمع والزمان ، والآن إن سألتني ما معنى هذا فلن أقول لك سوى أنّه من الواجب أن يسعى الإنسان إلى التّغيير في حياته ولو بأمور بسيطة، وهذا أبسط ما يمكنك القيام به -.

فردت ماريا: - إذن تريدني أن يكون لي أصدقاء جدد؟ فاختفى غبريال دون أن يجيبها متلاشيا في ظلام الغرفة، حيث لا يمكن لعينها أن ترى صورته بوضوح، فابتسمت ماريا وقالت: - أنت دائما تفعل هذا يا غبريال، تختفي من دون أن تجيب ...-.

ماريا لم تكن تعي أن هلوساتها كانت تنطق بما تريده هي، لا بما تريد الهلوسة في حدّ ذاتها، فهي في حقيقة الأمر كانت وحيدة جدّا، ومجرّد هلوسة ذكية وعبقرية أمامها لا تفي بالغرض، فهي تريد الآن كائنا حيّا تصاحبه، تتكلم معه بحرية دون خوف من ناس ودون حرج، وما فعله غبريال هو إنقاذٌ لها من أنياب الوحدة.

بعد مدّة من الانتظار وصلت ماريا رسالة أخرى كالسباقة، وبعدما فتحتها بلهفة طفل يفتح علبة شوكولا قرأت : -.. عزيزتي ماريا ...

شكرا لك لإرسالك لي هذه الرسالة، أنا اسمي - ريان - وأعمل كساعي بريد في بريد الجزائر العاصمة، عمري ثلاثة وعشرون سنة، وإن أردت أن نلتقي سأنتظرك آخر خميس من هذا الشهر أمام محطّة الميترو في منتصف النهار، في أودان، أظنّ أنّ المكان قريب جدّا بالنسبة لعنوانك، وأتمنّى أن نصبح أصدقاء مقرّبين،.. صديقك المستقبليّ ريان .-

قرأت ماريا الرّسالة والتفتت لغبريال سائلة عن الخطوة التالية، فطلب منها بكلّ تلقائية أن تلتقي به مثلما طلب منها، وانتظرت ماريا بفارغ الصّبر ذلك اللقاء، فقد كانت متحمّسة جدّا لصداقة جديدة تعطيها دفعا جديدا في حياتها كإنسان، وكان غبريال يساعدها على ذلك.

حضرت نفسها، واختارت سروال جينز أزرق، وكونفرس أحمر ووشاح كشمير

أسود ينقّطه البنفسجيّ ..بالرّغم من سنّها الآن؛ وهي بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين، إلّا أنّها مازالت تبدو مراهقة تماما في مشيتها وتغنّجها وضحكها للاشيء، لأنّها تريد ذلك، وحبّها للملابس والموضة والألوان.

ربّما عجلة الزمن توقّفت في يوم ما في جسدها، فهي لم تعش أبدا الترتيب العاديّ لأطوار الحياة، فهي كانت ولازالت تعيش لحظة واحدة؛ لحظة الولادة ولحظة الخيانة ولحظة البداية اللانهائية.

كانت حياتها تبدو في بعض الشامات على وجهها كبصمات لأحداث أرادتها الطبيعة أن تأخذ ذلك الشكل فيها، بالرغم من أنّها كانت تنظر إليها دائما نظرة تنكّر وتناسٍ ونسيان، إلّا أنّها كانت دائما تذكّرها أيضا أنّها إنسان.

قد يسأل سائل: - لم ذاك؟ -، وقد يردّ مجيب: - لأنّها هكذا العذراء، ماريا التي ليست عذراء، الصادقة ماريا التي كذبت طويلا، ماريا الرومانسية التي لم تحبّ أبدا أن ّحياتها كانت كرحلة أقواس مستقيمة لا تنحني، لا تركع، لا تريد من التناقضات أن يكون لها مضجع، أرادت بكلّ سخاء أن تمنح الوقت بعض الوقت ليكفّر عن ذنبه، وهي الآن تسمح لجنونها أن يربك الزمن، وأن يسترجع حقّها من القدر، ولو بالقوة، ولو بالتحايل، ولو بالذّكاء، بل ولو بالغباء.

بحر من عدم التّوازن الانفعالي كان يصطدم بحقيقتها أحيانا، ويعود أحيانا أخرى خائبا بعد أن تستعيد وعيها بدرس من الجنون المقدّس تلقّنه للحياة من وحي الطّبيعة الملهمة والهلوسة الدّائمة والمشاعر النّائمة والأحشاء المتألمة التي تنتظر بفارغ الصّبر ملاقاة المسيح.

حملت نفسها في آخر خميس من شهر فيفري، ذهبت على الساعة الحادية عشر وانتظرت أمام الميترو ساعي البريد (ريان) لكي يجالسها كصديق من لحم وعظم، لم تكن أبدا طيلة حياتها تشتاق لمعرفة الإنسان الآخر، فقد كانت دائما تواجه المجتمع بنوع من الكبرياء، فالمجتمع وأفراده لم يمثّلوا لها من البداية سوى عدم؛ لم يمثّلوا لها شيئا على الإطلاق، ولكن اليوم، بعد كلّ هذا المشوار

الطّويل من مجالسة الهلوسة تيقّنت أنّه لا سبيل لتحقيق حلم رحمها سوى بالتّواصل مع الكائنات الحيّة لكي تزيد من فرص لقائها وابنها الذي أصبح غاية لها في حياتها منذ أول يوم ولدته فيه.

وقفت هناك وراحت تنظر إلى السّاعة المقلوبة في يدها، ومن فرط القلق لم تقلب الساعة، بل كانت تقلب يدها، أو رأسها لمعرفة الوقت.

انتظرت طويلا، حيث إنّ ساعي البريد لم يصل بعد، الساعة أصبحت تشير إلى الواحدة، ولكنّه لم يأت.

كان غبريال ينتظر معها هو الآخر، ولكن لا أحد كان يراه سواها، و لم تبدي ذلك، حيث إنّها أصبحت تتأقلم معه، وأصبحت تعلم كيف تدرأ هلوساتها عن عيون المجتمع.

همّت بالانصراف، وفي آخر لحظة تفاجأت بصوت رجاليّ رقيق نوعا ما يسالها:

- آسف سيدتي، هل أنت ماريا؟ -

تأمّلته ماريا جيدا لبرهة من الزّمن، ثم تأمّلت غبريال الذي كان يضع يده اليسرى أسفل ذقنه، وشنبه تحركه الرّيح نوعا ما، بالرّغم من عدم وجود الرّيح.

لقد تعجّبت إلى حد ما لذلك الشّاب الذي يبدو جميلا جدّا، وكلّ ما فيه كان يبدو مرسوما، قال لها للمرّة الثانية: - آسف، إذن لست ماريا، وهمّ بالانصراف ..-، فأجابته ماريا: - نعم، نعم، أنا ماريا، إذن أنت ريان ساعي البريد -.

عاد ساعي البريد مبتسما: - نعم، أنا ريان، أنا جدّ سعيد بالتّعرف إليك سيدتي، وأعتذر عن التّأخّر لأنّني وقفت في الجهة الأخرى، ولم أميّز تماما وجودك هنا، لهذا أعتذر -.

بعد هذه الكلمات المقتضبة، لحظات من الصّمت كانت تعمّ اللقاء، وغبريال كان يتبعهما من الخلف دون أن يصدر أيّ صوت، كانت تبدو في نظراته الكثير من الحكمة.

جلس الاثنان في طاولة صغيرة مطلّة على الشارع في كافيتيريا ساحة الأمير عبد

القادر في المقهى في الركن الشمالي، حينها كانت ماريا تسبح في حيائها دون أن تعلم السّبب، جلست هناك وبقيت صامتة، أمّا ريان فقد كان يبدو ثرثارًا يتكلّم كثيرًا.

سألها بنوع من الخجل النّاتج عن اللّقاء الأول: - إذن ما قصة حبيبك؟ ردّت ماريا بخجل: - ليس بأحسن حال، أفضّل أن لا أحكيها الآن، دع الأمور إلى لقاء آخر إن كان هناك لقاء -.

- ولكنّي جئتك اليوم بسبب فضولي لمعرفة القصّة كاملة -، قال ريان ، - لقد شوّقتني، لا تقولي لي إنّك لا تريدين سرد القصّة، سأموت الآن إن لم تفعلي -.

ابتسمت ماريا وقالت: - حسنا، أخبرني قصّتك أنت أوّلا، وسأخبرك قصّتي، ما أخبارك مع حبيبتك؟ -.

فضحك ريان ثم قال لها: - حبيبتي؟! أظنّك تمزحين، لا، لا، ليست حبيبتي بل حبيبي -.

ردّت ماريا وكأنّها لا تعرف شيئا على الإطلاق عن مثل تلك المواضيع، وضعت نظراتها على الطّاولة وكأنها تستنجد بها لكي لا تضحك، ثمّ رفعت بصرها إليه: - حبيبك !! كيف ذلك؟ -.

فأجاب: - نعم، حبيبي، وأنا أحبّه، لقد مرّت سنة لنا ونحن معا، هو صغير في السّن قليلا، ولكنّه طويل ووسيم وذكيّ ومثقّف ورائع، إنّه شابّ مثاليّ، ولكنّه طفل في الوقت نفسه.

فردّت ماريا: - آه، جميل (وفي بالها أنّه كزوجها حكيم في ناحية ما) وأردفت: - أتمنّى لكما حياة سعيدة إذن -.

ماذا عنك ماريا: - أخبريني الآن قصّتك مع حبيبك الضائع؟ -.

كان غبريال جالسًا في ذلك الوقت في الطاولة المقابلة لماريا، وكان يشير لها بعينيه أن لا تخبره القصّة الحقيقيّة، فهمت ماريا ذلك ولفّقت قصّة حبّ من خيالها، وقالت له: - إنّه حبيبي الأوّل والأخير، اسمه كريم، كنّا معًا منذ عشر سنوات، ثمّ

اختفى فجأة ولم أجده، بحثت عنه طويلًا، ولكن لا أخبار عنه، وما زلت وفيّة له إلى الآن، وقد اشتقت له كثيرًا -.

بقي ريان يتأمّلها لبرهة وكأنّه يبحث عن حزن ما في عينيها، ولكنه لم يجد، كانت أفكاره تشعر بأكذوبة تجول في مسامعه، ولكنّه أنكرها وراح يصدّق ماريا، ثمّ أمسكها من يديها وقال لها: - أتمنّى من كلّ قلبي أن تجدي حبيبك الضّائع بسرعة، وأن تخلدي كلّ مساء للنّوم على صدره كما أفعل أنا وحبيبي -.

عادت ماريا لزوجها الميّت سي حكيم، فقالت لريان بكلّ براءة: - هل يعذّبك؟ أم تراك تعذّبه؟ -، لم تكن ماريا تعرف شيئًا عن العلاقات الجنسيّة سوى تلك التي مرّت عليها في حياتها، فالعلاقة الجنسيّة بين رجل وامرأة ما هي إلّا اغتصاب، أمّا العلاقة الجنسية بين رجل ورجل فما هي إلّا تعذيب وذلّ، فالإنسان عادة ينسج معارفه من تجاربه، وخاصة في الجنس.

ردّ عليها ريان بكل براءة هو الآخر: - نعم يعذبني أحيانا، فهو ينام مبكّرا، وأنا أحبّ أن أتّصل به ليلا لمّا لا نكون سويّا، كما أنّي أحيانًا أغار عليه، وهو يُمضي الكثير من الوقت يلعب كرة القدم مع أصدقائه، هو ما يزال صغيرا، عمره سبعة عشر سنة، ولكنّه كجسم وصوت و ثقافة و حنان يبدو أكبر من سنّه -.

قالت له ماريا: - ولكن، هكذا هو تحت السنّ القانونيّ، وهذا ممنوع -.

ردّ عليها ريان: - ليس طفلًا في عقله، ولا في جسده، هو طفل فقط في الأوراق، سأعرّفك به يوما ما، سأكون سعيدا بذلك -.

ماريا: - أتمنّى ذلك، لأرى هذا الطّفل الكبير الذي له قلب كبير، ويحبّك في زمن قلّ إيمان الناس فيه بالحب -.

ريان: - نعم، نعم، أؤكد لك ذلك، أين تسكنين؟ قرأت في رسالتك أنّك لست بعيدة من هنا، أنت تسكنين في شارع ديدوش مراد، أليس كذلك؟ أجابته ماريا: - نعم، هل تريد أن تلقي نظرة على بيتي؟ -.

وافق ريان على ذلك بكلّ سرور، واتّجها صوب بيتها الذي صار يزوره كثيرا فيما

بعد، حتى إنّه أصبح الصديق الوحيد والمقرب لماريا.
لأول مرة، ماريا، منذ أربعة وثلاثين سنة يصبح لديها صديق تشعر اتّجاهه باحترام، فكلّ أولئك البشر الذين مرّوا على حياتها، كانت تكنّ لهم نفحات فقط من اللاشعور، بل هو إحساس بوجود ثانويّ على ساحة الحياة أكثر منه شعور بالآخر الذي يقاسمها الحياة.
ماريا أصبح لديها الآن صديق تمضي معه الوقت، وتشعر من خلاله أنّها على اتصال مع المجتمع، أو بالأحرى، قد قامت بعملية إعادة التّطبيع معه بعد سنوات من النفور، لم يكن فيها للمجتمع أن يحبّ ماريا، ولم يكن فيها لماريا أن تحبّ المجتمع.
ماريا وريان يشبهان بعضهما البعض في تلك الملازمة التي تجعلهما في ثورة وتمرّد دائما ضد أبجديات الحياة التي خطّت من قبل الأجداد وقدّسها المجتمع، لذا فكلاهما وجد في علاقة الصداقة تلك ماخورًا للدعارة الفكرية على ناظر المجتمع كما يراها هذا الأخير.
كان غبريال في تلك الأيام يكتفي بلغة الإشارة لإيصال أفكاره، أو بالأحرى أفكار ماريا الداخلية إليها، وهذا ما كانت تريده ماريا، فهي لم تكن تريد أن تبدو مجنونة أمام صديقها الجديد.
منذ ذلك الوقت، ماريا صاحبة الهلوسات الغبريالية وريان ساعي البريد المثليّ أصبحا صديقين مقربين جدّا، لدرجة أنّهما لا يستطيعان الحياة دون إمساك أحدهما بيد الآخر لمواجهة المجتمع، وماريا، وبعد كلّ تجاربها مع النّفاق الاجتماعي عرفت أنّ الإنسان يمكنه أن يكون ضحيّة للمجتمع دون أن يؤذيه مباشرة بحرمانه حياته العادية بما يتوافق مع طبيعته المورفولوجية والنفسية، لذا فقد احترمت مشاعر ريان المثليّ، وقرّرت أن تسانده في الكثير من الأمور.
هي لم تكن تريد من البداية إخباره بحجم ثروتها، بل تعاملت معه على حجم بسيط لامرأة تعمل وتعيش بشقّة صغيرة، وسيارة جدّ عادية؛ موديل السّنة

الماضية.
ريان كان ثرثارا وغبيّا أحيانا، يتحرّك بسرعة ويحبّ الحلويات كثيرًا وخاصة الأيسكريم، فهو كان يلتهمه بشراهة ولو كان الجوّ باردًا، وأحيانًا كانت تصرّفاته جدّ صبيانية وطفولية، الأمر الذي جعل ماريا تفكّر أكثر من مرّة في طبيعة العلاقة بينه وبين حبيبه، فهو يقول إنّ حبيبه رغم سنّه الصّغير إلّا أنّه يبدو كبيرا، أمّا ماريا الآن فقد أصبحت ترى العكس، فربّما ريان هو الذي بقي طفلا ولم يكبر، لكن في كل الأحوال هناك انسجام واضح بين هذا الثنائيّ حسب سرد ريان لقصّته مع حبيبه.
تناولت ماريا رفقته أجمل اللّحظات، وعادت بسنّها إلى الوراء وقد جاء اليوم الذي أراد فيه أن يعرّفها على حبيبه الذي كان اسمه - إسحاق - وينادونه أصدقائه - ميميحا -.
لم تفهم ماريا معنى كلمة ميميحا، ولكن يبدو فيها إسحاق يعيش حالة من الانسجام مع المجتمع الذي وجد له كنية جديدة لتتلاءم مع شخصيته، ففي الجزائر عادة؛ الأسماء لا يتحمّلها المجتمع، فإن أضيف لاسمك كنية ثالثة، فهذا دليل للمساحة الكبيرة من الاهتمام الذي يكنّه لك المجتمع.
في العادة؛ النّاس الذي لهم كنية هدية من المجتمع هم المجانين، وغريبي الأطوار، الأذكياء والنّجباء في الدراسة، والمتفوّقين والمتعلّمين والنّساء المتحرّرات والمثليّين، وعادة ما تأخذ تلك الكلمات نوعا من السّخرية والحطّ من قيمة الآخر، أو قتل الجدّية بإيجاد وسيلة كوميدية تضع على مناخ الصداقات مجالا دائما للضحك.
ماريا لم تتشوّق كثيرًا لمعرفة إسحاق، ولكن كون ريان كان صديقا جيّدا لها، فهذا منحه نوع من الامتياز بإدخال فرد آخر جديد لحياة ماريا.
في اللّيلة التي كانت قبل يوم اللّقاء قرّر غبريال أن يمنح ماريا جلسة جديدة، مدّ يده إلى رأسها وقال لها: - ماريا، امنحيني كينونتك الآن، أريد أن أحملك إلى مكان ما في قلب الوجود -.

ماريا: - ولكن يا غبريال، هل للوجود قلب؟ -.
غبريال: - نعم، وستتعرّفين عليه حين تؤمنين به -.
تسلّم غبريال كينونة ماريا، وحملها في رحلة على متن شعاع أزرق يخطّه الضوء البنفسجي، قال لها: - تنفّسي جيّدا ماريا، سنتقدم الآن إلى داخل حزمة الزمن -، قالت وهي خائفة: - ما هذا يا غبريال؟ -.
فقال لها إنّها اللحظة، سنصطادها هذه المرة، وسنضعها في قارورة زجاجيّة، وسنرميها بعيدا، هي لحظة فارقة تريد أن تسرق منك سعادة عظيمة هذه المرة، ولكنّنا لن نسمح لها بذلك، سنرميها ببحر انعدام الزمن و سنحكم عليها بالإعدام.
-ماريا، الآن سندخل حزمة الزّمن، تمسّكي -.
دخل غبريال ومعه ماريا ساحة الزمن؛ كانت تبدو أنسجة رفيعة برّاقة تنكمش وترتخي، و معها كان غبريال و ماريا ينكمشان و يرتخيان، يزداد طولهما وينقص وكأنّ العالم بالدّاخل يتلوّن بكلّ الألوان، كانت فيه صور الأزمنة، تنطلق بسرعة تشبه الضّوء وفي الأخير تصطدم بصور رقميّة، وتتفتت إلى نقاط كأنها إلكترونية، ثمّ تتحول إلى ضوء آخر وتذهب في الاتجاه المقابل.
قال غبريال لماريا: - نحن هنا الآن في قلب الخرافة، إنها الزّمن الذي دبّ استقراؤه في عقل الإنسان من تواصل الحركة والمكان، إنّه كذبة المادّة وروح البقاء والفناء، إنّها وسيط بين الذّات الواحدة والاستقلالية المؤقّتة، ماريا، هل رأيت تلك النّقطة الخضراء هناك؟ تلك هي اللّحظة الفارقة التي حذّرتك منها، الآن اذهبي إليها واحمليها وضعيها داخل هذه الزجاجة.
اقتربت ماريا من النقطة الخضراء تلك، ووضعتها داخل الزجاجة، وانطلق منها ضوء كبير جعل غبريال وماريا على شاطئ رمليّ برّاق، تتدلّى من سمائه سلالم خشبية إلى غاية سطح البحر، وكانت تنزل منها أرواح بيضاء ورماديّة، وأخرى تصعد؛ إنّها الحياة الجديدة والقديمة، إنّها الاتصال والانفصال.

رمت ماريا القارورة الزّجاجية هناك، ثمّ ارتفع البحر وأمواجه التي كانت تبدو كشاشات تلفيزيون، وبها وجوه كثيرة وأحداث، ثمّ غرقت فيها ماريا وغبريال إلى قاع البحر الذي لم يكن سوى ملعب لكرة القدم من دون لاعبين، وقفت ماريا هناك وسألت غبريال: - أين نحن الآن غابريال؟ -، لم يردّ عليها، راحت تبحث عنه في الملعب، ولكنّها لم تجده، كان الملعب يكبر ويتمدّد إلى ما لانهاية، فراحت تصرخ بأقصى ما لديها من قوّة: - غابريال، غابريال - باحثة عنه حتّى ناداها صوت قويّ: - ماريا، أنت في ملعب الحياة، ومعك الاختيار أن تكوني في جانب الشرّ أو في جانب الخير، في كلّ الأحوال؛ العدالة الطبيعية عنواننا ولا نستحي أن نعلن فشل الخير وانتصار الشرّ أحيانا، لأنّ قلب الطبيعة يا ماريا يخفق دائما للأقوى وللمنتصر.

ثمّ عاد غبريال ثانية، وقال لماريا: - هل تعرفين سلاح الخير لينتصر؟- فأجابت: - لست أدري - ، فقال: - إنه قلب الوجود يا ماريا -.

- و ما قلب الوجود؟ -، قالت ماريا .. - إنّه الحبّ يا ماريا، إنّه الحبّ -.

استيقظت مشاعرها في وقت واحد، ودقّ قلبها وكأنّه يدقّ مسامير في نعشه، ثم قالت: - قلب وجودي بعيد عنّي، فكيف أنتصر؟ -

ثم استيقظت ماريا فوجدت نفسها في فراشها، وكأنها تستيقظ من حالة غيبوبة، وكانت الساعة تشير إلى عشر دقائق قبل موعد اللّقاء مع ريان وحبيبه إسحاق. قامت ماريا مسرعة حتى لا تتأخّر على اللقاء، لبست ملابسها بسرعة من دون أن تختار، فركت أسنانها وخرجت دون أن تهتمّ كثيرا بنفسها متّجهة نحو المقهى لتلتقي بهما.

وقفة في أطلال السماء

فتحت السماء وهبّت رياح السّكوت، لا قدر هنا سوى للموتى، هنا أرض الآلهة الصّماء والعوجاء أحيانا، المجرّدة من مشاعرها المعدمة أصلا من وجودها، والتي تسبح في الفراغ غير آبهة بالربوبيّة تبحث عن نبيّ جديد لم تخلق طينه من قبل نبي مخبّئ في زجاجة عطر يسكبها العاشق على السّرير؛ نبيّ في زرّ يفر من قميص امرأة فاتنة لتبرز أثداؤها كالنّجوم المشعّة؛ نبيّ في رائحة حضن قويّ لرجل يملأه الحنان، ذاك النبيّ الذي لم يخلق بعد في أيّ مكان أو زمان.

السّماء في حقيقة الأمر ليست سقفا أو نهاية، وإنّما هي البداية المخمّرة في الوجود، هي بداية كلّ شيء، هي الجذور التي تخرج من خلالها الحياة إلى الأرض، السّماء ليست ما نراه فوق رؤوسنا، وإنّما هي الشغف الذي بداخلنا، فلكلّ فينا سماء بداخله، تطير فيه إلى ما لا نهاية ليستنشقها روحيّا دون أدنى فكرة من مخيّلته عنها، فجرّب أن تنادي إنسانًا للنظر للسماء، لن ترى إلّا رأسه يعلو فوقه، بينما السّماء بداخله، وبإمكانه فقط النّظر إليها من خلال إنسانيّته وحياته التي تدبّ أوصالها فيه، وإنّما هو ينظر عاليًا، لأنّه في حقيقة الأمر يدفع عينيه للنّظر داخله فلا تستطيع ذلك، فالسّماء موجودة فيه، يعيشها كلّ لحظة ويموت فيها، إذ ليس هناك طريق طويلة بين الإنسان و بين موته، وليس هناك ما هو أقصر من ذلك الدّرب الذي يسلكه الإنسان إلى السّماء بعد موته، فعند ذلك ترحل روحه منه إليه؛ إلى داخله من جديد، لتسكنه أكثر من أيّ وقت مضى، فيكون حيًّا أكثر من قبل وكما لم يكن حيّا أبدا من قبل.

وبين كل سماء و سماء تتوزع على كلّ كائن حيّ بشريّ وغيره نقطة مشتركة ترتبط بينها بالحب، وتلك هي سماء الآلهة، هي سماء ديمقراطية أكثر من أيّ ديمقراطية على الأرض، وهناك يتناوب الرّوائيون على مجلس الآلهة؛ الآلهة التي كلّفت بمقاومة الشّر المطلق الذي يتحكم بالحياة خلسة.

يترأّس مجلس الآلهة كلّ مدة روائيّ أو كاتب غيّر الحياة نحو الأفضل، ووقع الاختيار هذه المرّة على جبران خليل جبران نبيّ الأزمنة.

كانت قضية ماريا حديث مجلس الآلهة الذي لا يزال غابريال غارسيا ماركيز غائبا عنه، فتلك المواطنة الجزائريّة هي نسخة ثانية عن مريم العذراء، تهمّه أكثر من أيّ شخص آخر من الشّخوص تلك، فهو كان يرى فيها شخصًا فارّا من روايته التي لم يكتبها بعد، وكان عليه أن يساعدها بأيّ طريقة كانت.

كان جبران خليل جبران هو الآخر قلقا عليه وقلقا على غبريال كذلك، وخورخي أمادو بدوره يبحث عن طريقة ما ليداوي الجرح العميق الذي يمزّقها.

أما غبريال فلن يتركها أبدًا، فهي من دعته إليها، وهو من حرس ابنها طيلة تلك السّنين، فابنها لايزال حيّا مثلما قال لها، ولكن، يبدو أن الطّريق إليه معقّدة وليست بتلك السّهولة التي كان يتوقّعها.

لذا قرر جبران خليل جبران و معه مجلس الآلهة أن يقصّر الزّمن ويسرّع من خطاه لتلتقي الأمّ بابنها بعد طول انتظار.

أغلق المجلس وبقيت السّماء مفتوحة في كل إنسان تنتظر الحياة باسم المحبّة والعناق.

اندماج الفلاش باك بالنفحة

اتّجهت صوب المقهى وكان يبدو أنّها متأخرة، دخلت المقهى وقد وجدت هناك ريان وإسحاق ممسكين كلّ بيد الآخر، كان ريان يضع رأسه على كتف إسحاق، أمّا إسحاق فقد وضع يده على صدر ريان، كأنّه يتحسّس نبضات قلبه، ذهبت مسرعة صوبهما، فما إن قاربت على الوصول إلى طاولتهما بفارق لحظتين ونصف حتّى تأمّلت إسحاق جيّدا، لقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة للتّرحيب بها، ثمّ وقفت هناك تحبسه في ناظره، لقد كانت تشعر بإحساس غريب تجاهه، كانت دقّات قلبها تخفق بسرعة، ترافقها دقّات أخرى هادئة لا تعرف مكانها، لقد أصابتها قشعريرة طويلة الأمد وكأنها زلزال يقع بداخلها، لقد كان وسيما جدا وطويلا، ورغم سنّه الصّغير إلّا أنّ عضلاته كانت مفتولة، وعيناه زرقاوتان بصبغة التركواز كحجريْ لؤلؤ، لقد كانتا تضفيان على وجهه بحرًا من الجمال السّاحر، وشفتاه الرّطبتان كحبتين من الكرز المحلىّ، كانتا تحييان الرّغبة أينما اتجهتا، لقد كان لون بشرته الأبيض الصّافي الذي يميل للاصفرار يقدّمه وكأنّه بركان من المتعة الخارقة لناظريها، لم تتوقف عن النّظر إليه و نظراتها إليه كانت كالشّهوة، ناداها ريان: - تعالي ماريا، هذا هو حبيبي إسحاق الذي حدثتك عنه، لقد ارتسمت على وجوه كلّ من كانوا في المقهى الدّهشة، والتفتوا يشاهدونهم بكلّ تعجب، التفت إليهم ريان و راح يصرخ في وجوههم: ما بكم؟ نعم، حبيبي، هل هناك مشكل؟ عودوا إلى مشاغلكم هيا، أنا إنسان رائع ولديّ حبيب رائع، انتهى البرنامج. تعالي يا ماريا اجلسي -.

مرّرت ماريا جسدها على كرسي ولم ترفع عينيها وهي تمارس صلاة تشبه النّظر إلى إسحاق الذي كان يبدو وسيما جدّا، وغاية في الرّوعة والجمال، وإن يصحّ لنا التعبير، فلو ردّدنا كلمة جمال لعشرات المرّات لن نصفَ ما كانت ماريا تنظر؛ ذلك الطفل الكبير، رحّب الاثنان بها، وقال لها إسحاق بكل شاعريّة وجذب عاطفيّ قويّ: - إذن، أنا إسحاق حبيب ريان -، أجابت ماريا بتلعثم: - بيبيحة -، ثم راح الاثنان يضحكان، صحّح لها ريان: - ينادونه -ميمحة- يا ماريا وليس بيبيحة -، كانت أسنانه البيضاء المصطفّة تمزّق قلب ماريا التي كانت تبادله نظارات مريبة وكأنّها تريد أن تلتهمه فورًا، قال لها ريانوهو يعانقه: - إذن، هل أعجبك حبيبي؟ -، سكتت ماريا لبرهة ثمّ قالت: - نعم، بالتّأكيد، هو جميل جدّا ولا يبدو أبدًا كطفل، ثمّ قال لها ريان: - أنا أكبر منه، لكنّه أحيانا يضربني -. فردّ إسحاق: - متى ضربتك؟ -، فقال ريان بصوت مرتفع: - تضربني على مؤخّرتي أحيانا عندما نلعب في السرير -، فعاود الجالسون في المقهى النّظر إليهم، ثمّ قام ريان من مكانه صارخا في وجههم ثانية: - أظنّكم لن تستحوا أبدًا من أنفسكم حتى أُسمعكم ما لا يرضيكم -، ثمّ قال إسحاق لماريا وهو مستحٍ، فهو لا يحبّ الحديث في الأمور الجنسيّة كثيرًا: - لا تصدّقيه، هو يكذب، أنا لا اضربه أبدًا، فأنا أحبّه، أمّا إسحاق فقد كان مندمجًا بكلّ تلقائيّة في سبّ المجتمع داخل المقهى، ممّا دفع بإسحاق أن يطلب منهم الخروج منها.

ماريا قد أسرتها مفاتن وجمال إسحاق، أمّا ريان فقد كان ثرثارًا كالعادة ولم ينتبه لماريا وما كانت تكنّه بعينيها من إعجاب لحبيبه، قضوا يومًا رائعًا معاً، وطبعًا، ريان لم يفوّت فرصة أن يتناول بعض الأيسكريم كالعادة، أمّا ماريا فقد تناولت ما تناولته من جمال ميميحة الطّفل الكبير، لم تفهم بعد ماريا سبب إعجابها الكبير به، فهي منذ صباها لم تعجب بأحد وهذه أوّل مرّة تمنح مشاعرها لرجل، أو بالأحرى؛ لطفل مراهق يبدو للوهلة الأولى شابّا في العشرين، عادت ماريا للمنزل وحاولت أن تسال غبريال، ولكنّه لم يردّ عليها، كان يغيّر

موضوع الحديث كلّ مرّة، أو يتجاهلها و ينصرف، سألته كثيرًا، ولكنّه لم يجب، حيث قال لها في آخر لحظة: - تلك أحاسيسك يا ماريا، لا أستطيع أن اعرف لم ذلك، ولكنّني أعرف شيئا وحيدا؛ أنّك سعيدة، وهذا كلّ ما يهمّني الآن -
ردّت ماريا: - نعم، أنا سعيدة، بل جدّ سعيدة، لسبب لا أعرف ما هو-
فردّ عليها غبريال: - تلك الأشياء التي لا نعرف أسبابها تبدو دائما أنّها اهمّ الأشياء في حياتنا، فهي دائما أشياء تدخل حياتنا دون أن تستأذن، دون أن تطرق الباب، تدخل إليها وكأنّها صاحبة البيت وتغيّر فيها الكثير من الأشياء، استعدّي يا ماريا لما هو قادم، أعلم أنّك ستقاومين كالعادة، ولكنّك هذه المرّة ستقاومين من أجل الرّضوخ لا من أجل الانتصار، وربّما الرّضوخ في حدّ ذاته سيكون انتصارا
سألته ماريا بكلّ ارتياب: - عن ماذا تتحدّث يا غبريال؟ أجبني فأنا مشوّشة اليوم ولا أستطيع فهم ألغازك كالعادة، أجبني من فضلك مباشرة بدون ألغاز -
ردّ غبريال: - هناك صوت بداخلك ينبض من أجل الحياة، إنّه قلبك، الحياة هناك ستدفعك نحو معرفة سرّ كلامي، فهي الوحيدة التي تستطيع إجابتك، إذا ما استمعت لصوت قلبك حقيقة ستفهمين أنّ تلك الدّقات ليست دقّات فقط ،بل هي كتابة مسماريّة تدقّ على أخشاب حياتك قصّتها، حاولي أن تترجمي تلك الدّقّات إلى لغة بشريّة، وستتنازل لك أمّنا الطبيعة عن بعض السطور-.
في تلك اللحظات أخذت ماريا نوبة موسيقية تشبه الموسيقى الصّينية، وراحت تغوص بسمعها ووعيها في دقّات قلبها، وتغيّر المشهد كلّيا من حولها، وراح يرتسم في عصارة مخيالها الذي يبدو واقعا من حولها أهراما وكأنّها مصر القديمة، ورجالًا يكتبون على الصّخور، على الأخشاب، على أيّ جسم صلب، كتابات تشبه كتابات السوماريين بميزوبوتاميا، وتشبه كذلك كتابات الحضارات القديمة على الأرض منذ القدم، في الحقيقة هي لم تكن ساحة لتلك الحضارات القديمة، بل ساحة قلبها، راحت دقّات قلب ماريا تمتزج مع دقّات الكتابة على الصّخور هناك إلى أن اندمجت دقّات قلبها بشكل كلّي مع الدّقات الأخرى وبدأت ترتسم

على تلك الصّخور أشكال معيّنة تشبه الكتابة، ولكنّ ماريا لم تفهمها، حاولت قراءتها بصعوبة بالغة، ولكنّها لم تستطع، حتى إنّ الكتّاب بدورهم بدَوا وكأنّهم يتحدّثون لغة ليست بشريّة، عادت ماريا إلى ساحة الشّعور والوعي، ولم تستطع ترجمة تلك الكلمات بعد أن حاولت جاهدة ترجمة لغة القلب، وذلك أنّ للقلوب لغة حيّة لا يفهمها إلّا الأحياء وأنّ الأحياء هم أولئك الذين يجيدون تلك اللّغة، ولا نجيد تلك اللّغة إلّا حين نتصل بقلب آخر يدفعنا لكي نفهمها بإتقان دون تلقّي أيّ صعوبة، فعمل قلبين حيين معًا هو عمل جبّار خارق يستطيع أن يجعل أصعب المعادلات تتبخّر بسهولة لتكون حلولها سهلة بادية، إنّ الحب يقول للشّيء - كن، فيكون -، وحتّى لغة القلوب التي تكتب قصة حياة الإنسان تبدو سهلة الفهم، عندما نحبّ سنفهم عن طريق دقّات قلبنا متى نكون مشتاقين، ومتى نكون مشتهين للجسد، ومتى نريد أن نعانق، ومتى نريد قُبلة، ومتى نكون في حضرة القبلة، ومتى نحبّ بجنون، ومتى نخون، ومتى نُخان، ومتى تنكسر فينا الأحلام، ومتى نُجرح، ومتى تندمل الجراح، أعداد دقّات القلب ليست أرقاما تصدر عن محرّك فقط، بل هي لغة تحدّثنا كلّ يوم، وإنّ الإنسان لو سجّل دقّات قلبه من يوم ولادته إلى وفاته فستكون رواية بيوغرافية تامة، بكلّ حرف سيسجل فيها أيّامه الأولى، ستسجّل فيها ممارسته للرّياضة ومرضه بالحمّى، ستسجّل فيها كلّ مخاوفه ومشاعره حرفًا حرفًا، وكذلك ممارسته العادة السريّة والجنس والحب، ذلك أنّ لكلّ فعل أو حدث أو إحساس أو شعور يرتكبه المرء أعدادًا معيّنة من دقّات القلب، وماريا اليوم يبدو أنّ قلبها ينبض بطريقة تجعلها لا تريد أن تنام بشكل يدفع ذاكرتها إلى شغف الذكريات الجميلة، ووجه إسحاق يرتسم في وسادتها؛ يجعلها تشعر بنوبة حنان عظيمة، تمتزج برائحة عطره التي يبدو أبدًا لن تتخلى عنها أنها، ستبقى حبيسة خيالها كما يحبس الضوء لمسافات في الكون، وكما تتدلّى النّجوم على قارعة السّماء، باحثة عن عشّاق ساهرين يجمعون حطب الأيّام ليحرقوه

على نار الحبّ.
في كلّ ليلة كانت ماريا تتعرى بالكامل و تتدلّى بين سريرها وخيالها كعنقود عنب يبتهج للشمس، باحثة عن نقطة تتشبّث بها لتجعلها تصدّق أنّها قد تحبّه ويحبّها بهدوء رغم فارق السّنّ، رغم أنّه في علاقة، رغم أنّه مثليّ الجنس، رغم أنّها أرملة، رغم أنّها محطّمة، رغم أنّها تبدو كبيانو قديم في مسرح كبير و فارغ يبحث عن عازف،و هناك وبين فصّ الخيال والذاكرة سجلت هناك بالأحرف الثّقيلة، هذا المكان مخصّص لإسحاق، فلا تقمن بمحوه يا ايتها ملائكة الساقطة، سطّرت بين نفسها ونفسها خاطرة حبّ جديدة لعلّها الأولى ولعلّها الأخيرة ولعلّها كذبة كبيرة أو صغيرة، هل سيصدّقها الشّاعر الذي بداخلها؟ ربّما سيفعل، ولكنّ الشّارع خارجها لن يقبل بحبّ كهذا.
غفت بسلام و في طرفة عين. أصبحت نجمة قطبية لمّاعة فوق بحر إسحاق؛ حب ليس من أوّل نظرة، وإنّما من أوّل صدمة، من أوّل كذبة، من أوّل ساعي بريد يكسر قضبان الحديد بداخلها ويجعلها تعود لحياتها الطبيعية كإنسان، وليس كآلة للحياة. كانت كلّ يوم تتأمّل وجهها على المرآة وفي تراجيدة بسيطة، كلّ صباح كانت تكتب اسم إسحاق بـ - الرّوج - الشّفّاف عليها وتمحوه كلّ ليلة، لترسمه في خيالها وأحلامها التي لم تعد تنطق سوى بوجه، وبعيدًا عن أحلام ماريا الغراميّة كان ريان غافلًا تمامًا عن هذه المشاعر، فريان لم يكن يشعر حقيقة بانجذاب صديقته الجديدة لحبيبه، بل كلّ ما كان يشعر به هو اهتمام من صديقته بمن يحبّه، لم يمثّل له سوى فرط في الصّداقة وحبّا فيه واحترامًا لعلاقتهما المثليّة، كما أنّه لم يكن أبدا ليشكّ أنّ هناك امرأة في العالم يمكنها أن تسقط في غرام شخص مثليّ، وكما أنّه كان متأكّدا أنّه لا يمكن لأيّ إنسان مهما كان جنسه أن يفكّر في علاقة جادّة مع طفل، كما أنّه كان على ثقة عمياء بحبّ إسحاق له، لذا، فأفكاره لم تبادره غيرة من نوع ما تجعله ربّما حذِرا مع ماريا، ولكنّه كان دائما الريّان الثّرثار الذي يحبّ الأيسكريم، وماريا أصبحت رويدا

رويدا تطوّر من نظراتها لإسحاق، فمن نظرات عاديّة إلى نظرات إعجاب، إلى نظرات حبّ، إلى نظرات حبّ عميق، وأحيانًا إلى نظرات غيرة من ريان، كما أنّ نظراتها تطوّرت لتصبح ابتسامة ثم وقوفًا إلى جنب إسحاق أثناء المسير، ثمّ صمتاً معبّرًا، ثمّ إلى صمت بليغ، ثمّ إلى صمت عاشق، ثمّ إلى حرارة شهوة تظهر على رائحة الجلد أثناء الوداع كلّ يوم، ريان فتح لماريا بابًا على مشاعر الحبّ التي لم تختبرها من قبل، ولكنّه كان بابًا ضيّقًا لم تستطع ماريا بكتلة آلامها و معاناتها دخوله، كما أنّ أشواك الصّداقة كانت تخفيه، وإن جرّبت ماريا هنا كلّ مشاعر الحبّ تلك فيجب عليها أن تستمر في هدم جدار الصّداقة والغوص في الخيانة إلى أبعد الحدود لشخص دخلت حياته برسالة، و لم يكن معها سوى إنسان محبّ ورائع وصديق حقيقيّ. ماريا كانت حذرة في مشاعرها رغم أنّها كانت دائما تغرق أكثر في بحر الحبّ، فهي الآن عليها أن تواجه صداقتها مع ريان لتضمن مقعدًا آمنًا بجانب إسحاق، إسحاق لم يبدي أيّ مشاعر من نظراته وحركاته وتصرّفاته، كان يبدو أنّه يبادل حبّا عظيما لريان يجعله في منأى عن خيانته، وهذا الأمر كان يؤلم ماريا، ولكن في الوقت نفسه يمنحها ثقة بنفسها، فهي بتلك الحال ستحبّه بحريّة تامّة دون أن تجرّه بأيّ طريقة كانت إلى الخيانة، أن تحبّه يعني أن لا تقول له ذلك أبد.

غبريال كان لايزال متشبّثا بها، ولكن قد تناقص مدى حضوره إليها، فقد استعمر إسحاق خيال ماريا، ولم يصبح هناك مكان كافٍ للهلوسات وعلى قدر ما كانت ماريا تغرق في الحبّ أكثر كان غبريال يبتعد أكثر، هل انتهى زمن الأفلام القصيرة؟، تساءلت الحياة المتشبّثة بأصابع يديها الاثنتا عشر على وجه ماريا لكي لا تسقط، فحياة ماريا في هذا الحبّ أصبحت بالنّسبة لها مملة جدا، فلا شيء انتهى بسرعة، ولا تبدو أنّ قصة هذا الثّلاثيّ ماريا وريان وإسحاق ستكون طويلة جدا، فهو حبّ محرّم من كلّ الجهات في هذا المجتمع، دخلت ماريا هذه القطعة من الحياة بقلب عارٍ لم يجرّب من قبل شغف الحبّ، وليس لديه الخبرة

الكافية في التعامل مع مشاعر كهذه، وكان كبح ماريا لمشاعرها أمرًا مستحيلا، لذا كانت وكأنّها تمارس رياضة الرّكض دون توقّف إلى قدر العشق والحبّ. و في لحظة زيف ممتزج بالحقيقة ارتفع داخل مسام ماريا ضباب المشاعر الممحونة وتمرّدت مشاعرها على قضيّتها الأولى، واستسلمت لشهوتها التي رسمت على جلدها رائحة الجنس لجذب الذّكر، وذكرها الوحيد الذي أعجبها في تلك الخلية البشرية هو إسحاق المثليّ الجنس.

أمسكت سمّاعة الهاتف و راحت تتصل به غير آبهة لأيّ شيء يتحرّك في مخيالها سوى لنوبات العشق الرّهيبة التي كانت تتملّكها كلّما تذكّرت اسمه، وتلك الشّهوة التي كانت تزيد من حرارة جسمها كلّما ارتشفت منه نظرة؛ اتّصلت به وقالت له بتردد مبالغ فيه نوعا ما: - ألو، إسحاق، واشراك (كيف حالك) -، ردّ إسحاق: - نعم، من معي؟ -، فردّت عليه ماريا بصوت يقترب للصّوت الجهوري أحيانا تحرّك حباله الصوتيّة الشّهوة الجنسية وتتخطّاه الخيانة بقرب مليمترات ممّا يجعل الصوت متلعثما: -ماريا، إسحاق .. اتّصلت بك لكي أدعوك اليوم إلى بيتي، لقد اشتقت قليلا للحديث، فقلت قد تأتي ونتجاذب ورود الحديث-، ردّ عليها إسحاق وهو يبدو سعيدا: - حسنًا، سأمرّ بريان و سنزورك معا -.

لم يكن هذا ما أرادته ماريا، فماريا أرادت أن تختلي بذلك الطّفل الرّجل المفتول العضلات لوحدها، وبغضّ النظر عن صداقتها لريان، إلّا أنّه كان يمثّل في هذه الحالة مصدر إزعاج كبير، ردّت عليه بصوت يشبه صوت أنثى تمارس الجنس: - إسحاق، أريد أن أجلس معك لوحدنا -، لم يفهم حقّا إسحاق سبب تلك المناجاة التي قامت بها ماريا لتوّها على الهاتف، سكت لبرهة ثم ردّ: - أوكي، أوافق وبعد ساعتين سأكون عندك -. أقفلت ماريا السّماعة ولم تواصل الحديث معه، وحتى لا تعطيه فراغا من الوقت ليغيّر رأيه. لقد كانت فعلا سعيدة بإنجازها ذاك، وراحت تلبس ما يبرز مفاتنها، وتكسو وجهها ببعض المساحيق لتجعل من نفسها جذّابة أكثر، لبست أخفّ ما كان لديها من ملابس لتبرز ما قد

يشتهيه أيّ رجل، ثمّ تذكّرت أنّه مثليّ، وبسرعة وجدت حيلة لتخدعه؛ حيلة غبيّة بعض الشيء ولكنّ شيئًا ما بداخلها كان يدفعها لتفعلها، أمسكت المقصّ وراحت تقصّ خصلات شعرها لتقترب أكثر لشكل الرّجل، قصّتها خصلة خصلة، وابتسامتها تجعل من وجهها يبدو سعيدا أكثر، ودمعة تكتسح بالسواد من عينها زارت خدّها الأيسر تناجي مساماتها لتتفتح أكثر للشهوة، حضّرت نفسها على غير عادة، تأمّلت نفسها في المرآة لوقت طويل، كانت تتأمّل خصرها كلّ مرّة وشعرها الذي لم يعد طويلا، رقصت مع شمّاعة المعطف ومشجب طويل كان يشبه طول الرجل، ثم جلست لوقت طويل على الأريكة تنتظر إسحاق؛ تنتظر الشّهوة؛ تنتظر الحب كأيّ أنثى في العالم من أيّ كائن كان.

لأوّل مرة تمارس ماريا مراهقتها بعد خمسة عشر سنة من الحدث المعلم في حياتها عندما اغتصبها ذلك الرجل القذر، لأول مرّة تجرّب مفاتنها للرّجل، لأول مرّة تستسلم لمشاعر حبّ، لأول مرّة تمنح رجلا اهتمامها، لأوّل مرّة منذ بداية هلوساتها تقدم على فعل ما، بكلّ استقلالية وحرية.

دقّ إسحاق على الباب ثلاث دقّات كانت كفيلة بأن تغيّر نبض قلب ماريا التي قامت من مكانها و تأمّلت نفسها لآخر مرة واتجهت نحو الباب لتفتحه، وقفت هناك كمن يقف قبالة ربّه، تأمّلته من ثقب الباب وتأكّدت أنّه إسحاق وليس غيره، تأمّلته جيّدا، تأمّلت الشورت القصير الذي كان يرتديه وعضلات رجليه المفتولة، تأمّلت صدره وعينيه، تأمّلت شفتيه وكان يلعقهما كلّ لحظة بلسانه، وما إن مدّ يده ليقرع الباب ثانية حتّى فتحت الباب ورحّبت به: - تفضّل إسحاق، لقد اشتقت إليك -.

إسحاق كان مبتسما، ولكنّه كان يخفي بعض الخوف أيضا في عينيه، فهو مهما كان لايزال طفلا يخاف من المجهول وتخيفه النّساء، فالنّساء دائما ما يجري تصويرهم في المجتمع وفي الإعلام بصورة الساحرات والشّريرات اللاتي يبعن الإنسان في أيّ لحظة، ويقتلن الأطفال ويسرقن أعضاءهم الحيوية، وإسحاق

مهما كان قويّا وجذّابا يبقى بداخله طفل صغير يحب الشوكولاتة ، ويخاف من كبار السّنّ فقد يتحولون لمغتصبين و متحرشين في أي لحظة وايضا من النساء و الستيريوتايب الذي يلفهن كساحرات و سارقات للاعضاء الحيوية كميراث مقدّس من مجتمع نكرة. دخل بيتها بهدوء والابتسامة لا تريد أن تغادر وجهه ليعبّر لها عن ارتياحه، ولكي يخفي خوفه، مسكته ماريا من يده اليمنى وقالت له: - تعال إسحاق، ادخل، لا تستحي، أنت في بيتك -، دخل إسحاق وجلس على الأريكة وضيفته ماريا ووضعت أمامه كلّ أنواع الحلويات والمشروبات، ثمّ صمتت .. لم يكن الصمت يروق كثيرا لإسحاق الذي قال لها بصوت متقطع: - إذن ماريا ما هو موضوع حديثنا؟ -، سكتت ماريا وبقيت تتأمّله فقط، لم تكن تستمع إليه في الحقيقة، بل كانت تتأمّله بعمق بكلّ تفاصيله، كانت حرارتها تتدحرج بين درجة الغليان كأبرد لحظة عليها، وبين درجة البركان كلّما لامست عيناها ذلك الجزء المنتفخ الذي يبدو بين فخذيه. راح إسحاق يتحدث عن أيّ شيء في لحظات صمتها لكي يشدّ انتباهها لشيء آخر غير جسمه، ولكنّ ماريا لم تنتبه لشيء سوى لذلك الجسد الجذّاب ولذلك الشّخص الملتهب.

قام إسحاق من مكانه يعتذر ليذهب، ولكن ماريا لم تتركه، قامت من مكانها بسرعة ورمت نفسها بين أحضانه، اقتربت شفتاها لشفاهه وقالت له في فمه: - إسحاق، لا تذهب، أريدك هنا معي، أريد أن أندمج فيك، وأن تعلّمني كيف يصرخ الرجل عندما يتحسّس جسد المرأة، إسحاق، أحبك -، ثمّ وضعت شفاهها على شفاهه، وراحت تقبّله وفي لحظة ضعف من إسحاق راح يقبّلها هو الآخر، ومدّ يده على مؤخّرتها وراح يتحسّسها بلطف بينما هي كانت غارقة تشتمّ رائحة عرقه التي كانت تأخذها إلى عالم آخر، مودّعة كلّ أفكارها، مودّعة ضميرها.. إسحاق الذي كان يبدو أنّه لم يمسّ جسد امرأة من قبل راح ينزع ملابسها بلطف ويمصّ حلمات ثدييها ويمدّ لسانه بينهما، ويقبّل صدرها بهدوء تامّ وكأنّه يكتب قصيدة حبّ على جسدها.

توقّف لبرهة ثم قال لماريا: - ولكن يا ماريا -، أنا مثليّ، وضعت ماريا أصبعها على فمه، وقالت له : اشششت، أنت لا تبدو كذلك الآن، ونزعت شورته بهدوء وهي عارية وراحت تقبّل أقدامه وفخذيه وكلّ زاوية فيهما، ونزع هو ما تبقّى من ملابسه وكشف عن صدره وعضلاته، وبرز ذكره منتصبًا كبيرًا وخشنًا ومنتفخًا، وتسلّمته ماريا بشراهة، وكأنّه تمثال رومانيّ أو لآلهة يونانية.

اندمج الاثنان في جسد واحد، وحملها إسحاق إلى السّرير ومارسا الجنس كمراهقين، لم يتعب ولم تتعب، كانت كملتهبة رأت لأوّل مرة جسدًا جميلًا أمامها.. تمرّد على ميوله في حضرتها ولأوّل مرّة يشعر بالرّغبة الجنسية تجاه امرأة؛ امرأة تكبره بخمسة عشر سنة، وقف غبريال يتأمّل ماريا ولا يبدو سعيدا البتّة، تأمّلته ماريا هي الأخرى، لكن لم تهتمّ له مطوّلا وعادت للحبّ مجدّدا تنشد لإسحاق شهوة المرّة الأولى وهي تتباهى بكلّ جزء في جسدها أمامه، كانت تحاول جاهدة أن يلامس كلّ شبرٍ فيها كلّ شبر فيه، وأن تضغط على عضلاته لكي يؤلمها أكثر، وأن تشاهد كلّ ما فيه وهو يتحرك شوقا لكي يقطف جسمها وشهواته، لقد كانت ماريا في ذلك الوقت سعيدة جدّا وهي تلامس بحنانها عنف الجسد القويّ الذي تحمله روح إسحاق الطيبة، وكانت فخورة جدّا بقوّة جمالها الذي استطاع أن يحوّل مثليّا إلى عاشق لجسد المرأة بقوّة و بكبسة غريزة لا أكثر.

بعد أن فرغ الثنائي من علاقته الجنسيّة راحت الأنثى تتدلّل على جسد إسحاق بكل انسيابية وكأنّها تشكره على تلك اللّحظات الذهبيّة التي قدّمها لها، لكنّ إسحاق لم يبادلها نفس الشّكر فقد كان يبدو مرتابا، نهض بسرعة وهو عارٍ إلى زاوية البيت وجلس هناك يبكي دون أن يصدر صوتًا، لم تفهم ماريا سبب بكائه، ولكنّه كان يشعر برغبة كبيرة بالعودة بالزمن إلى الوراء، ورفض عرض ماريا له بزيارتها في بيتها لوحده، لقد شعر أنّه قد تمّ اغتصابه من طرف امرأة ، وكما أنّ التحول الجذريّ الذي قام به الآن من المثليّة الجنسيّة إلى المغايرة الجنسية

قد سبّب له صدمة جنسيّة كبيرة لم يعهدها من قبل، وأكبر شعور بالذنب كان يجول في مخيلته أنّه قد خان حبيبه ريان الذي يبدو أنّه كان يبادله حبّا كبيرًا وخاصّا.

عندما يشعر الإنسان أنّه خان إنسانًا آخر لم يخنه أبدًا سيجعله الأمر يستحي من نفسه، ولا يقوى على مواجهة الإنسان الآخر، أو النّظر في عينيه حتى وإن لم يعلم الآخر خيانته، ففي الحبّ يمنع الاندماج الرّوحيّ الجسد من اللّجوء لجسد آخر غير ذلك الذي تتّصل معه روحه، والرّوح ليست سوى تلك المشاعر التي تعبّر عن كينونة متّصلة بين كائنين.

راحت ماريا إليه وهي عارية ببطء، مدّت يدها على شعره، وقالت له بصوت هادئ: - ما بك يا حبيبي ؟لم تبكي؟ -، راح يتأمّلها والدّموع تغمر عينيه الزرقاوتين البرّاقتين، ولكنه لم يقل أيّ كلمة، وضع عينيه على الأرض وراح يبكي، فهمت ماريا أنها ربّما يجب عليها أن تتركه لبعض الوقت وحده، تركته في الغرفة وارتدت لباسها من جديد وذهبت للغرفة الأخرى وجلست هناك وحدها، تأمّلها غبريال، ولكنّها أدارت رأسها للجهة الأخرى معبّرة له عن أنّها لا تريد الحديث معه.

الآن، انتظرت ماريا أن يأتي إليها إسحاق وأن يقبّلها للمرّة الأخيرة؛ انتظرت وانتظرت إلى أن سمعت باب البيت يقفل بسرعة،جرت إلى الشّرفة لتلمح إسحاق و هو يغادرالبيت باكيا،..اتجهت ماريا صوب مرآتها وراحت تبكي هي الأخرى ، أمسكت كلّ علب الماكياج خاصتها وراحت ترمي تلك المساحيق على وجهها وعلى شعرها الذي قصّته لتوّها، تفانت في جعل نفسها تبدو إنسانا هشّا سريع القبح، ثمّ راحت تقطّع ملابسها بالمقص، إلى أن عرّت نفسها تماما، وبقيت تتأمّل مفاتنها بشفقة كبيرة وكأنّها تريد قلعها بقلم رصاص، أمسكت قلم اللّباد الأصفر وراحت تكتب بتوحّش على جسدها خربشات كالأطفال، ثمّ استلقت تحت المرشّ وفتحت عليها الماء البارد، جلست هناك تبكي لوحدها ما اقترفته اليوم.

لقد أحسّت ماريا بعد ذلك اليوم بالذّنب هي الأخرى كون ريان لم يفعل أي شيء لإيذائها؛ بالعكس، لقد قدّم لها الصّداقة والمحبّة، ولا يستحقّ خيانة كتلك، ولكنّ شراهة الأنثى للذّكر قد يفقدها أحيانًا مبادئها و وقارها، فللعضو الجنسيّ الأنثوي قراراته، ولا يمكنه أبدًا أن يستغني عن عضو ذكريّ يريد منه أن يهزّه بكلّ شراهة.

إسحاق لم تتغير ميولاته، مازال يحبّ ريان ومازال مثليّا، ولكن، هناك حتما أمر عجيب جعل عضوه ينتصب كالسّلاح النّووي أمام جسد ماريا الذي لا يقاوم، ربّما ليس لأنّها امرأة، ربّما لأنّها شيء آخر لا يعرف ما هو، ولكنّ المهمّ والأهمّ أنّه جرّب شهوة تتخطّى ميوله الطبيعيّة المثليّة، وتمردّ على كينونته المتمرّدة أصلا، وعندما يتمرّد الإنسان فهو يشعر أحيانًا بنشوة العظمة والألوهيّة، وأحيانًا أخرى يشعر بالخزي والدّناءة عندما يواجه شيئا أقوى منه بداخله، وهذا ما كان يشعر به إسحاق في الحقيقة، فحبّه لريان كان أقوى منه، إذ حرمه شعور لحظات الألوهيّة.

سئمت ماريا نفسها ولم تشأ الاتصال بريان، ظنّا منها أنّ إسحاق حتما قد أخبره بكلّ شيء، وغبريال لم يعد يبدي أيّ رأي لماريا؛ أصبح دائما يظهر جالسا أو واقفا أمامها دون أن يصدر أيّ كلمة. رنّ هاتفها النّقال مرتين عندما كانت ماريا على الشّرفة تدخن لأول مرّة في حياتها سيجارة تلو الأخرى، تكحّ قليلا وتواصل تدخينها، لعلّها تجد فيها ما ينسيها ألمها. سمعت هاتفها النّقّال يرنّ داخل البيت، فاتّجهت صوبه مسرعة، إنّه ريان يتصل بها، حملت الهاتف وهي متردّدة ومسرعة في الوقت نفسه، كانت تائهة؛ فهي من جهة تريد الحديث معه ومواصلة صداقتهما بشكل عاديّ، ومن جهة أخرى كانت خائفة من ردّة فعل ما، فربّما قد أخبره إسحاق بكلّ شيء، وما أحقر الإنسان عندما يواجه من خانه، وما أضعفه حينها من إنسان في الردّ. بعد أن فكّرت قرّرت أن تردّ، وضعت الهاتف على أذنها اليسار على غير عادة، ولكنها لم تبادر بالكلام أوّلا، بل

تركت ريان يتحدّث أوّلا قال - ألو- مرتين، ثمّ ردّت ماريا بصوت هادئ بـ - ألو- أخرى، ثمّ دخل ريان في صلب الموضوع مباشرة: - ماريا، لقد اشتقت إليك، لم لا تتصلين؟ هل مللت منّا أنا وإسحاق؟ ما رأيك أن نلتقي اليوم؟ -.

لقد فهمت في ذلك الوقت أنّ إسحاق لم يخبر ريان عمّا قامت به من خيانة، تمالكت ماريا نفسها واسترجعت ثقتها ووافقت على اللّقاء، ولو أنّها لم تكن حقّا متأكّدة ممّا قاله لها ريان، فربّما هو يحضّر لها مقلبا ما، أو يريد أن يلتقيها لكي ينتقم منها على فعلتها، لقد كانت الوساوس تسيطر على أجزاء كبيرة من فكرها، ولكنّها حاولت أن تقاومها مطوّلا واجتازتها وقادت جسدها سعيا للقاء ريان وإسحاق اللذين كانا ينتظرانها كالعادة في أودان. وقفت هناك أمامهما تنتظر أيّ ردّ فعل غير عادي أو عقاب ما، ولكنّ ريان تصرّف على طبيعته، فكلّ ما كان يريده هو الأيسكريم كالعادة، وفي برهة من اللقاء عاد للثّرثرة من جديد، وكأنّ شيئا لم يكن، لقد تأكّدت ماريا لتوّها أنّ إسحاق لم يقل شيئا لريان، أمّا إسحاق فقد كان يمثّل دوره بطريقة عاديّة جدّا دون أن يبدي أيّ انزعاج أو غضب إلا في بعض الأحيان حينما كانت ماريا تبادله بعض النظرات لتجرّب انفعالاته، حيث كان يرسل إليها رسائل واضحة، مفادها أنّه لا يريد الحديث معها مجدّدا، ولا يريد منها أن تتصالح معه أو أن تعبّر عن أقلّ رابطة تجاهه ولو رابطة كائنات حية، أو حتى رابطة مجتمع واحد. لقد أصبح يبدو أنّه لا يطيق الاستماع إليها حتى، أو النّظر إليها، ولكن حتى لا يبدي شيئا من ذلك لريان، وحتى لا يخسره، كان أحيانا يبادلها بعض الانفعالات كالضّحك أو الابتسامة أو بعض الكلمات، ولكنّها كلّها كانت تخرج بطريقة صفراء، ولم يكن بها أيّ نكهة حقيقية، لقد أصبح إسحاق فعلا جافّا صلبًا متحرّج المشاعر مع ماريا، وماريا لم تعد تتحمّل كلّ هذا الجفاء من معشوقها، فهي تعوّدت أن يقابلها أيّ رجل باستسلام بالغ وتام، خاصّة وهي الأن أصبحت تجرّب بعض ذاك الذي أذاقته من قبل لكلّ عاشقيها الذين كانت تقابلهم دائما ببرودة تشبه تلك البرودة التي يقابلها بها

إسحاق الآن، بقي إسحاق على تلك الحال وماريا لم تعهد نفسها بحجم ذلك الاهتمام الذي تكنّه لإسحاق ولا بذلك الحزن، وبسببه أصبحت تدخل كلّ لحظة في نوبة من القلق تفرغها في الخربشة بأقلام اللّباد على بعض أوراق الرّسم.

كان كلّ يوم يمرّ بدونه كأنّه مليون عام؛ وكانه أبديّة من العزلة، وكانت كلّ ليلة تعرّي جسدها وترقص على موسيقى بيانو تنسجها في خيالها وهي تبكي كالأطفال، تلوّن حياتها السوداء بدموع الاشتياق وبقبر الضمير؛ الحبّ يجعلنا لا نميّز بين الصّالح والطالح، بين القبح والجمال، الحبّ يجعلنا نفقد حواسنا وندرك العالم من خلاله. كانت حرب ماريا ضدّ مشاعرها ضروسا، لكن بلا فائدة، انتصرت مشاعر الحبّ عليها وجعلتها أسيرة حطام قلبها الذي أصبح عازفا للنّاي داخل صدرها، بكاء على حبيب لم يكتب لها حبّه الكامل، مرّت الأيّام وماريا على نفس الحال تعذّب نفسها بالرّقص و بعلب الماكياج وبالأقلام، وبقلب الأثاث وتكسير بعض الأواني الزّجاجية أحيانا، وبين حطام فؤادها وحرب روحها وكلمات قلبها كانت تجد لنفسها مكانا أصليا للتفكير في إسحاق الذي يبدو أنّه قد أخذ مكان ابنها في تفكيرها، فماريا لم تعد تفكّر سوى في ذلك المراهق الجميل الذي استولى على كل عفويّاتها، أما ابنها اليوم فقد أصبح يعدّ من الماضي، ظهر غبريال فجأة وقال لماريا وهي عارية: - إسحاق قادم -، أجابته ماريا: -قادم؟ إلى أين؟ -، ردّ غبريال: - قادم إليك، سيفتح الباب بعد لحظات دون أن يقرعها -، ردّت ماريا: - ولكنّي عارية -، وفي تلك اللّحظة فتح إسحاق الباب، وتمسّكت عيناه بجسد ماريا واتجه إليها والدّموع في عينيه تحكي فيلمًا أمريكيّا رومانسيا من زمن الأبيض والأسود، تسمّرت ماريا في مكانها وبقيت تتأمّله وهو يتحرّك صوبها، وكانت رائحة عرقه والعطر الفرنسيّ الذي يضعه تعبق في البيت، وتدفع هرموناتها الجنسيّة نحو الانفجار لتتشبّث أنوثتها بجسده، أمسكها إسحاق بقوّة وضمّها إليه بقوّة كأنّه يريدها أن تلتصق به لتصبح جزءا من جسده؛ كأنّه يريد

ابتلاعها كالأفعى. التوى عليها وهي عارية تماما، ودخل معها في حالة من السّكر الجنسيّ وفقد الوعي في تفاصيل جسدها، وكان ينهل منها كلّ حنانها كأنّه طفل صغير ينهل من حليب أمّه، كان يعصرها بين عضلاته بقوّة، وكأنّه يكسر أضلاعها بين عضلاته الجميلة والحنونة، بعد اندماج كليّ مع ماريا استفاق إسحاق على مشاعره القويّة، وقال لماريا بصوت ملك شهم وصوت فارس شجاع: - ماريا، أنا أحبّك -، توقّف قلب ماريا في ذلك الوقت عن النّبض لثانية، وكانت تبدو ذابلة لا تعرف شيئا في حياتها، ولم تدرك شيئا في حياتها سوى إسحاق، نسيت اللغة نسيت كلّ شيء، وغبريال الذي كان حولها دائما وتراه بوضوح في تلك اللحظة أصبح ضبابا متلاشيا، انعدمت الذّاكرة فيها وتوقّف خيالها وتجمّدت، ثمّ شعرت بحرارة تطلع من قلبها وتستولي على صدرها وحلمات ثدييها، انتصبت وكأنها تبحث عن شفاهه وتلونت كلّ مصّاته على جلدها باللون الوردي، لم تقل شيئا حينما وضعت رجلها اليسرى على فخذه، رأسها على صدره، وراحت تسمع نبضات قلبه وتغوص فيها، وكأنّها سمفونية حبّ تقع بين جسدين عاريين يرسمان لوحة زيتية للحبّ، أمسك إسحاق ماريا من شعرها بعدما غزت الشّهوة مجدّدا جسمه وراح يقبّلها من شفاهها بعنف قبلات فرنسية متتابعة ولعابه يجعلها تفقد الوعي أكثر، وغاص معها مجدّدا في علاقة حبّ نرجسيّة، كلّ ما فيها يتكبّر على كلّ شيء فيها ويتواضع للاختراق، للانصهار، لانفجار الألوان والأضواء داخل الأجساد الممغنطة بعشق بعضها لبعض، إسحاق أيضا كان يشعر بشهوة عظيمة تجاهها من البداية، ولكنّه كان يتجاهلها لأنّه كان وفيّا لريان، ولكنّ الشّهوة أحيانًا تكون أقوى من المشاعر، لا يمنعها شيء من أن تتحقّق على أرض الواقع سوى أن تتحقّق، الشّهوة حاجة بيولوجية عند الإنسان وهي أداة الطبيعة لتذكّر الذوات المستقلة مؤقّتا عنها، إنّها أداة اتّصال معها بعيدا عنها أيضا، فالكائن الحيّ دائما يشتاق لذلك الاتصال الوحدويّ مع الطبيعة الذي كان جزءا منه قبل أن ينفصل مؤقّتا. إسحاق كان يحبّ ماريا ويشعر دائما بشعور

غريب نحوها، كان يدفعه دائما نحو الاشتياق لها أكثر، ولكنّ قلبه كان يقول له إنّه يحبّ ريان أيضا ويشتاق إليه، لقد أصبحت مشاعره وشهواته مزدوجة الآن، فهو يحبّ ماريا ويحبّ ريان وأصبح يبادلهما الحبّ والسّرير معا، ماريا كانت تعلم بهذا وكانت تكتفي بهذا الحبّ رغم الغيرة التي تعصر قلبها كأيّ امرأة، ولكنّها كانت تحبّ ريان أيضا وتحترمه كصديق، وتعلم جيّدا أنّها الطرف الدّخيل في المعادلة، ومستعدة كلّ الاستعداد لتتقاسم إسحاق مع ريان، ولكنّ ريان لم يكن فعلا مستعدّا ليقاسمه حبيبه أحد، بالرّغم من أنّه الآن لا يعرف شيئا على الإطلاق بخصوص هذا الظرف، ولكنّه إن عرف أيّ شيء بخصوص هذا ربّما ستكون صدمة قوية تضرب كيانه، لقد بات إسحاق متعوّدا على جسد ماريا الرّطب، وقد كان يمارس الحبّ معها تقريبا في كل الأوقات، ومع ريان أيضا، لذلك كان يبدو منهكا أحيانا في التوفيق بين الاثنين، أمّا ماريا فيبدو أنّها أصبحت تعيش من أجل إسعاد إسحاق بجسدها، فهي أصبحت تهتمّ لنفسها كثيرا لأجله، وتشتري ملابس مثيرة ومواد تجميلية كثيرة لتجعله كل مرة أكثر سعادة، وأصبح الجنس مع إسحاق غايتها الأولى والأخيرة، كان الثّلاثيّ ماريا وإسحاق وريان يلتقي تقريبا كلّ أسبوع ليمضوا معًا وقتا جميلا كأصدقاء، ولم يبد إسحاق ولا ماريا أيّ ردّ فعل يظهر علاقة عاطفية أو جنسية، أو أيّ خيانة من أيّ شكل كان لريان، بل كانت الأمور تبدو على ما يرام في وسط الخيانة المخبّئة والمغلّفة بالصداقة، وفي لحظة انكشاف للحقيقة و بعد أن لازم إسحاق سرير ماريا لمدّة طويلة دخل عليهم ريان الغرفة وهما في وضعيّة جنسيّة، وقف هناك يتأمّلهما وهما في طور الاندماج الجسديّ، لقد كانت فعلا صدمة حقيقيّة، كانت خيانة من كلّ جهة، من كل صوب؛ خيانة مزدوجة، لقد أحسّ ريان في تلك اللحظة أنّه أبله إنسان وأغبى كائن على الإطلاق، لم يبك لأنّه لم يتأثّر، بل لأنّه لم يستطع البكاء حينها، الصّدمة أوقفت كلّ السيالات العصبية بجسمه، وقف إسحاق مصدومًا لوجود ريان هناك وعارٍ تمامًا، وقال له: - سامحني ريان

-، في ذلك الوقت فقط انهار ريان باكيًا، وغادر الغرفة قائلا بصوت خافت: - آسف على الإزعاج -، تبعه إسحاق وهو عارٍ إلى الباب ومنعه من الخروج، ثمّ عانقه بكلتا ذراعيه بقوّة وراح يقبّله و يعتذر منه، وانهار كلاهما يبكي على حبّهما الذي يبدو أنّه كان سيضيع، وقفت أمامهما ماريا تتأمّلهما بحزن كبير، وضعت يدها في فمها معبّرة عن صدمتها وراحت تبكي هي الأخرى، حمل إسحاق ريان بين يديه وأخذه إلى السّرير حيث أكمل معه علاقة حبّ شهوانية هادئة ورومانسية ليعوّض له ألمه، وليكفر عن ذنبه، وليلملم له ما تفتّت من كبريائه، وليرضي غروره بأنّه سيبقى دائما ما يفضّله إسحاق، مارس معه الحبّ في بيت ماريا؛ بيت المرأة التي تعشقه، وفوق سريرها، وأمام ناظريها، ظنّت في ذلك الوقت ماريا أنّها ستخسر إسحاق للأبد، فهو في الأخير فضّل ريان عليها، ولكن ما لم تكن تنتظره أن يتقاسمه ريان معها، وذلك بالفعل ما فعل، التفت إليها وناداها: - ماريا، تعالي، لقد اقشعرّ قلب ماريا في ذلك الوقت، وذهل إسحاق، ثمّ سأل ماريا: -هل تحبينه؟ -، أجابت: - نعم، أحبّه-، ثمّ سأل إسحاق: - هل تحبها؟ -، فأجاب: - أحبّكما معا -، ثمّ طلب من ماريا أن تخلع ثيابها وأن تطارحهما الفراش، انتابت الحيرة إسحاق ذلك الوقت وانصدم من قوّة القرار الذي اتّخذه ريان في ذلك الوقت، ثمّ راح يبادل جسده وحنانه مع ريان وماريا كليهما، في علاقة ازدواجية تشبه علاقات الآلهة.

هكذا بكل برود ريان تقاسم حبيب حياته مع تلك المراة ،قد لا يصدق احدا ان هذا قد يحدث في مكان ما، و لكن ريان (لم يكن يريد سوى سعادة اسحاق)

كان إسحاق يسبح فوق الجسدين، ويطبع خصاله وروحه ورائحته عليهما ويمارس معهما أحلى أوقات الجنس في حياته، ريان كان سخيّا جدّا، فهو تقاسم لتوّه حبّ حياته مع ماريا، وماريا بدت هي الأخرى متسامحة جدّا، فهي قد قبلت أن تطارح الفراش غلاما يطارح حبيبه، ومنذ ذلك الوقت دخل ريان و ماريا في علاقة حب مزدوجة رئيسها هو إسحاق، واكتملت اللّعبة بالنسبة له،

فهو أصبح أكثر انسجاما الآن مع ازدواجية علاقته، وأصبح لريان ضرّة، اثنان لواحد وواحد لاثنين، في البداية كان الأمر صعب الفهم، ولكن، سرعان ما انسجم الثلاثة مع العلاقة الجديدة والفريدة، وأصبحوا مندمجين لدرجة أنّهم أصبحوا كالعائلة الواحدة، ربّها إسحاق المراهق.

أن تضع حياتك وجسمك بيد مراهق فأنت حتما مجنون أو مجنونة، ولكنّ إسحاق كان به سحر فريد من نوعه، يأسر أيّ إنسان في غرامه، ربّما لأنّ فحولته تفوح منه كما تفوح رائحة العنبر من بيوت الجزائريين أيّام المولد النبويّ، وربّما لأنّ عينيه الزرقاوتين البرّاقتين الحادّتين اللتين تجمعان لون أعين أوروبية، وشكل عربيّ كعين العقاب، ولمسة كحل بربرية كجمال أمازيغيّ صخب ورقيق، في الوقت نفسه كان إسحاق يبدو فعلا ربّا وإلهًا ورجلا يمكن لأيّ أنثى أو رجل يشبهها أن يحلم بأن يعيش خادما لرجليه، فقبلة من شفتيه كانت كفيلة بأن تدبّ الروح بها في أيّ جثه كما هي قبلة الأمير لبيضاء الثلج، وأن تعيد الحياة لشهوة ميتة، وهي شفاء من أيّ مرض عاطفيّ.

رحيق الرّبيع وشدق الصيف ونكهة الخريف وحنان الشتاء، سنة بأكملها مرّت على هذه العلاقة الثّلاثية التي دخلت فيها ماريا بجنون، تتقاسم فيها مع ريان حبيبًا يبدو أنّ حبّه لا ينتهي وقدراته الجنسيّة خارقة، تندمج مع جسدين من جنسين مختلفين في لحظة واحدة، ولكنّ السّعادة لا تكمل دائما طريقها بشكل لانهائيّ، فهناك حتمًا فعلٌ ما من كاتب القدر يضعه على نصف الطريق ليضفي عليها بعض توابل السوسبانس والتشويق والحزن.

فالعلاقة الثلاثية التي بدأت لتوّها طريقها، والتي تغوص في بحر من السعادة اللامتناهي كانت تبدو غير مألوفة، لذلك الإله المتوحّش المضطرب والحاقد على البشر، فحسبه هناك عنصر دخيل في هذه القصّة، وعليه أن يضحّي بإحدى الشّخصيات لتكتمل أبعاد الدّراما فيها، فمن غير المعقول بالنسبة له أن يعيش الإنسان في سعادة مطلقة دون حواجز بهذا الشكل. ماريا، إسحاق، ريان؛ عائلة

سعيدة تشكّلت من ألم المجتمع وتخطيط قذر من إله لا يتعب ولا يمل من أن يحفر حفرًا لشخصيّاته ليسلّي نفسه، حيث يقبع في عالم فارغ لا أحداث في حياته سوى ألم مخلوقاته، قرّر اليوم أن يمحو بسهولة نسج هذه العلاقة بقلمه الذي لا يكلّ ولا يمل من خلق الكثير من العذاب للضّعفاء، فحفرته الأولى التي نسجها للثلاثي جعلتهم يقعون في غرام ثلاثيّ فريد، فسقط هو في حفرته، وكان عليه أن يعيد شوطًا آخر ليكتمل فسوقه وتتحقّق أهدافه الشّريرة من جديد، فريان أصيب بسرطان الكبد بكبسة زر من ذلك الرّوائي القذر وبعد معاناة طويلة مع الألم السّرطاني الفضيع والخبيث، وبعدما دفعت ماريا كلّ مصاريف علاجه، مات على سرير العلاج الكيميائي مودّعا أجمل لحظاته وأجمل أيّامه التي قضاها مع إسحاق حبيبه؛ الذي كان يبدو عليه الموت هو الآخر بعد أن فقد نصفه، بل كلّه بعد ضياع حبيبه وقرّة عينيه ريان، وأمّا ماريا فكان موت ريان أبشع ميتة في حياتها، فهي لم تحزن لأحدهم قطّ في حياتها كما هي حزينة اليوم، فريان لم يكن ساعي بريد عاديّ، بل أهلّ عليها برسالة عمرها؛ رسالة حبّها وأهدى لها الخلاص الذي لم تعرفه أبدًا في حياتها قبل حضوره، مات ريان ساعي البريد الذي كان يوصل الرّسائل والفواتير إلى النّاس، وكان بسبب مثليّته يعاني في مجتمع لا يرحم مثليّته التي لم يخترها بيديه، وإنّما كتبها فيه نفس الرّوائيّ الحقود المتناقض مع نفسه الذي يحرق الناس لخطئه هو وليس لخطئهم هم، ريان كان يخبّئ في قلبه وجعًا وألمًا كبيرين، فهو الذي عانى في صغره، والذي لم يكن في مقدوره مواصلة دراسته بسبب طرده من البيت من طرف أبيه وبدايته العمل مبكّرا لكي يحصّل قوت يومه، لم يفهمه أحد، لم يستوعبه أحد، فالفاشية الدّينية والنفاق الاجتماعي الذي يطغى هنا يجعل كلّ المختلفين يعيشون حياة البؤس، هي شعائر الحجّ عند الجزائريين، كلّ لحظة يتقابلون فيها مع مثليّ جنس يعتبرونه أقلّ من مستوى البشر ويقابلونه بعنصريّة كبيرة في كلّ مكان، إسحاق الصّغير كان الوحيد الذي فهمه ودافع عنه، لذلك أحبه

بصدق، وكان بقوّة حبّه يحميه من المجتمع ويجعله يشعر أنّه ليس وحيدا في هذا العالم، إسحاق قد فجع لوفاة ريان ودخل في نوبة حزن شديدة وعزلة حادّة، وحتّى ماريا لم تستطع إخماد بركان حزنه، فقد كان يحبّ ريان بكلّ جوارحه وعواطفه وكان يتمزّق داخليّا مع ريان طيلة أيام مرضه، حتّى إنّه أصبح نحيلًا جدّا، ماريا كانت تدعم صبره وتقول له دائما: - إسحاق، ريان قد ارتاح من مرضه -، ولكنّ إسحاق مهما كان يبدو كآلهة فقد كان طفلا صغيرا مراهقا؛ رجل في الطفولة ورجل في عالم الكبار، عالم لم يتعلّم منه سوى الجنس، صرخ وسط غرفة مفرغة من الأثاث : - لماذا كنت أحبّه يا ربّ، كنت أحبه، لماذا أنت عنصريّ مثل مجتمعك؟ لماذا حرمتني من حبيبي لماذا أنت شرير؟ -، ماريا حاولت مرارا تهدئته، ولكن الأمر كان يبدو أكبر ممّا في وسعها القيام به، فهناك كانت تشاهد رجلًا كان يرى في الله أنّه قد تواطأ مع المجتمع ضدّ حبّهما المثليّ، فالمثليّون منبوذون في هذا المجتمع البلاستيكي الظّلامي، وذنبهم الوحيد أنّهم يتبادلون الحبّ والحنان والمودة والرحمة، فما كان إسحاق و ريان إلّا كائنين يهتمّان لبعضهما بعضًا، ويملآن حياتهما بالكثير من السّعادة والطّيبة والحنان.

لقد أصبح إسحاق فعلا يبدو كعصفور صغير وضعيف، أو كما قال لها: -لقد كسرت أجنحتي يا ماريا، الآن لا أستطيع الطيران -.

ماريا تعلّمت الكثير من ريان؛ تعلّمت الصّبر والإخلاص، وتعلّمت منه التّمرّد، وتعلّمت منه كيف يقابل آلامه بصدر كبير ورحب وابتسامة لا تفارقه، حبّه للأيس كريم كان يخفي برودة أعصاب يتعامل بها مع آلامه، فهو دائما يبحث عن المذاق الرّائع في الأشياء التي يرفضها الآخرون في الأوقات غير مناسبة لذلك، ولكنّ ريان رحل في الوقت غير المناسب، لقد كان بإمكان الثلاثيّ أن يكمل علاقة حبّ هيستيرية لم يكتب لها الحياة طويلا؛ قدّر الله و ما شاء فعل.

لقد حاولت ماريا التي كانت حزينة لفراق صديقها هي الأخرى أن تجعله يطير مجدّدا، حاولت وحاولت إلى أن بدا بعد شهر ونصف على إسحاق لون

البشر ثانية، لقد كان أهله يتّصلون به كلّ وقت، لكنّ ماريا كانت تطمئنهم وتقول لهم إنّه بخير معها، وأنّه يخرج رويدا رويدا من حالة الحزن الهيستيرية التي كان يمرّ بها، طبعا عائلة إسحاق لم تكن تعرف شيئا لا عن مثليّته ولا عن علاقته بماريا، ولكنّه تعوّد على استقلالية قراراته، وكما أنّ عائلته تعوّدت على أنّ حرية ابنها لم تقده أبدا - على حد علمها- لما تخشاه، فهو كان مهذّبا جدّا ورياضيّا وبعيدا كلّ البعد عن المشاكل، واصل إسحاق علاقته مع ماريا، وتغيّر في طرفة عين من مثليّ إلى مغاير، ليس لأنه فعلا مغاير، بل لأنّ ماريا كانت الوحيدة التي تحمل ريح ريان على جلدها، وكما أنّ إسحاق وإن كان أحيانا يعجب بمؤخرات الشّباب، إلّا أنّه لم يكن ليخدع ريان حتى وإن كان ميتا، فهو لايزال في مستودع ذكرياته وأحلامه، غبريال أمسك يد ماريا في أحلامها وأدخلها في عالم يشبه عالم الألعاب وعازفي بيانو بأيدٍ طويلة وأصابع يد قصيرة، مشى معها فوق أوتار البيانو العظيم الذي كان صدئا، كانا كلّما مرّا على خيط منه يسترجع حيويّته، وقف عند آخر وتر وقفز مع ماريا منه إلى دوّامة من الألوان، بدت ماريا وغبريال وكأنّهما رسوم متحرّكة، كانت الألوان تلك تحاكي الاختلافات البشرية، وكان كلّ لون بها يصدر صوتًا فريدا وكأنه جرس،أخذتهما الدّوامة إلى عالم ضيّق من المرايا التي كانت تبديه واسعا جدّا وما إن وطئت أقدام ماريا العالم ذاك حتّى بدأت أعشاب صغيرة تبرز أمام أقدامهما، ووادٍ يخرج من قلب المرايا، ثمّ تحوّل غبريال إلى إسحاق يرتدي طاقم ثياب كلاسيكية وربطة عنق على شكل صدريّة أطفال رضّع وردية، وراح يطلب منها الرّقص، راحت ماريا ترقص معه على موسيقى بيانو هادئة يرافقها التشيلو حتى استيقظت من حلمها ذاك، وعانقت إسحاق الذي كان نائما جنبها، وعانقها هو أيضا وواصلت النّوم في أحضانه الدّافئة وحلمات صدره الرّجالية الحالمة التي ترسم على خدّها كلّ لحظة كلمة - أحبك -، لقد أحبّها إسحاق بالرغم من أنّه لايزال يرسم لوحة الحبّ في ذهنه؛ تجمعه هو ريان، ولكنّ لماريا مكانة خاصّة في قلب هذا الشاب

الذي أصبح يقارب التاسعة عشر من عمره، وأصبحت تبدو فيه ملامح الرجولة أكثر من أيّ وقت مضى، وبدأت يداه تبدوان خشنتين أكثر، وبدا كلّ ما فيه ينمو أكثر من أيّ وقت مضى، حتّى تلك الأعضاء التي كانت ماريا تحسبها كبيرة أصبحت تبدو أكبر بكثير، دخلت ماريا في قصة الحبّ مع إسحاق أكثر من أيّ وقت مضى واستسلمت لهذا القدر، وجعلها هذا الحبّ تنسى ابنها المسيح، لقد نسيته تماما، نسيت أنّها كانت تبحث عنه طيلة تلك المدّة، الآن أصبح حبّ إسحاق غايتها الأولى، إنّ الحبّ يجعلنا ننسى كلّ شيء في حياتنا، يجعلنا نندمج فيه بصفة مطلقة، ينسينا ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وأهدافنا، ويجعلنا في حلقة مفرغة حدودها السعادة والكثير من الاشتياق وعذابه، يجعلنا نبحر في خيال حبّ مفرغ من الأشكال تحوم حوله مثلّثات ضوئيّة تقودنا إلى عالم المطر لتزهر في أيدينا اللّمسات وتشرق على شفاهنا شمس القبلة لتنيرنا وتعمي عيوننا، فلا نبصر سوى الحبيب الذي أمامنا والذي نبادله الجسد، أمسك إسحاق ماريا من يدها وراح يتمشّى معها على الشاطئ الرّملي ليشاهدا غروب الشمس معا كالعادة.

إسحاق في الحقيقة كان يعشق عيون ماريا وهي تغرق في لون الغروب، وتعزف برموشها على قلبه وكأنّه كمان يسبّح بحمد الجمال، كان يعشق تلك الحالة الرّومانسية التي تسبح فيها ماريا وهي ترتدي الأبيض ويراقص شعرها ريح البحر وأمواجه وتتنفس أثداؤها على يديه ويدلّل فخذها رأسه وتلامس اصابع يديها خصلات شعره، كان أحيانًا يمازحها ويلاعبها، كان يعضّها من كلّ جهة ليشفي غليله من جمالها الذي كان يعذّبه كلّ الوقت ويدفع بشهواته نحو الظّهور؛ بالنسبة له كان جمالها لا ينتهي ولا مجال فيه لانتظار أيّ لحظة في أيّ وقت وفي أيّ مكان يستحق فيها جسدها أن يقطف برومانسية.

سألته ماريا: - إسحاق، هل تحبني؟ -.

أجابها بابتسامة كانت ترسم على ثغره حكاية حبّ رائعة: - كم مرة أجبتك يا

ماريا أنّي أعشقك، وأنّك كلّ ما لديّ الآن في حياتي -.
قالت له ماريا: - أعلم، ولكنّي أحبّ هذه الكلمة عندما تصدر من شفاهك الجميلة -.
قام إسحاق من مكانه وراح يصرخ بكلّ قوة -أحبك-، أيّها البحر، أنا أحبّ ماريا، أيّها البحر أخبر كلّ من يقابلونك بأنّي أحبّها، وحيثما وصلت مياهك ارسمنا على الشطآن، لنكون للعشاق قدوة اليوم، وليقرؤوا بقدسيّة شاعرية بعد مليون عام عندما يجلسون على ضفافك - أنا أحبّ ماريا -.
.. قامت ماريا و راحت تحاول إسكاته: - اسكت يا مجنون، اسكت، لقد فضحتنا -.
أمسك إسحاق ماريا من رجليها ودخل معها البحر، لقد كان باردا جدّا وماريا كانت تترجاه بدلع مفرط يعكس قلب الأنثى الذي بداخلها: - أخرجني، أخرجني، إسحاق لقد بلّلت شعري وملابسي -، ولكنّ إسحاق لم يكن يبالي كثيرا، كان يراها وهي مبلّلة أجمل من غروب الشّمس ذاك، وراح يقبّلها بشراهة داخل الشاطئ ومع الغروب التّامّ للشّمس استلقى إسحاق عاريا على الشّاطئ بجسمه المبلّل وكانت حبّات الرمل تلتصق بجلده، وأمسك ماريا بكلتا ذراعيه وألصقها به بقوّة، ولم يدعها حتّى تتحرك وطلب منها أن تصمت لكي يتأمّل جمالها للّحظات الأخيرة قبل الاندماج، لقد كان مشهدها ملائكيا رائعًا، كان يلتقطه إسحاق لجسد ماريا الذي كان يتمرّغ على صدره ويذوب بين عضلاته، ثم قبّلها واندمجا معا في رحلة جنسيّة مع بداية ظلام الليل، وتوهّجا في الشاطئ وكأنّهما مصباح ذرّي جعل الشاطئ يبدو في نهاره كاسريْن بجمال جسديهما ديكتاتوريّة الليل، وراحت أمواج البحر تعزف بهدوء مقطوعة موسيقيّة لتساعدهما على الاندماج أكثر، ماريا وإسحاق اسمان عبريّان وقفا على شرفة أمل في أرض الجزائر ليعيش حبّهما إلى الأبد.
ماريا لم تكن تنتبه لأيّ شيء في حياتها، فهي في البداية كانت تعيش لغاية

هي ابنها، واليوم تعيش لغاية هي حبّها، فعندما علمت لأوّل مرّة بأحداث التسعينيات، وأنه قد مات عشرات الآلاف من الجزائريين خلالها، وعن تغيّر الرؤساء والأحداث الأخرى التي عايشتها أصيبت بالصّدمة، فهي لم تشعر بذلك على الإطلاق، ولم تشعر أبدًا أنّ هناك شيئًا ما يقع حولها، لقد كانت فعلا بلا إحساس، واليوم بعد أن استنطق إسحاق مشاعرها، وبعد أن خرجت للسّطح إنسانًا من جديد على يد غبريال - فعلى الأقلّ أصبحت تمتلك بعض الأحاسيس وأصبحت تدرك محيطها أكثر- لم تعد تعيش من أجل ابنها، بل من أجل شخص يبادلها الحياة، لقد كانت ماريا تصرف على إسحاق الكثير من المال، لقد أصبح كالملك معها، كل ما يطلبه تحقّقه له ومع أوّل سنة بلغ فيها العشرين اشترت له سيّارة لا يحلم بها أيّ شابّ في الجزائر هدية، بالرّغم من أنّه لم يكن لديه رخصة سياقة، عرضت ماريا على إسحاق أن يسافرا معًا إلى ألمانيا لقضاء بعض الأيّام هناك، طبعا؛ إسحاق لم يكن له إلّا أن يقبل عرضها، ولكن؛ كان يجب عليه أولا أن يسأل أهله، طلب من ماريا لأوّل مرة أن ترافقه إلى بيته في بن عكنون إحدى الدّوائر بالجزائر العاصمة، وبالتحديد في منطقة معروفة لدى الشّعب باسم - ليزاس - من أجل أن تطلب هي بنفسها ذلك من أهله، وافقت ماريا بالطّبع، واتّجهت معه إلى بيته، وكلّها شغف للقائهم، دخلت بيته وكان يهبّ فيه جوّ روحانيّ بهيج يختلف قليلا عن بيوت الجزائريين عادة، كان هناك شمعدان في كلّ ركن منه يحكي قصة غريبة؛ لا هي شرقية، ولا غربية، كانت تتدفّق من حائط البيت أنشودة سماوية غريبة تحاكي في تفاصيل أبياتها معجزة ربّانية ما، كان البيت غريبًا على ماريا، جلست ماريا في حضرة أب وأمّ؛ كان إسحاق وحيدهما، كان الأبوان مبتسمين يتأمّلان ماريا بعدما ضيّفتها الأمّ بكلّ حبّ، ثمّ طلبت منهما أن يسمحا لإسحاق بمرافقتها في رحلة سياحية إلى ألمانيا، في البداية كانت تبدو أمّه خائفة، فهو وحيدها، ولكنّها قبلت في النهاية بتشجيع من الأب، فرحت ماريا كثيرًا بقبولهما عرضها، وكانت جدّ ممتنّة لهما، وبدأت من حينها

إجراءات السّفر الخاصّة بها وبإسحاق، علمت فيما بعد بعدما استفسرت من إسحاق أنّه ينحدر من عائلة يهوديّة جزائرية، وأخبرها عن حياة اليهود في الجزائر، وكونه اختار الديانة المسيحية، لم تفهم ماريا شيئًا، فقد كانت تظنّ أنّ كلّ الجزائريين مسلمين، لم تكن تعلم بوجود تعدّد ديانات في هذا البلد، والغريب في الأمر بالنسبة لها أنّ إسحاق كان مسيحيّا من عائلة يهوديّة يعيش في مجتمع مسلم لا يبدو مختلفا عنه كثيرا، في الجزائر يقال إنّ اليهود قد غادروا مع استقلالها إلى فرنسا أو إلى إسرائيل، حيث أسّسوا مدينة أشدود هناك، ولكنّ الحقيقة هي أنّ الكثير منهم لايزال موجودا في الجزائر متخفّيا عن الأنظار بسبب عنصريّة المجتمع تجاههم، وماريا الآن عرفت حقيقة عائلة إسحاق وعليها أن تحفظ سّرها هي أيضا، إسحاق أخذ ماريا إلى الكنيسة والتقت لأوّل مرّة بمريم العذراء، لقد ذهلت ماريا من اسمها، فهذا هو الاسم نفسه الذي تحمله هي أيضا، أشعلت لها شمعة، بالرّغم من أنّها لا تؤمن بالديانات إلّا أنّها كانت ترى فيها نفسها، ذهبت ماريا لبيت إسحاق ثانية، وزارت لأوّل مرة غرفته، لقد صدمت عندما رأت صورة غبريال معلّقة على الحائط تخاطبها، وكأنّها هلوستها المعتادة؛ غبريال هلوستها المقدّسة التي لا يعلمها أحد، سألت إسحاق بسرعة: -إسحاق هل تعرف هذا الرجل؟ ضحك إسحاق وأجابها: - نعم، إنّه صديقي -، ردّت ماريا متعجبة: - صديقك! هل تشاهده وتتكلم معه؟ -، فضحك ثانية وقال لها: - من؟ غبريال؟ -، فأجابت: - نعم، غبريال -، فأجاب: -غبريال غارسيا ماركيز، نعم صديقي الذي لا أتركه أبدا -، ذهلت ماريا؛ هل يعقل أن يكون لإسحاق أيضا هلوسات غبريالية مثلها، ثمّ أردف إسحاق قائلا: - غبريال غارسيا ماركيز، الروائيّ العظيم، أنا أحبّ رواياته كثيرًا، هل قرأت روايته - الحب في زمن الكوليرا-؟ إنّها رائعة من روائع الأدب العالمي؟ -، قالت له ماريا: - هو صديقي -، ضحك إسحاق وقال لها: - لم أكن أعلم أنّك تحبينه مثلي، هذه نقطة أخرى مشتركة بيننا عمري، لكنّ وفاته كانت صدمة نفسية لي، كنت أحبّه،

ولكنّ رسالته قد ساعدتني في تخطّي الكثير من الغموض في حياتي الإنسانية -. ثم قبّلها من فمها قبلة صغيرة. ماريا لم تكن تريد أن تواصل الحديث عن غبريال مطوّلا، فهي كانت تخاف أن ينكشف سرّ هلوساتها، قال لها إسحاق بصوت قدّيس: - هل تودّين أن نمارس صلاة كلّ الديانات معا؟ - فقالت له ماريا: - كيف ذلك ؟ -. فقال لها: - فلنلبس هذه الصلبان، ولنضع -الكيبا- اليهوديّة فوق رؤسنا ولنركع ونسجد مثل المسلمين، ونتلو آيات من الفيدا لخالق الكون، لكي تعمّ المحبّة والسّلام بين البشر وكلّ الكائنات الحيّة. مارست ماريا معه طقوسه تلك، ثمّ راح يقبّلها من كلّ صوب في جسدها، ثمّ قال لها: - إنّ الجنس هو صلاة العاشقين، ردّت ماريا ضاحكة: - وأنت نبيّ هذا الجسد الكافر ليعبدك بكلّ شهوة -.

تلك التّجربة الرّوحية التي مارستها ماريا لم تمنعها من التّفكير في حقيقة غبريال، اتّجهت إلى بيتها من جديد ونادت غبريال من قاع هلوساتها، أجابها غبريال الذي يبدو أنّه كان يمثل دور النائم في فراشها، قالت له ماريا: - قم فلقد عرفت حقيقتك، قال لها غبريال وهو يبدو بثياب جديدة: - هل أعجبك طاقمي الجديد؟ -، أجابت ماريا: - أنا لا أمازحك، أنت روائيّ، لقد أخبرني إسحاق-، قال لها غبريال وهو يبتسم: - حقّا، وما ذنبي إن كنت لا تقرئين ماريا؟ -.

- أوكي، لكن ماذا تفعل هنا؟ -، ردّ عليها غبريال: - أنا أساعدكما -، سألته ماريا: - من؟ أنا و إسحاق؟ وهل كنت تعرف إسحاق من قبل؟ -، فأجاب غبريال: - طبعا، أعرف إسحاق، فهو أرسل لي في الرابطة الطبيعيّة الكثير من الحبّ، وأنا ممتنّ لهذا-، سألته ماريا: - ولكن، لم تساعدنا؟ فقال لها غبريال: أنا لا أستطيع أن أتحدّث إليك بهذا الأمر مباشرة، يمكنني أن أرسم لك لوحة هلوسة لتفهمي، ولكنّي أشعر بالتّعب الآن ماريا، لقد أخبرتك سلفًا في حلمك، أجابته ماريا: - حسنًا، لا عليك، لكن ما الذي أتى بك إلى هنا؛ إلى الجزائر، ألم تجد إلّا هذا البلد التّعيس في كل العالم؟ -، أجابها غبريال: - إنّها حكاية طويلة يا ماريا، ولكنّي

سأختصرها لك، لقد كنت أعمل مراسلا صحافيا سنة ألف وتسعمائة وواحد وستين، كانت حينها الثّورة الجزائرية حديث كلّ العالم، لقد رسم فيها الشّعب الجزائريّ بطولات عظيمة، كانت شعوب العالم تتطلع إليها بوقار كبير، وكنت حينها أعمل بباريس حين أمر موريس بابون قوّاته بأن تلقي بالجزائريين في نهر السين، لقد كان ذلك المشهد ينبوعًا من الألم الذي يدفع الإنسان إلى الكتابة إلى الأبد، ويبحر في روايته ليحاكي الألم الإنسانيّ، ويدعو العالم إلى الحبّ والصدق والإنسانية الطبيعية، نعم، أنا روح غبريال غارسيا ماركيز، وهنا بالجزائر؛ بهذا الوطن الذي عانى كثيرًا، وأتمنّى أن تهديه الطبيعة إلى الطريق الإنسانيّ المستقيم وأن يجد دربه بعد كلّ هذه السنوات من التّيه -، ثمّ أردف: - ماريا، هل تتذكّرين الكتاب الذي كان في السّيارة في ذلك اليوم التّعيس؛ ذلك الكتاب المكرّس بالشّحم؛ كان ذلك الكتاب إحدى رواياتي - الحبّ في زمن الكوليرا -، لقد استمعت إليك في ذلك اليوم وأنت تتمنّين من كتابي إنقاذك، كنت في ذلك الوقت حيا اسامر بيتي و لكن صوتك الداخلي الصادق قطع المسافات في ثانية لكي استمع لكي كان يلزمني الكثير من الوقت لأفعل ذلك، وها أنذا هنا بعد كل هذه السنين أتجسّد أمامك كأمنية كبرت معك وتحقّقت بين يديك

تذكّرت ماريا بصعوبة بالغة أمر الكتاب الذي تمنّت منذ سنوات مرّت كالقرون أن ينقذها وها هو يفعل الآن ذلك، لقد شعرت في تلك اللّحظة أنّ الإله قد غدرها وأنقذها الكتاب، فالكتاب يحمل المعرفة، يحمل الحياة والأسرار، -كم من دول وحضارات أنقذها كتاب، وكم من دول وحضارات أخرى لم يجعلها تندثر سوى هجرانها للكتب، فقيمة الكتاب ليست في شكله ولا في حجم قداسته، بل في إنقاذه للإنسان من مخالب وأنياب الجهل، وهذا ما فعله كتاب غبريال لماريا، حيث حاول إنقاذها من جهل المجتمع، فالجهل أخطر من القتل وأشدّ من سكرات الموت، وقد يفعل الجهل بمجتمع ما ما لا تفعله أعتى الأسلحة به من خراب-.

عرفت ماريا حقيقة هلوساتها أو بعضا منها، واستلقت على ظهرها ثانية واندمجت مع أمّنا الطبيعة وشكرتها على هذه النعمة، وابتسم غبريال وغاب عنها كما تغرب الشمس آخر اليوم، وأكملت ماريا طريق حياتها الغراميّة مع إسحاق، وسافرت معه نحو بون بألمانيا؛ حطّت طائرة الخطوط الألمانية بمطار فرانكفورت الضّخم، واتّجها بالقطار السّريع نحو بون، هناك حيث حجزا غرفة في فندق رائع يختزل ألمانيا فيه حث تدبّ الرائحة الأوروبية من أوصاله، قضى الثّنائيّ هناك شهرا رائعا كان أجمل من شهر عسل، تمتّعا معًا بتلك المدينة الهادئة والسّاحرة المليئة بالبيرّة واللّون الورديّ، كان الكلّ هناك جميل وكان إسحاق أحيانا يكحّل عينيه بمؤخرات وجمال الشّباب الألماني، ماريا كانت تشعر بذلك، ولكنّها كانت تتركه يتصرّف بحرية، فجمال الشّباب الألمان لا يقاوم، زار إسحاق وماريا بيت بتهوفن كما زارا مدينة كولن وجنونها، كان مجتمعا غريبا عن المجتمع الجزائريّ؛ القبل فيه فعل لا إرادي، في كلّ مكان توجد قبل وعناق وكان كلّ شعبه يعيش حالة حب فريدة من نوعها،انه شعب المحبة، أكملت ماريا شهرها ذاك وعادت رفقة حبيبها إسحاق وهي حبلى منه كثمرة ذلك الحبّ الرّائع الذي طرق بابها فأنساها كلّ أمراضها النّفسية، لقد عوّض لها القدر ابنها الأوّل، وإسحاق كان يضع على بطنها رأسه، وكان يحاول دائما الاستماع له، لقد اتّفق العاشقان أن يسمّياه - ريان -، لقد كان هذا الحبّ مستحيلا، ولكنّه تحقق، فإسحاق المثليّ جنسيّا، المسيحي ذو الأصل اليهودي عشق امرأة تكبره بخمس عشرة سنة وأرملة وملحدة من أصلٍ مسلم، واختار أن يعيش معها حياتها، وتحرّكت شهواته ورغباته وعواطفه لأجلها، وماريا التي لم تشعر بانجذاب عاطفي لرجل أبدا، ولم تهتمّ لشيء، تحرّكت عواطفها دفعة واحدة لتحبّ مراهقًا دخل شبابه الآن لتوّه، وأنجبت منه طفلا جميلا، لقد أنجبت طفلها وكأنها لم تنجب من قبل، أنجبته مثل الولادة الأولى بسعادة غامرة وتزوّجت من إسحاق دون علم والديه، لقد ملأ الطفل الصغير حياتهما

وجعلهما في غنى تامّ عن كلّ العالم، إنّه طفلها الثاني الذي تشبّثت فيه بكلّ قواها حتى لا يضيع مثل الأوّل، وعاد الثّلاثي من جديد إسحاق وماريا وريان الطفل الصغير، وأعادا حبّهما كتابة الشخص الذي قرّر الله أن يمحوه مرّة من كرّاسة الحياة.

جاء غبريال إلى حلم ماريا كالعادة يخبرها بأشياء لا تعلمها سلفا في اللحظات الحرجة، وأخذها إلى قريتها التي تربّت فيها، كان قلبها ينبض بسرعة ومع كلّ نبضة من قلبها كانت سرعة غبريال وماريا تزداد في الغابة صاعدين إلى الوادي الذي ولدت فيه ماريا ابنها الأوّل وهي صغيرة، وجدت هناك إسحاق يرتدي بزّة سوداء، أمسكها غبريال من يدها وهي ترتدي فستانًا أحمر وقدّمها إلى إسحاق الذي أمسكها بدوره من خصرها وراح يرقص معها التانغو، كان الثّنائي يبدو وكأنّه متخصّص في هذه الرقصة، كان نصف وجه ماريا يبدو سعيدا، أمّا النصف الآخر فقد كان حزينا جدّا، ماريا لم تكن فعلا ماريا، حينها كانت ماريا طفلة صغيرة حافية القدمين تشاهد ماريا الكبيرة وهي تراقص إسحاق، قامت ماريا من حلمها وهي منزعجة، لقد فهمت رسالة من حلمها ذاك؛ رسالة جعلتها مرتابة جدّا، إسحاق أخبرها أنّه قد عايش بنفس الحلم وهو يرقص معها، لقد كان سعيدا جدّا، وتمنّى أن يتعلّم رقصة التانغو حقيقة يوما ما معها، الحلم بالنسبة لماريا كان لغة تقرأ، لذلك ارتابت، فهي تعلم أنّ إسحاق متبنّى، فقد أخبرتها أمّه بذلك وأنّها تكبره بخمسة عشر سنة تقريبا، اتّجهت للتحاليل المخبريّة، لم تكن تريد أن تخبر إسحاق عن أيّ شيء، ولكنّه كان يثق فيها، لذا فهو لم يسأل عن شيء، فحتما زوجته لن تؤذيه أبدا، أجرى تحاليل لم يعرف سببها معها، وأكمل حياته بشكل عاديّ معها، بعد أسبوع ظهرت التحاليل، لم تكن ماريا تريد أن تفتحها أو أن تقرأها، وضعتها في حقيبتها، ولأوّل مرة بعد اثنين وعشرين سنة قرّرت أن تزور قريتها مجددا، ركب إسحاق و ماريا السّيارة ومعهما ابنهما ريان واتجها نحو القرية، ذكّرتها الطريق بكلّ أوجاعها فهي الطريق نفسها التي

محت عليها ماضيها في الأول، وها هي تعيد كتابته الآن عليها، لم تكن الطريق طويلة جدّا كما كان الأمر من قبل ولكنّها كانت أطول من ذلك الحدّ بكثير، ولمّا وصلت وفتحت باب سيّارتها ونزلت كملكة وهي التي عُرّيت وأهينت هنا، وجدت القرية نفسها لم تتغيّر، مازال نفس المجتمع الذّكوريّ يبجّل نفسه، التخلف نفسه و الفقر نفسه، لم تكن ماريا تريد النّظر لأيّ شخص هناك، لم تزر قبر أحد، فهي تكره هذه القرية، اتّجهت نحو الوادي الذي رمت فيه ابنها أمام الصخرة نفسها التي وضعته فيها، أعجب إسحاق بالمكان ودقّ قلبه على غير العادة، وكان قد لاحظ أنّه المكان نفسه الذي كان يرقص فيه مع ماريا في الحلم، فقال لها وهو يحمل ريان بين ذراعيه: - ماريا، إنّه المكان نفسه الذي حلمنا به، هل تريدين أن نرقص التانغو؟ تأمّلته ماريا والخوف يبدو عليها، ثمّ فتحت نتائج التحاليل المخبرية أو تحليل الحمض النّووي، سقطت أوّل دمعة من عينها اليمنى، ثمّ تلتها دموع أخرى كالشّلال، لقد قرأت النّتيجة بروحها، بقلبها وبعقلها، وبكلّ جزء فيها، اشتد اشتياقها للحقيقة ونظرت للمرّة الأولى والأخيرة لخريطة الكنز التي في يدها وكانت النتيجة صادمة، فإسحاق حبيبها وزوجها وأب ابنها ما هو إلّا المسيح الضّائع، ما هو إلّا ابنها الذي رمته وهو صغير على الطّريق، وتذكّرت أمر رواية غبريال غارسيا ماركيز، وفهمت لوحدها أنّ روح غبريال غارسيا ماركيز قد حفظتها منذ تلك اللحظة وحافظت على ابنها وأهدتها إيّاه مجدّدا، لم تعرف ماذا تفعل حينها أو ماذا تقول، كانت تخاف من كلّ شيء، وفي الوقت نفسه تشعر بالأمان؛ شعور مضطرب جدّا يشبه الولادة، فالشّجرة إذن لم تسقط القدر المشؤوم فقط، بل أسقطت كذلك العار اللّذيذ والشّهوة المستنيرة والاضطراب الرّوائي العنيف، لم تشأ أن تخبره حينها بالعبث الذي خطّه الرّوائي كعادته، مشت صوبه بخطوات طفلة في الخامسة عشر من عمرها وعانقته ، ولازمت البكاء طويلا، إسحاق لم يفهم شيئا ولكنّه بكى أيضا، وكان قلبه يقول له أشياءً أكبر من اللّغة، وكذلك ريان بينهما؛ ريان الصغير،

وريان الكبير واقفا بجانبهما، وانفتحت بوّابة في السماء تشبه الشّمس المتولنة و هي تتمركز بجوف لامرئيللثقوب السوداء، ابتسم غبريال غارسيا ماركيز وودّع ماريا بهدوء وطار بعيدا وهو يمسك يد خورخي أمادو واستقبلهما جبران خليل جبران وأقفل البوابة بعصا الأبد الرّوائيّ، واختفى الجميع وعاد المسيح إلى الحياة وعادت لماريا بكارتها المقدّسة.

بتكتب روايات .. قصص .. شعر أو مقالات

بتكتب عربي أو انجلش ..

أو حتي بترسم .. تواصل معانا و هنساعدك

تلاقي مكان لابداعاتك

تواصل معنا:-

٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

website : www.fasla.org

E-mail :- Fasla.Pub@Gmail.com

Facebook.Com/Fasla.Pub